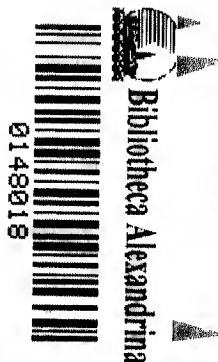


المنهج العلمي وتفسير السلوك

تأليف

دكتور محمد حماد الدين السبيعي

أستاذ علم النفس
جامعة عين شمس وجامعة الكويت
وخبير الأمم المتحدة (سابقاً)



Bibliotheca Alexandrina

النهج العلمي وتفسير التباين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنهج العلمي وتفسير السلوك

تأليف

دكتور محمد عماد الدين إسماعيل

أستاذ علم النفس

بجامعة عين شمس وجامعة الكويت

وخبير الأمم المتحدة (سابقاً)



حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الرابعة)

مزیلة ومنقحه

١٤٠٩ھ - ١٩٨٩م

دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقية توزيع
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت



محتويات الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|------------------------------|--|
| ٩ | مقدمة الطبعة الرابعة |
| ١٣ | مقدمة الطبعة الأولى |
| الباب الأول | |
| العلم والتفكير العلمي | |
| ٢١ | الفصل الأول : تطور التفكير |
| ٢٨ | الفصل الثاني : التفكير العلمي : تعريفه وأهدافه |
| ٢٨ | ما هو العلم |
| ٣٣ | أهداف العلم |
| ٣٣ | الفهم |
| ٣٥ | التنبؤ |
| ٣٩ | التحكم أو الضبط |
| ٤٤ | الفصل الثالث : مسلمات العلم |
| ٤٥ | مسلم الحتمية |
| ٤٨ | مسلم الاضطراب |
| ٥١ | مسلم الحسية |
| ٥٦ | الفصل الرابع : جواب التفكير العلمي |
| ٥٧ | الناحية الوضعية في التفكير العلمي |
| ٦١ | الناحية النظرية في التفكير العلمي |
| ٦٣ | الفرض العلمي |
| ٦٥ | شروط الفرض العلمي |
| ٦٧ | الفرض العلمي والنظرية |
| ٦٨ | الفرض العلمي والقانون العلمي |
| ٦٨ | الفرض العلمي والحقيقة |

| | |
|----|---|
| ٦٩ | طرق تحقيق الفروض |
| ٦٩ | طريقة الاتفاق أو التلازم في الوقوع |
| ٧٠ | طريقة الاختلاف أو التلازم في التخلف |
| ٧١ | الجمع بين طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف |
| ٧٣ | طريقة التغير التمسى |
| ٧٦ | الفصل الخامس : خصائص النظرية العلمية وبعض المميزات الأخرى للعلم |

الباب الثاني

تفسير السلوك الإنساني

| | |
|-----|---|
| ٨٧ | الفصل السادس : تفسيرات بدائية |
| ٩٥ | الفصل السابع : أسباب « نفسية داخلية » |
| ٩٧ | الفرايز كمثال للتكوينات الغيبية « النفسية » |
| ١٠٤ | أمثلة أخرى للتكوينات الغيبية ذات الصبغة النفسية |
| ١٠٨ | الفصل الثامن : أسباب « جسمية داخلية » |
| ١١٣ | تفسيرات غيبية ذات صبغة فسيولوجية |
| ١١٦ | مفهوم الوراثة في تفسير السلوك |
| ١٣٥ | حقائق بيولوجية في الوراثة |
| ١٤٤ | المهندسة الوراثية والتحكم في الوراثة |
| ١٤٨ | الفصل التاسع : الاستجابات والأهداف كأسباب للسلوك |
| ١٦٠ | الفصل العاشر : المنهج العلمى في تفسير السلوك |
| ١٦٠ | سما هو السلوك |
| ١٦٤ | المتغيرات التى يعتبر السلوك محصلة لها |
| ١٧٢ | مشكلة التحديد - الاتجاه الإجرائى |
| ١٨١ | مشكلة التفسير - المتغيرات الوسيطة |
| ١٨٩ | تصنيف المتغيرات - إطار لدراسة السلوك |
| ١٩٥ | الفصل الحادى عشر : لماذا تأخر التفسير العلمى للسلوك |

إلى كل الذين يعارضون الدراسة
العلمية للسلوك الإنساني .

مقدمة الطبعة الرابعة

لم يدرك بخلدى يوم وضعت هذا الكتاب لأول مرة ، أن الحاجة إليه سوف تكون أشد إلحاحا بعد مرور أكثر من ربع قرن على طبعته الأولى . ذلك أن من المفروض في عصرنا هذا ، الذى تقوم الحضارة فيه أساسا على العلم والتكنولوجيا ، أن نكون سائرين فى نفس اتجاه العصر . بعبارة أخرى كنت أتوقع أن يكون التفكير فى أمور حياتنا سواء منها ما يتصل بسلوكنا ومشكلاته ، أو ما يتصل بالبيئة المادية ومطالبنا منها ، سائرا فى الاتجاه العلمى بخطى أوسع بكثير مما كانت عليه ، وبثبات واتساق لا يتردد ولا يحيد . وخاب ظنى وخاب ظن الكثيرين معى ، عندما جاءت النتائج مخالفة لكل التوقعات .

فقد تعرضنا منذ ذلك الحين للعديد من التيارات الفكرية التى تعتبر انتكاسا مروعاً لكل ما حصلنا عليه من إنجازات فى عصر التنوير الذى ساد النصف الأول من هذا القرن . فألقى بالجهود التى قام بها مفكرون عظام من أمثال الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، فى غيابه من الجهالة . وقامت الدعوة مرة أخرى إلى النقاب بدلا من السفور ، وإلى التمسك بالشوائب التى علقت بالدين فى عصور الجهل بدلا من الزيادة فى أعمال العقل . بل أكثر من ذلك فقد أدينت نشاطات إنسانية بأكملها كالموسيقى والفن والأدب ومظاهر الملبس والمأكل وممارسات الحياة اليومية كالنوم وتناول الطعام وكل ما يمكن أن يخطر على بال ، واتهمت بالكفر والإلحاد !!

ولم يسلم من هذه الانتكاسة الفكرية بعض ممن كانت مقادير الدولة فى أيديهم . فإذا بقادة كبار يلجأون إلى التنجيم لتحديد موعد المعركة .. وإذا بمسؤولين آخرين يأخذون مواقف خطيرة فى مستقبل الدولة بشيء كبير من الاستخفاف والقدرة ، بعيدين كل البعد عن الحسابات العلمية والتقديرات الموضوعية للعوامل والقوى المادية فى علاج تلك المواقف .

وإذا تركنا هذه الأمثلة الصارخة للانتكاسة الفكرية بشكل عام ، إلى ما نحن بصده هنا من حيث النظر إلى السلوك الإنسانى كظاهرة تخضع للدراسة العلمية ، نجد أنه لم يحدث أى تقدم فى هذا الصدد . بل على العكس تأكدت النظرة التأملية الذاتية إلى تلك الظاهرة

بشكل أكبر بكثير مما كانت عليه ووجدنا من الأساتذة المتخصصين سواء في العلوم الاجتماعية أم في الدراسات الإنسانية من ينكر كلية امكانية قيام علوم للدراسات الاجتماعية ، ويدعى أن « العلوم الاجتماعية ليست علوما »^(١) .

ونجد كذلك ندوات ومؤتمرات على مستوى عالمي واقليمي ومحلي ، تدعو إلى اعتبار أن ما جاء في التراث من آراء هو الكلمة الأخيرة في العلم وهو ما يجب أن يتبع ، وأما غيره فهو لغو وحيد عن المعرفة الحقة^(٢) . وكأنهم بذلك يريدون أن يجمدوا عند ما جاءت به الحضارة الإسلامية من معارف بدلا من أن يعترفوا به كخطوة على طريق المعرفة الإنسانية ، باعتبار أن مسيرة التاريخ لا يمكن أن تتوقف .

وعلى مستوى طلاب الدراسات العليا لا يزال يعز على الكثيرين فهم الظاهرة السلوكية ووضعها من حيث المنهج والبحث العلمي . فالمفاهيم التي تتضمنها بحوثهم غالبا ما تكون غامضة تعتمد على الصياغة اللفظية التي تستعصى على الترجمة الإجرائية . وحتى لو كانت متغيرات البحث قابلة لمثل هذه الترجمة، فإن صياغة المشكلة في كثير من الأحيان لا تتم عن فهم واضح لما نريد. أن نصل إليه من حيث تفسير الظاهرة السلوكية تفسيرا علميا . ولقد صادفت عناء كثيرا في توضيح الكثير من هذه الأمور .

من أجل هذا وأكثر لمست الحاجة الملحة إلى إعادة طبع هذا الكتاب ، خاصة وأن حقائق كثيرة في العلم قد جدت . ومن أهم هذه الحقائق ما يتعلق بموضوع الوراثة . وتمشيا مع الاكتشافات العلمية المدهلة في هذا المجال وما جاء به موضوع الهندسة الوراثية من إنجازات لم تكن تخطر على بال ، فقد روجع هذا الموضوع مراجعة شاملة في هذه الطبعة - ويعتبر ما جاء فيه شيئا جديدا تماما عما كان في الطبعات السابقة .

وأخيرا أود أن أقرر أنه بالرغم من أن هذا الكتاب لم يكن من كتب المقررات التقليدية ، إلا أنه كان في كثير من الأحيان يطلب كقراءة أساسية لبعض المقررات خاصة مقررات مناهج البحث في علم النفس بشكل خاص والعلوم الاجتماعية بشكل عام . ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن مثيرا للجدل . فهناك من كان يعتبره - ولا يزال - كلاما خطيرا من حيث ما يجب أن تكون عليه النظرة إلى الظاهرة السلوكية . وهؤلاء هم الذين ينادون

(١) توفيق الطويل : اشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوما (مسئلة من : اشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي) ندوة أقيمتها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٨٥ .
(٢) المعهد العالي للفكر الإسلامي (واشنطن) - اللقاء السنوي الرابع : قضايا النهضة والعلوم السلوكية - الخرطوم في ١٥ - ٢٢ يناير ١٩٨٧ .

دائما بوجوب ابتلاع منهج ملامم لدراسة هذه الظاهرة تختلف اختلافا جندريا عن منهج البحث العلمى المتعارف عليه فى العلوم الطبيعة . وإذا ما سألنا هؤلاء ما هى معالم هذا المنهج الجديد لا نخطئ غالبا بأية إجابة إيجابية .

ونحن نرحب بالمناقشة فى هذا الموضوع . وربما كانت الفائدة الأولى من هذا الكتاب هو أن يكون مثبرا للجدل لا أن يؤخذ كل ما فيه كقضية مسلمة . على أن يكون ذلك الجدل فى النهاية مفيدا ، بمعنى أن نضع أيدينا على شىء ملموس يمكن أن تستفيد منه فى سبيل تحقيق أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى .

والله المعين .

م . ع . أ
القاهرة ١٩٨٨

مقدمة الطبعة الأولى

لم يكد ينتصف القرن السابع عشر حتى صار مفهوماً لدى الناس أن عالمنا الأرضى هلا يسبح فى محيط من الهواء الذى يغلفه من جميع الجهات على النحو الذى يغلف به الماء جزءاً كبيراً من سطح اليابسة .

وقد دعا هذا الاعتقاد عالماً من علماء ذلك العصر إسمه فرانشسكولانا إلى أن يتخيل أن أى مركب أخف من الهواء يستطيع أن يسبح فى هذا المحيط الهوائى ... ثم أخذ يبين بالتفصيل كيف يبنى مثل هذا المركب إذا أردنا أن نحقق ذلك الحلم .

إلا أن هذا العالم لم يحاول أن يضع اقتراحه هذا موضع التنفيذ ، إذ كان يعتقد أن هناك سبباً قوياً يحول دون تحقيقه . ذلك « أن الله » - على حد قوله - لا يسمح باختراع . من هذا النوع أن يأخذ مجراه ، نظراً لما يمكن أن يؤدي إليه من نتائج عديلة قد تكون سبباً فى إزعاج الحكومة المدنية . فمن ذا الذى ينتظر عندئذ أن تبقى مدينة واحدة فى مأمن من شر الغارات الجوية ، ما دام يصبح فى إمكان سفينتنا هذه أن تسبح فوقها مباشرة ، وفى أى وقت تشاء . كما أنها تستطيع أيضاً أن تهبط عليها فتتزل الجنود إلى أرضها . هذا وقد يحدث نفس الشيء بالنسبة للمنازل وبالنسبة للسفن التى تسبح فى البحر . إذ أن مركبنا هذه تستطيع أن تهبط حتى تصل إلى قلاع السفن فتقطع حبالها . بل إنها لتستطيع - حتى دون أن تهبط إليها - أن تلقى إليها بخرطافات فتقلبها رأساً على عقب ، وتقتل رجالها ، وتحرقها بكرات من لهب . وما يصدق على السفن يصدق أيضاً على المبانى الضخمة والحصون والمدن . كل ذلك دون أن يصيب سفينتنا الهوائية

أى مكروه ، إذ يمكنها أن تفعل ذلك وهى على ارتفاع يكفل لها أن تكون بعيدة عن مرمى المدافع التى قد تطلق عليها من أسفل .

على أن تحفظ «لانا» لم يكن له أساس بالمرة . ذلك أن الله - على غير ما كان يتوقع - قد خدله ، وسمح لاختراعه بأن يأخذ مجراه . وكان ما وصفه بدقة من قتل وتدمير وإنزال جنود وضرب بالقنابل وتخريب وغارات جوية ، وغير ذلك مما أقام عليه تحفظه ، هو بالضبط ما يجرى اليوم من فنون الحرب الجوية الحديثة .

هذه قصة^(١) طريفة تؤكد لنا ناحيتين هامتين فى علاقة العلم بالمجتمع: الناحية الأولى هى كيف أن عقائد زائفة قد تحول أحياناً دون تقدم العلم وتقف فى سبيله عقبة كأداء . والناحية الثانية هى كيف أن العلم يمكن أن يستخدم كأداة لخلق الشقاء والتعاسة للإنسانية ، بدلا من العمل على خيرها وإسعادها . والناحيتان ليستا مستقلتين إحداهما عن الأخرى . بل هما ، على خلاف ما قد يبدو لأول وهلة ، شديدتا الصلة إلى حد كبير . ذلك أنه إذا كان العلم الطبيعى قد استخدم حتى اليوم دون ما حرص أو مسئولية ، فإن ذلك يرجع إلى أن عقائد زائفة - كذلك التى عوقت «لانا» ومنعتها من السير فى اختراعه - تحول حتى الآن دون تقدم العلم فى النواحي الاجتماعية كما تقدم فى النواحي الطبيعية .

إن الإنسان يبدو اليوم وقد فاقت قدرته كل حدود تعقله ، أو اتزانه وحكمته . أو بمعنى آخر فإن قدرة الإنسان قد نمت بشكل لا يتناسب مع القدر الذى نمت به حكمته ، أو اتزانه الانفعالى وأخلاقه الاجتماعية . فلم يكن الإنسان فى يوم من الأيام فى مركز أفضل مما هو عليه الآن من حيث القدرة على بناء عالم سعيد صحيح منتج . ومع ذلك فإن الأمور لم تبد أشد حلكة وأدعى إلى القلق مما هى عليه اليوم . إن وقوع حريين عالميتين ضروستين فى مدى نصف قرن فقط ، قد زعزع عند الناس كل شعور بالأمن ، وجعل فكرة السلام والاستقرار فكرة بعيدة صعبة المنال . فلقد بددت مناظر القتال والتخريب أحلام الناس ومآلهم فى إمكان التقدم نحو مدنية أعظم . وأصبح يخشى اليوم مما هو أشد وأقسى . أصبح يخشى من وقوع خطأ بسيط يكون بمثابة بداية النهاية ، نهاية العالم ، والإطاحة به

في غياهب الفناء . فإن دفع العالم إلى سلسلة من التفجرات لا تنتهى إلا بنهايته ، لم يعد اليوم شيئاً من الصعب على العلماء أن يفعلوه .

وقد يضع البعض اللوم في ذلك على العلم نفسه ، ذلك أن العنصر المميز في أى عصر من العصور يعتبر في الغالب مسئولاً عن متاعب ذلك العصر . وقد لعب العلم في القرن العشرين دوراً أساسياً . لذلك ، فليس من المستغرب أن يكون العلم فيما أصاب العالم من شرور ، هو كبش الفداء ، أو هو الضحية التى تحمل وزر كل هذه الشرور . وقد يكون لذلك الهجوم على العلم ما يبرره . أليس هو العلم الذى امتدت يده إلى الطبيعة ففهم أسرارها وحل ألغازها ؟ أليس هو العلم الذى نما نمواً غير متعادل فزاد من سيطرتنا على العالم المادى ، دون أن يعدنا لمواجهة المشاكل الاجتماعية الخطيرة التى تنجم عن ذلك ؟ أليست هى تطبيقات العلم التى تشيع الاضطراب وتسبب المشكلات بين الناس ، عندما تنشأ صناعة لا يكون المجتمع معداً لها وتندثر صناعة أخرى تاركة الملايين بغير عمل ؟ أليس هو تطبيق العلم الذى يمنع المجاعات ويقلل الأوبئة فيزيد من عدد السكان بما لا يتناسب مع قدرة الحكومات على الضبط أو التنظيم الشامل ، وعلى نشر العدالة وإتاحة فرص الحياة لكل فرد ؟ وأخيراً أليس هو العلم الذى جعل الحرب أكثر فظاعة وأشد تدميراً ؟

حقاً ، إن أغلب تلك النتائج لم يكن مقصوداً ، ولم يرتب عن وعى وتفكير سابق . ولكنه قد حدث على أى حال . ولاشك أن الناس كانوا يتوقعون أن يكون العلماء وهم النخبة الذكية من الرجال ، واعين بكل هذه الآثار ، ومدركين لما يمكن أن يترتب على علمهم من نتائج .

لذلك كله لم يكن من المستغرب أن يهاجم العلم في بعض الأحيان ، وأن تنشأ دعوة إلى التخلي عن العلم ، ولو في الوقت الحاضر على الأقل ، أو الاتجاه بالإنسانية نحو إحياء الفنون أو إحياء الدين ، ووضع أدوات العلم في المتاحف ودور الآثار ، كإحدى مراحل التطور العقيمة في الثقافة البشرية . ولكن هيات ! فإن مثل هذا الاتجاه من العلم لا يمكن أن يجد عاقلاً واحداً يدافع عنه . فمن ذا الذى يستطيع أن يضع للتفكير الإنسان حدوداً ؟ من ذا الذى يستطيع أن يرفع يده أمام عقول الناس قائلاً : « لا تعرفى » وفضلاً عن ذلك فإنه لا فضل في الجهل لذاته . إننا لا نستطيع اليوم أن نتصور كيف يمكن أن يتوقف البحث العلمى ، دون أن تكون نتيجة عملنا هذا أن يندفع العالم اندفاعاً إلى الجوع والجهل والأمراض .

فما هو الحل إذن ؟ الجواب هو أن العيب ليس عيب العلم في ذاته ، بل عيب الطريقة التي يطبق بها العلم . إن الخطأ ليس في العلم بل في تطبيق العلم . ولقد كانت طريقة العلم ناجحة دائماً ومفيدة دائماً أينما استخدمت . فقد ساعدتنا هذه الطريقة على حل الألغاز الطبيعية ، وفهم أسرار الكون . إلا أن المعرفة التي مكنتنا هذه الطريقة من الحصول عليها لم تستخدم دائماً في الاتجاه النافع . فالعيب إذن في التطبيق وفي الاستخدام . ومن الذي يستخدم العلم في الطريق المدمر ؟ إنه الإنسان نفسه : الإنسان الذي يعرف والذي يكشف والذي يفسر ، هو نفسه الذي يخطئ فيستخدم علمه هذا في غير مصلحته . فلنجعل الإنسان إذن موضوعاً للدراسة العلمية كما فعلنا بالطبيعة . فلنخضع السلوك الإنساني للمنهج العلمي ، فلنطبق الأسلوب العلمي في فهم الطبيعة البشرية ما دام قد أفادنا في فهم الطبيعة المادية ، وما دام الإنسان وتصرفاته هي بيت القصيد في المشكلة .

إن الحل لا يكون بالتقهقر في تلك المجالات التي تقدم فيها البحث العلمي ، بل بالتقدم بهذا البحث في مجال الطبيعة البشرية ، حتى نصل إلى نفس النقطة التي وصلنا إليها في الطبيعة المادية . إن أمل الإنسانية الوحيد في الخلاص من أزمتها الحالية هو في فهمها لطبيعتها ، هو في التقدم العلمي في مجال السلوك الإنساني . فإذا استطعنا أن نلاحظ السلوك البشري ملاحظة دقيقة موضوعية ، وإذا فهمنا طبيعة هذا السلوك والعوامل المؤثرة فيه ، ربما استطعنا عندئذ أن نوجهه في الطريق النافع المفيد . ولقد أصبحت الحاجة إلى إحداث مثل ذلك الإتران ملموسة الآن إلى حد كبير وعلى نطاق واسع . ولا بد على الذين في يدهم أمور التوجيه والتخطيط أن يعملوا على تحقيق ذلك التوازن . فمما لا شك فيه أن الدولة المتقدمة في العلم الطبيعي ، قد أدركت الآن بشكل واضح أنه لا فائدة ترجى مطلقاً من تقدم العلوم الطبيعية ، ما لم يتضمن ذلك تقدماً واضحاً في علم الطبيعة البشرية . إذ أننا في هذه الحالة فقط يمكننا أن نستخدم نتائج علوم الطبيعة غير البشرية بحكمة وتعقل .

الإقناذ والكلمة الأخيرة إذن نجدها عند العلم في تطبيقه في فهم الطبيعة البشرية . فعيب الإنسانية ليس في تقدمها العلمي ، بل في تخلفها العلمي في مجال السلوك الإنساني .

على أن تفسير السلوك الإنساني تفسيراً علمياً ليس بالأمر السهل الميسر . فهناك عوامل كثيرة قد تعوقنا عن النظرة العلمية إلى الإنسان ككائن يتصرف ويفكر وينفعل ويجب ويكره . وليس هنا مجال مناقشة هذه العوامل ، فسوف نعرض لها بالتفصيل في هذا الكتاب . ولكن ما دام الأمر كذلك ، فأول شيء يجب أن نطمئن إليه في دراستنا العلمية للسلوك البشري هو أن نفهم أولاً وعلى وجه التحديد ما هو العلم وما هو التفكير العلمي وهذا هو موضوع الباب الأول من هذا الكتاب . ولكي نفهم ما هو العلم وما هو التفكير العلمي علينا

أولاً أن نفهم أين يقع التفكير العلمي من أنواع التفكير الأخرى ، وهل هناك أنواع أخرى من التفكير ، وما هي قيمة التفكير العلمي بين هذه الأنواع الأخرى . ولما كان تحقيق هذا الهدف لا يتم إلا في داخل الإطار التاريخي للتفكير كظاهرة اجتماعية لذلك جعلت موضوع الفصل الأول «تطور التفكير» . وإذا تحدد التفكير العلمي في ضوء التطور التاريخي للتفكير البشري ، يبقى بعد ذلك أن نعرف العلم على وجه الدقة ، أي تعريفاً جامعاً مانعاً يبين لنا مميزاته ، ويبين لنا خصائصه . كما يبقى علينا أن نعرف إلى أي الأهداف يرمى العلم ، وما هي المسلمات التي يستند إليها . وهذه العناصر الثلاثة . معنى العلم وأهدافه ومسلماته هي موضوع الفصلين الثاني والثالث من الكتاب . أما كيف يحقق العلم هذه الأهداف أي ما هي النواحي المختلفة التي يترادها العالم في سعيه لإنجاز المهام الملقة عليه ، فهي موضوع الفصل الرابع ، حيث تعرضت لفكرة الملاحظة أو الناحية الوضعية ، والتفسير أي الناحية النظرية ، سواء كان ذلك التفسير في صورة فرض علمي أم قانون أن نظرية . وإذا يكتمل البحث العلمي دائماً عندما يتخذ تلك الصورة الأخيرة ، أي صورة النظرية ، لذا كان لابد أن نعرف خصائص النظرية العلمية ، ونبين بعد ذلك الخصائص الأخرى التي فاتها ذكرها بالنسبة لما يتميز به العلم .

أما الباب الثاني في هذا الكتاب فهو عبارة عن تطبيق الخصائص التي ناقشناها في الباب الأول في مجال السلوك البشري . وهذا يقتضي منا أن نرى أولاً كيف كان السلوك البشري يفسر ، أو ما هي أنواع التفسيرات التي كان السلوك البشري ولا يزال يخضع لها ، وما هو نقدنا لهذه التفسيرات ، على الأسس العلمية السابق ذكرها .

وإذا ما اتينا من استعراض هذه الأنواع من التفسيرات يبقى علينا أن نبين كيف يخضع السلوك البشري للتفسير العلمي ، وما هو المنهج أو المناهج العلمية التي يجب أن تتبعها في ذلك . وقد اقتضى منا ذلك أولاً أن نضع مفهومنا واضحاً للسلوك ثم نحلل هذه الظاهرة تحليلاً علمياً ونعرف الأوجه أو النواحي المختلفة لها وهذا هو موضوع الفصل قبل الأخير من هذا الكتاب .

والواقع أن تطبيق التفكير العلمي في مجال السلوك البشري ليس ، كما سبق أن قلنا ، بالأمر اليسير المهن . فكثير من الكتاب والمفكرين فضلاً عن علماء النفس أنفسهم قد يعرف على وجه التحديد ما هو العلم وما هو التفكير العلمي ، ولكنه مع ذلك قد يعجز عن تطبيقه في مجال السلوك . فما هي العقبات أو العوائق التي تسبب هذا العجز ؟ لقد استمر هذا العجز في الواقع صفة ملازمة للتفسير السيكولوجي حتى اليوم . ولم يبدأ علم النفس ينفذ عنه غبار العقم وآثار المعتقدات الخرافية والآراء الميتافيزيقية إلا حديثاً جداً وبشكل محدود للغاية .

والأسباب التي دعت إلى تأخر نمو التفكير العلمي في مجال الظواهر النفسية ، هي موضوع الفصل الأخير من هذا الكتاب .

كلمة أخيرة أود أن أسوقها في هذا الصدد هي أنني في الواقع لم أعن بالاهتمام بهذا الموضوع ، أى موضوع المنهج التفسيري في علم النفس ، إلا بعد ما لمست الحاجة إليه ماسة من جميع الوجوه . فعلم النفس علم حديث جداً بالنسبة لبقية العلوم الطبيعية الأخرى . ولاشك أن هذا الموقف قد جعل هناك مجالاً واسعاً لتضارب الآراء ، أو على الأقل لتعدد النظريات التي تعالج نفس الموضوع سواء ذلك في ميدان السلوك السوى أم السلوك المنحرف . ففي مثل هذه المرحلة التي يمر بها العلم - وخاصة إذا كان موضوعه من التعقيد بالدرجة التي توجد عليها الظاهرة النفسية بوجه عام - يعاني العلم تفككاً وانقساماً وعدم تكامل إلى حد بعيد . ويؤثر ذلك بدوره على الطالب وعلى الدارس وعلى الباحث ، فيجعله يقف في حيرة وعدم استقرار من حيث الوجهة التي يمكن أن يتجه إليها في نموه العلمي . وعند ذلك يكون الاتفاق على أسس المنهج الذي سوف يسير عليه أى دارس في هذه المرحلة أمراً ضرورياً من الناحية النفسية كما هو أمر ضروري من الناحية المنطقية .

هذا إلى أن الباحث قد يصعب عليه القيام بأى بحث علمي ، ما لم يكن واقفاً على المنهج العلمي في التفكير في الظواهر النفسية . وهذا بالفعل هو الوضع الذي لمست في مجال الدراسات السيكلوجية أثناء قيامي بتوجيه الطلبة الذين يعدون أنفسهم للحصول على الدرجات العلمية العليا . فإذا كان للدراسات العلمية أن تنمو في هذا الميدان ، فلا بد لنا أن نقف على المبادئ والأسس العلمية التي يجب أن تقوم عليها هذه الدراسات . وإننى لا أدعى أن المعرفة بهذه المبادئ سوف تمكن الدارس من القيام بالبحث العلمي بمجرد معرفتها . فالعلم اتجاه وأسلوب في التفكير أكثر منه معرفة بالمبادئ . وهذا الاتجاه وهذا الأسلوب في التفكير إنما ينمو وينضج بناء على خبرات طويلة معقدة أكثر من مجرد قراءة كتاب . وكل ما أرجوه هو أن يضيف هذا الكتاب خبرة تنظيمية جديدة إلى أولئك الذين تسمح لهم خبراتهم السابقة بالاستفادة منه . كما أرجو أن أتم البحث والدراسة والكتابة في النواحي التي تتناول تطبيق هذا المنهج على الظاهرة النفسية في مختلف مظاهرها ومجالاتها ، في القريب العاجل إن شاء الله .

م . ع . ١٠

القاهرة في سبتمبر ١٩٦١

الباب الأول
العلم والتفكير العلمى

الفصل الأول تطور التفكير

تتضح الأمور أكثر مما تتضح في ضوء تاريخها التطوري . والعلم باعتباره طريقة للتفكير ونتاجاً له معاً ، لا يمكن أن ندرك معناه بشكل واضح إلا إذا درسناه في ضوء هذا المنهج التطوري ، أو بمعنى آخر إلا إذا استعرضنا تاريخ الفكر البشري في مراحلها المختلفة ثم ألقينا نظرة فاحصة على مكان العلم في سياق هذا التاريخ .

لقد وجد الإنسان البدائي نفسه أمام عديد من الظواهر الطبيعية . وكانت هذه الظواهر أكبر منه قوة وأشد منه بأساً . وكان عليه لكي يحمي نفسه من غائلة هذه الظواهر أن يعرف كنهها وأن يجد لحلوها تفسيراً . بعبارة أخرى كان الإنسان البدائي أمام مشكلة كبرى هي كيف يبقى حياته من أن تطيح بها الطبيعة المتمردة من حوله . وكيف يسيطر على تلك الطبيعة ويخضعها لإرادته بدلاً من أن يخضع هو لإرادتها . فأخذ يفكر في أسباب تلك الظواهر وعملها ، عله بذلك أن يصل إلى طريقة للتهادن معها ، أو وسيلة تساعد على التكيف لظروفها .

أما أن الإنسان البدائي كان ضعيفاً أمام الطبيعة من حوله فكان أمراً طبعياً . إذ أين يذهب من العواصف التي تطيح بمسكنه وأين يفر من الرعد الذي يصم آذانه ، ومن الأمطار التي تغمر الأرض عندما لا يريد أن تغمر الأمطار الأرض ، والتي تنحبس عنه عندما يكون في أشد الحاجة إليها . وهناك الزلازل والبراكين والأعاصير ، والليل والنهار والشمس والقمر ، وغير ذلك من ظواهر الطبيعة الحية وغير الحية : أمور كلها مثار للخوف والدهشة والعجب . وعندما يثار الخوف يبدأ الإنسان يتخيل ويتخبط . وعندما تثار الدهشة يبدأ الإنسان يفكر ويبحث عن السبب .

ولكن تفكير الإنسان البدائي لم يكن تفكيراً علمياً بالطبع . ذلك أن الإنسان البدائي كان قاصراً محدود الخبرة شديد الخوف ، لذلك جاء تفكيره خيالياً خرافياً . بدأ الإنسان البدائي يرجع إلى نفسه ، إلى ذاته ، وهي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يخبره خبرة مباشرة .

رجع إلى نفسه ، إلى خبرته الذاتية كمصدر للمعرفة ، عله يجد عندها مصدراً للتفسير . فوجد أنه من الممكن أن يرى نفسه في أماكن مختلفة ، في الأحلام ، يتحدث ويروح ويحيى ويحارب ، ويغضب ويفرح ، في حين أن جسمه يظل ثابتاً في مكانه أثناء النوم . ولما كان ذلك الكائن الذي يراه أثناء النوم يستطيع أن يخترق الحجب ، ولا يتقيد بطلبات الأشياء ، لذلك فقد اعتقد أنه من طبيعة مخالفة لطبيعته ، وسمى هذا الشيء بالروح أو النفس . واعتقد أن هذه الروح أو النفس تسكن جسمه وتغادره مؤقتاً في أثناء النوم ثم تغادره نهائياً عند الموت . وبما أنه في هاتين الحالتين لا يستطيع أن يتحرك أو يفكر أو يأمل ... الخ لنا فقد عزا الإنسان إلى هذه النفس حركته وسلوكه ، واعتقد أنها مسؤولة عن كل ما يصدر عنه .

كان ذلك التفسير الذي فسر به الإنسان البدائي سلوكه ، هو نفسه الذي اعتمد عليه في تفسير الطبيعة من حوله ، فنسب إلى الطبيعة الجاملة أرواحاً كروحه هو ، وعزا « أفعالها » وظواهرها إلى إرادة خفية يتصورها على نحو ما يتصور لإرادته هو ، إرادة تعمل بجرية ذاتية ، دون تقيد بقانون أو نظام ، ودون خضوع لمنطق « العلل » أو « الأسباب » . بل إن هذه القوى الخفية أو الأرواح أو الآلهة أو النفوس التي تسكن أجسادنا ، كانت هي نفسها في نظره العلل الأولى للأشياء ، وهي المتصرفة بذاتها في شأن الإنسان نفسه . أليس في يدها أن تحيى الإنسان أو تغنيه ؟ أليس في يدها أمر حمايته أو الإطاحة به أو هلاكه أو وفاته ؟ ومن هنا كان لابد أن يعبدوها وأن يبتل لها ويتوسل إليها إذا كان له أن يصل إلى تحقيق رغبة أو قضاء حاجة . وليس هناك طريق آخر غير ذلك . ومن هنا أيضاً كانت الطقوس والسحر والتعويذ والعادات الغريبة التي لا تزال نرى الكثير منها في ثقافتنا الحالية .

تلك هي المرحلة الأولى من مراحل التفكير الإنساني ، مرحلة التفكير الخرافي ، حيث كان دأب « العقل » البحث عن العلل الأولى للأشياء ، محاولاً إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك يفسرها ، وحيث أسند الإنسان إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان ، وعزا إلى هذه الأرواح جميع ما يحدث في هذا الكون من ظواهر . ومن أمثلة هذا النوع من التفكير مثلاً ، اعتقاد قدماء المصريين أن الانتقال الظاهري للشمس تفسيره أن إله الشمس « رع » يسافر كل يوم رحلته هذه في قارب يسبح في نهر ، وقد يحدث أن يهجم على الزورق الإلهي حيناً بعد حين ثعبان ضخم فيبتلعه في جوفه ، لكن الزورق يعود إلى الظهور من جديد . أو تفسير الإنسان الأول للرياح والعواصف بأنها نفس الأرواح والشياطين عندما تفر زفيراً شديداً . أو المطر بأنه دموع الآلهة . وغير ذلك من التفسيرات التي لا يزال بعضها قائماً بيننا في عقول بعض العامة من الناس . فتفسير المرض مثلاً بأنه « عين وصابت المريض » أو إرجاع ظواهر الإضطراب النفسي إلى الشياطين والأسياذ التي تسكن جسم المضطرب ... كل هذه أنواع من التفكير الخرافي الذي حاول به الإنسان حيناً

ما من الدهر أن يفسر الظواهر الطبيعية من حوله .

فخصائص هذه المرحلة بوجه عام إذن هي أن تفسيراتها للظواهر الطبيعية تعتمد على افتراض وجود كائنات خارقة للطبيعة ، كائنات لا ترى ، وتحكم بإرادتها في كل ما يحدث حولنا من تغيرات . وما دامت هذه الكائنات غير مرئية ، لنا فقد أطلق الإنسان لخياله العنان فيما يمكن أن يسند إليها من صفات . لذلك فليس من الصعب أن نصف منهج التفكير في هذه المرحلة بأنه منهج خيالي بعيد عن الواقع . بل منهج خرافي ليس له أى أساس من الواقع . هذا من الناحية النظرية . أما من الناحية العملية فقد ساعد ذلك على انتشار ممارسات كالسحر والشعوذة ، وتأخر الإنسان في فهم الطبيعة المحيطة به وفي قدرته على السيطرة عليها والتمكن منها .

ثم سار العقل خطوة أخرى ، فاستبدل الأرواح أو الشياطين التي كان يفترض وجودها مستقلة عن الأشياء ، استبدلها بعقل أخرى ذاتية أى تكمن داخل الشيء نفسه ، في باطن الشيء . تلك العلة الجديدة ليست في الواقع سوى معان مجردة لجسمها للإنسان خياله وساعده على ذلك جهله بالعقل الحقيقية . ظهر مثل هذا التفكير في الفلسفات المختلفة قديمها وحديثها ، حيث نجد معان مثل الصورة والهوى ، والجوهر والماهية والنفس والقوة الفاعلة ، والعلة الغائية وما إليها كمحركات أو علل أولى للأشياء وللظواهر جميعاً .

وما حدث في المرحلة السابقة حدث في هذه المرحلة أيضاً ؛ إذ افترض الإنسان وجود العلل بعدد الأنواع المختلفة من الظواهر ، بقوة كيميائية معينة مثلاً تفسر التغيرات والتفاعلات التي تحدث في الأجسام . و « القوة الحيوية » تفسر الحياة ومظاهرها . و « إرادة الحياة » أو الطاقة الحيوية تفسر السلوك والتفاعل بين الناس وهكذا . وسوف نتعرض فيما بعد لأمثلة عديدة من هذا النوع من التفكير في مجال السلوك الإنساني . على أن الذى يعيننا الآن هو أن نبين بشكل عام كيف كانت نظرة الإنسان إلى الطبيعة من حولها ، وكيف أثر ذلك في مدى تكيفه لتلك الطبيعة .

إن الفرق بين هذا الأسلوب من التفكير والتفكير الخرافي هو أن الفكرة المجردة قد حلت محل الروح أو الإله . وبدلاً من أن تكون العلة في حدوث الشيء مفارقة عنه قد أصبحت ساكنة فيه . « فطبيعة » الشيء أو « جوهره » أو « صورته » مثلاً هي التي تحدد صفاته وخصائصه . و « عقل » الإنسان هو الذى يفكر ، وهكذا . ولكن ما هي « طبيعة » الشيء وما هو « جوهره » وما هي « الصورة » وما هو « العقل » ؟ إن هذا النوع من العلل لم يكن خاضعاً لأية ملاحظة أو اختبار . ولذلك فهو من هذه الناحية لا يختلف عن الأرواح أو الشياطين أو الآلهة في المرحلة السابقة الذكر . وكل ما حدث هو أن الإنسان قد جرد

بعض الصفات العامة من الحوادث الطبيعية الجزئية التي تنصف بها ، ثم جعل لهذه الصفات أو المعاني المجردة بعد ذلك وجوداً في ذاته ، مستقلاً عن الطبيعة أو الحوادث الطبيعية التي جردها منها ، ثم جعل من هذه الصفات القوة التي تحرك الطبيعة . ولذلك فقد سمي هذا الأسلوب من التفكير بالتفكير الميتافيزيقي أو ما وراء الطبيعة . وقد وصل هذا الأسلوب إلى أوجه في مذهب واحد الوجود الذي يجمع في « الطبيعة » جميع القوى الميتافيزيقية .

وإذا كان الأسلوب الخرافي في التفكير قد اعتمد على الخيال ، فإن الأسلوب الميتافيزيقي قد اعتمد على الاستدلال القياسي . وهذا الأخير وإن كان قد أقاد في هدم التفكير الخرافي ، إلا أنه لم يأت بمجديد من حيث فهم الطبيعة والسيطرة عليها . ذلك أنه إذا كان العقل قد تخلص بالأسلوب الميتافيزيقي من الإرادات أو القوى الخارقة للطبيعة ، فقد أحل محلها معان مجردة لا وجود لها في الواقع ولا هي خاضعة لأي سيطرة أو لأي ملاحظة .

ولكى نتبين عقم هذا الأسلوب من التفكير يصح أن نأتي بمثال بسيط . افترض ديكارت مثلاً ، لكي يفسر النشاط النفسي ، أن هناك نفساً ، وأن النفس عنصر بسيط مفكر . ثم عين لها مكاناً ممتزاً هو الغدة الصنورية « حيث تقوم النفس بوظائفها بنوع أخص منه في سائر الأجزاء وتنتشر قوتها في الجسم كله » . وكلما أرادت النفس « شيئاً » حركت الغدة المتحدة بها الحركة اللازمة لإحداث الفعل المتعلق بتلك الإرادة . ويؤثر الجسم في النفس بأن يبلغ إليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فترجمها ألواناً وأصواتاً وطعوماً وروائح وروغبات ولذات وآلاماً .

وإذا سألناه كيف عرف أن النفس عنصر بسيط ، فإنه لا يستطيع أن يجد جواباً . وإذا سألناه كيف يتم تأثير النفس في الجسم وكيف يتم تأثير الجسم في النفس وكيف تتم هذه الترجمة التي يتحدث عنها ، ولم تحدث هذه الظواهر ، فإنه لا يستطيع جواباً أيضاً . بل إذا سألناه كيف عرف أن هناك نفساً إطلاقاً فإنه أيضاً لا يعرف كيف يبرهن لنا على ذلك . فكلامه إذن لا يفيد أي معرفة للظواهر التي نريد فهمها ، ولا يفيد بالتالي في سيطرتنا على الطبيعة التي نريد السيطرة عليها . كما أنه لا يحتمل إلى جانب ذلك البرهنة على صدقه أو كذبه ، حتى نكون على بينة من حقيقة الأمر الواقع . وبذلك يبقى الواقع مجهولاً كما بدأنا به مجهولاً .

هنا الشكل وعلى هذا النحو كان الإنسان في مرحلة التفكير الميتافيزيقية يفسر الظواهر من حوله . ففى مجال التغيرات الكيميائية مثلاً ، افترض الكيميائيون مادة الفلوجستين لتفسير ظاهرة الاحتراق وبعض التغيرات الكيميائية الأخرى التي تحدث في الأجسام . ولكن ما هو الفلوجستين ؟ إنه « مادة » لم يرها أحد قط ولا يمكن أن ترى . وكل ما تأتي به فكرة

الفلوجستين هي أن الأجسام التي بها كثير من الفلوجستين سريعة الاشتعال . والنار نفسها الحادثة من الاحتراق هي مظهر من مظاهر الفلوجستين . والفحم عندهم كان مادة كثيرة الفلوجستين ولذلك فهو يحترق بسرعة . وهو في هذه الحالة يخرج الفلوجستين الموجود به ، في صورة نار إلى الهواء . وكما أن بعض المعادن إذا سخن خرج منه فلوجستينه إلى الهواء وصار تراباً ، فإن بعض التراب كذلك يمكن استرجاعه إلى خامته المعدنية الأولى بتسخينه مع الفحم مثلاً وحصوله على الفلوجستين منه أى من الفحم مرة أخرى . وهكذا كان تغير الأجسام واحتراقها يفسر بوجود مادة الفلوجستين دون أن يكون هناك فائدة عملية لمثل هذا التفسير ودون أن يكون لما يسمى بمادة الفلوجستين نفسها أى وجود أو أى تحديد يساعد على زيادة الفهم أو التنبؤ أو الضبط .

ومثل آخر واضح لاستخدام مثل هذا التفكير هو مثل تفسير ظواهر الضغط الجوي بافتراض وجود قوى ذاتية في الطبيعة هي « كراهية الطبيعة للفراغ » وأن « العالم ملآن دائماً » . فقد لاحظ الناس في العصور القديمة والوسطى مثلاً أن الخمر لا تخرج من برميلها إذا لم يكن به إلا ثقب واحد بأسفله ، فقالوا إن الخمر إذا خرجت من برميلها لأحدث ذلك فراغاً ، والطبيعة تأبى الفراغ ، وعللوا عدم خروج الخمر من البرميل بكراهية الطبيعة للفراغ . وكان من السهل جداً الاعتماد على هذا المبدأ في تفسير الظواهر المشابهة . فالماء يرتفع في الأنبوبة عند المص لأن الطبيعة تكره الفراغ والمضخة الماصة تمتد رف الماء لأن الطبيعة تكره الفراغ ، فلا بد أن يحل الماء محل الهواء الذي خرج من الأنبوبة أو من المضخة وهكذا . قوة مجردة لا وجود لها في الواقع ولا دليل على وجودها بأى طريقة من الطرق . ولكنها موجودة مع ذلك (في ذهن الناس فقط بالطبع) كلما وجدت الظاهرة ، وينعدم وجودها إذا تخلفت الظاهرة تماماً كما وجدنا في حالة الفلوجستين .

بهذا الأسلوب إذن كان الميتافيزيقي يتحدث عن الخير في ذاته والشر في ذاته وعن المثل وعن النفس وعن العقل الجمعي كما لو كانت أشياء لها وجود في الواقع ، ويعتبر هذه التجريدات الوهمية مسئولة عن تفسير الظواهر من حوله ، تاركاً الواقع ذاته محلقاً في عالم من الألفاظ والألفاظ فحسب . فابتداء من هذه الألفاظ التي لا وجود لها في الواقع كان الميتافيزيقي يدور في الاستدلال من قضية إلى قضية أخرى تلزم عنها ، ثم من هذه إلى أخرى دون أن يؤدي ذلك إلى علم جديد ، بل دون أن يعلم هل هذه القضايا تصور الواقع أو لا تصوره . ولم يؤد هذا بالطبع إلى تقدم ما في فهم الواقع الطبيعي أو السيطرة عليه أو التنبؤ به .

وكما أن الأسلوب الخرافي كان الخاصية المميزة للتفكير في العصور الأولى ، كذلك كان الأسلوب الميتافيزيقي هو الخاصية المميزة للتفكير في العصور الوسطى . (وإن كان هذان

النوعان من التفكير لا يزالان يسكنان عقول بعض الناس من حولنا حتى اليوم . ولذا فإن الطبيعة قد ظلت لغزاً غامضاً على الأذهان طوال تلك العصور . ظل الجهل بأسرار الطبيعة هو الذى يسيطر على عقول الناس بدلاً من أن يسيطر الناس على الطبيعة . ولم تبدأ الآفة تنعكس إلا فى العصور الحديثة بعد أن تقوضت دعائم ذلك النوع من التفكير وحل محله أسلوب آخر هو الأسلوب العلمى .

حدث ذلك أولاً فى مجال الفلك حيث لم تعد السماء مكاناً قدسياً لا ينبغى أن تنهجم عليه بالدراسة . عندئذ وعندئذ فقط بدأ الإنسان يلاحظ ويدون ويرصد ويستخلص القوانين . وتوصل أخيراً إلى قوانين الجاذبية ولكن بعد أن تخلص كلية من الأساطير والخرافات والأفكار المطلقة التى كانت تحيط بهذا الوجود ، وتحدد - دون ما أساس من الواقع - طريقة فهم الناس له ولحركته . فعندما لم تعد الأرض تعتبر المسرح المركزى للرواية الكونية ، وعندما تلاشت فكرة تقديس الأجسام السماوية ، وعندما نظر الإنسان إلى الفلك من حوله على أنه خاضع لنفس الظروف المادية التى تخضع لها الأرض ، وباختصار عندما نحى الناس جانباً ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيا عن مجال تفكيرهم ، تقدم الفلك واضطرد فى تقدمه كالفضاء المحتوم ، من كوبرنيك إلى نيوتن .

وعندما تلاشت فكرة العناصر الأربعة وهى الماء والهواء والنار والتراب كعناصر أساسية فى تكوين المادة ومبادئ أولية فى تفسير تغيرها ، وعندما تلاشت كذلك الأفكار الأخرى المماثلة التى لا تعتمد على الواقع أو الملاحظة ، كفكرة الصورة عند أرسطو وفكرة الصفات الخفية وفكرة القواعد الثلاث وفكرة الفلوجستين ، عندما تلاشت جميع هذه الأفكار الخرافية والميتافيزيقية التى كانت عقبة كأداء فى سبيل تقدم الكيمياء ، وحلت محلها فكرة الجسيمات الصغيرة (الذرات) المتحركة ، وهى الفكرة القائمة على أساس من الواقع والملاحظة الواقعية ، عندئذ وعندئذ فقط بدأ الإنسان يسيطر على أحوال المادة وتغيرها . وبدأت الكيمياء تسير فى طريقها إلى التقدم دون اعتراض .

وفى البيولوجيا أو علم الحياة لم يبدأ التقدم إلا بعد أن تخلص العلماء من فكرة الأرواح الحيوانية التى تسير الجسم وتحرك أعضائه ، وأحلو محلها اكتشاف الدورة الدموية ، على يدى هارفى ، وتفسير هذه الدورة بعبارات ميكانيكية .

كذلك عندما تخلى الإنسان فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية عن خرافة « كراهية الطبيعة للفراغ » وهى الخرافة القديمة التى كان يفسر بها عمل المضخات وحل محلها فكرة « الضغط الجوى » بدأ الإنسان يسيطر على الهواء ثم أصبح فى استطاعته أن يسبح فى « الفراغ » !....

وهكذا ... فإن نهضة الإنسان في العصور الحديثة لم تتم إلا عندما ثار الإنسان على النماذج الخرافية والميتافيزيقية في التفكير ، وأقام محلها طريقة العلم أو الأسلوب العلمى . وإذا كان الإنسان قد ثار على تلك الطرق العقيمة في التفكير فإن جوهر ثورته وأساسها كان في الدعوة إلى الخروج إلى الطبيعة لملاحظتها بعد أن أغمض عينيه طوال تلك العصور عن الطبيعة ، وقنع بالتأمل فيما وراءها أو التحديق بخياله في أوهام من خلقه واختراعه . فقد عمل كل من التفكير الخرافى والميتافيزيقى على الحد من شغف الإنسان بالطبيعة وعطله عن ملاحظتها . أما التفكير الخرافى فقد جعله يهيم في عالم من الخيال والأوهام ، وأما التفكير الميتافيزيقى فقد شجعه على الاهتمام بالعالم الآخر ، وجعله يذهب إلى أن كل ما تعرفه بواسطة حواسنا ، ما هو إلا صوراً ناقصة مشوهة لما هو موجود وقائم في عالم آخر كامل وحقيقى ! ولم ينقذ الإنسان من غياهب الخرافة والميتافيزيقا إلا عندما بدأ من حواسه واعتمد على خبرته الحسية ، فتجمعت لديه معرفة من نوع جديد هى ما نسميه بالعلم .

فما هو العلم الذى أدى بالإنسان إلى هذه النتيجة العظمى ؟ وما هى نقط البداية فيه أو ما هى مسلماته ؟ ما هى عناصر تكوينه ؟ وما هى أهدافه ؟ هذا هو ما سنتعرض له في الفصل التالى .

مراجع الفصل الأول

- ١ - ١ . وولف : عرض تاريخى للفلسفة والعلم (ترجمة محمد عبد الواحد خلاف) لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .
- ٢ - جيمس ب كونانت : مواقف حاسمة في تاريخ العلم (ترجمة الدكتور أحمد زكى) دار المعارف بمصر .
- ٣ - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة . دار المعارف بمصر .
- ٤ - انطون ذكرى : الأدب والدين عند قدماء المصريين : مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣ .
- ٥ - زكى نجيب محمود . المنطق الوضعى . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥١ .

الفصل الثانى

التفكير العلمى : تعريفه وأهدافه

ما هو العلم :

رأينا أن الإنسان فى أثناء صراعه مع الأحداث التى تقع حوله ، وفى أثناء محاولاته المتكررة لتفسير هذه الأحداث ، اهتدى أخيراً إلى طريقة كان لها أكبر الأثر فى حياته . ذلك أنها مكنته من السيطرة على هذه الأحداث والتحكم فيها بدلاً من سيطرتها عليه وتحكمها فيه . تلك هى الطريقة العلمية فى التفكير .

وعلى هذا يمكن أن نعرف العلم بأنه نشاط (لقوى اجتماعى) يهدف به الإنسان إلى زيادة قدرته على السيطرة على الطبيعة . وفى ذلك يقول كروثر^(١) : « العلم نظام يسيطر به الإنسان على الطبيعة » . ويقول جوليان هكسلى^(٢) : « العلم عبارة عن ذلك النشاط الذى نحصل به على قدر كبير من المعرفة بمقائق الطبيعة وعلى السيطرة عليها » .

ومن الإنصاف أن نقول إن العلوم الطبيعية فى صورتها الحديثة لم تنشأ إلا فى القرن السابع عشر . وقد تقدمت على يد ييكون ودخلت فى تطور جديد بفضل الاهتمام بالفنون الصناعية والرغبة فى المعرفة وحرية البحث وإحلال التحقيق التجريبي محل المراجع ونشر كل ما يتصل بتلك العلوم وغير ذلك من العوامل . ويبدو أننا فى هذه الأيام نعمل مرة أخرى على إدخال العلم فى طور جديد تصبح فيه الظواهر الاجتماعية - كما أصبحت الظواهر الطبيعية من قبل - طوع العلم والمعرفة العلمية . على أننا لن نتمكن من الإسراع بذلك الطور الجديد ما لم نعرف على وجه التحديد ما هى المميزات التى تختص بها الطريقة العلمية عن غيرها

(١) كروثر : العلم وعلاقته بالمجتمع . ترجمة إبراهيم حلمى عبد الرحمن وأمين تكللا .

Julian Huxely: Man and the Modern World. The New American

(٢)

Library. New York 1949.

من طرق التفكير الأخرى ، وما هى الخصائص التى تحدد معنى العلم وتميزه عن غيره من أنواع النشاط .

إن من الخطأ الشائع الاعتقاد بأن العلم يقتصر على مجرد تصنيف الظواهر التى هى موضوع دراسته . فالعلم أكثر من مجرد تصنيف الظواهر كما تظهر أو وصف الأحداث كما تقع . إن العلم هو محاولة اكتشاف العلاقات التى تقوم بين هذه الأحداث وهذه الظواهر . إنه محاولة اكتشاف نظام معين فى هذا الكون ؛ نظام نستطيع بمقتضاه أن نقول إن أحداثاً معينة تتصل بأحداث أخرى بعلاقات ضرورية . فلا يكفى أن نقول إن الظواهر الجغرافية مثلاً تنقسم إلى جبل ونهر ورياح وأمطار .. وهكذا ، حتى نقيم علم الجغرافيا الطبيعية ، بل يجب أن نعرف العلاقة بين الرياح والجبال والأنهار والأمطار وغيرها من الظواهر حتى يمكن أن نقول إنه قد تكونت لدينا معرفة علمية فى هذه الناحية ؛ كذلك لا يكفى أن نصف الظواهر الطبيعية إلى حرارة وضغط وحجم وغير ذلك . بل يجب أن نعرف العلاقة أو العلاقات الضرورية بين الحرارة والضغط والحجم وغيرها ، حتى يمكننا أن نقرر إنه قد تكونت لدينا معرفة علمية بالطبيعة ؛ ومن أمثلة ذلك قانون بويل مثلاً ، الذى يقرر أن هناك تناسباً عكسياً بين ضغط الغاز وحجمه ، أو قانون شارل الذى يقرر علاقة بين كل من الحجم والضغط والحرارة فيقول : «إذا ارتفعت حرارة الغاز زاد حجمه إذا بقى الضغط على ما هو عليه»^(١) . وبالمثل فى الظواهر السيكلوجية ، فإنه لا يكفى أن نصنف السلوك إلى عدوان وجنس وهروب وتفزز وتملك ... إلخ ، أو إلى إدراك ووجدان ونزوع ، أو إلى فطرى ومكتسب ، أو أن نصنف السلوك اللهاثى مثلاً إلى شيزوفرينيا وهوس اكتئابى وغير ذلك ، أو أن نصنف الشخصية إلى أمزجة أربعة : سوداوى وصفراوى وبلغمى ودموى ، أو إلى انطوائى وانبساطى . لا يكفى أن نفعل ذلك لكى نقرر أننا قد وصلنا إلى معرفة علمية بهذه الظواهر بل يجب أن نكتشف العلاقات الضرورية القائمة بين هذه الظواهر من ناحية وبين غيرها من الظواهر أو الأحداث الطبيعية من ناحية أخرى ، وذلك قبل أن نقرر أننا قد أقمنا علم النفس . لا بد أن نصل إلى علاقات ضرورية بين مجموعتين أو أكثر من الظواهر ، لكى نصل إلى معرفة علمية بهذه الظواهر .

فالعالم بعد أن يقوم بتصنيف ظواهره يحاول أن يكشف العلاقات الضرورية القائمة بينها . ولا يمكن أن نصل إلى أى سيطرة على الطبيعة التى نعيش فيها قبل أن نكشف هذه

(١) نأق هنا بأمثلة مبسطة جداً من القوانين الطبيعية ، حتى تتناسب مع النقلة التى يجب أن تقوم بها فى مجال العلوم السلوكية : وهى التى لا تتحمل فى مرحلتها الحالية أمثلة من التفسيرات أكثر تعقيداً .

العلاقات بدرجة ما من درجات الوضوح . وبعبارة أخرى فإنه لا يمكننا أن نقيم أى تكنولوجيا عملية على أساس العلم ما لم نكتشف هذه العلاقات . فما كنا لبنى السفن أو نقيم الكيلوى أو نخترع الراديو أو نظير الطائرات أو نفجر الذرة ما لم نكن قد وصلنا فعلاً إلى فهم ومعرفة بالعلاقات الضرورية التى تقوم بين الظواهر الطبيعية المختلفة . وسوف نتعرض لفكرة السيطرة كهدف أساسى من أهداف العلم بشكل أوسع فيما بعد . ولكننا نريد أن نبين هنا مبدئياً أنه إذا كان العلم - كما سبق أن عرفناه - عبارة عن سلوك يهدف به الإنسان للسيطرة على هذه الطبيعة ، فإن هذه السيطرة لا يمكن أن تتم على أساس من مجرد التصنيف للظواهر الطبيعية ، أى على مجرد ملاحظة أوجه الاختلاف الظاهرى بين مجموعات مختلفة من الظواهر وأوجه الشبه الظاهرى بين أفراد المجموعة الواحدة . وهذه الحقيقة على بساطتها ووضوحها فيما يتعلق بميدان الظواهر التى تدرسها العلوم الطبيعية ، إلا أن تأكيدها هنا سوف يكون له أكبر الأثر فى بيان حقيقة الموقف فيما يتعلق بالظواهر السلوكية .

والعلاقات التى يرمى العلم إلى اكتشافها ليس لها حدود من حيث اتساع دائرة الظواهر التى تشملها ، وإن كانت الضرورة العملية تقتضى أن نقسم الظواهر إلى مجموعات بحسب النواحي المختلفة لهذا الكون المعقد ، وأن نربط بين ظواهر كل مجموعة فى وحدة متسقة الأجزاء هى العلوم المختلفة . فهناك علم الفلك مثلاً ، وهو يضم القوانين التى تنظم الظواهر الفلكية ، وهناك علم النبات وعلم الطبيعة وعلم الكيمياء ، وهكذا . على أن هذا التصنيف للعلوم ، ما هو إلا نوع من التقسيم المصطنع لظواهر الطبيعة التى لا يوجد بينها فى الواقع فواصل محددة على هذا النحو . فكل مجموعة من الظواهر التى تندرج تحت اسم علم من هذه العلوم تتصل من قريب أو من بعيد بغيرها من الظواهر الأخرى ، وبمعنى آخر فإن العلوم يتصل ببعضها البعض اتصالاً ما . بل لا يمكن أن نصل إلى فهم أو إدراك كامل لظواهر علم من العلوم ما لم نربط بينها وبين الظواهر التى تقع فى دائرة العلوم الأخرى .

فالعلاقات التى يبحث عنها العلم إذن ليست محصورة فى دوائر محدودة مفصولة عن بعضها البعض ، بل يمكن أن تتسع دائرة العلاقات حتى تشمل هذا الكون بأكمله . فكما أن يمكن أن تشمل الظواهر أو الأحداث الفردية فى علاقة معينة إذا لاحظنا أنها تضطرب فى الحوادث معاً ، كذلك يمكن أن نعود فنبحث عن علاقات بين هذه العلاقات ، أو بمعنى آخر عن علاقات بين القوانين الجزئية المختلفة التى تفسر الحوادث وذلك بهدف إدماج هذه القوانين تحت قوانين أخرى أعم منها . فإذا وجدنا أن قانوناً ما يمكن أن يندرج تحت قانون آخر أعم منه ، أدخلنا الخاص فى دائرة العام . ويعتبر ذلك فى الواقع هدفاً تفسيرياً للقانون كما أن القانون هدف تفسير للظاهرة .

ولنضرب لذلك مثلاً على يتضح أكثر من ذلك . للحرارة قوانينها الخاصة وكذلك للصوت والضوء . ولكننا قد نجد بالبحث - كما حدث فعلاً - أن قوانين الحرارة والصوت والضوء تدخل معاً تحت قوانين أعم منها هي قوانين حركات الذرة . ومن أمثلة ذلك في تاريخ العلم أيضاً أن جاليليو استخرج قانوناً ثانياً للأجسام الساقطة ، فجاء نيوتن وجعل ذلك القانون حالة خاصة من قانون أعم هو قانون الجاذبية ، ثم جاء أينشتين ورد قانون الجاذبية إلى مبدأ أعم هو مبدأ القصور الذاتي . كذلك فإن القوانين الكيميائية كلها يمكن الآن ردها إلى قوانين في علم الطبيعة فتصبح الكيمياء كلها فرعاً من فروع علم الطبيعة . وإن العلماء الآن بصدد البحث عن وضع علوم الحياة ، وهل يوجد تفسير لها يردّها إلى قوانين للطبيعة فتصبح ظاهرة الحياة كلها كأية ظاهرة أخرى في الطبيعة من حيث قوانينها . بل إن تطبيق مفهوم المجال في الظواهر السيكولوجية والاجتماعية ليعتبر محاولة للتوحيد بين هذه الظواهر والظواهر الطبيعية من حيث شمولها جميعاً تحت مبادئ عامة يمكن أن تفسر القوانين الخاصة لكل منها . وهكذا يسير الارتقاء في معرفتنا ويضطرد باضطرد اكتشاف العلاقات ليس فقط بين الحوادث الجزئية ، بل أيضاً بين القوانين الخاصة التي تفسر هذه الحوادث . ويعتبر الربط بين هذه القوانين محاولة أيضاً لتفسيرها ، كما أن إدماج الحوادث الجزئية تحت قاعدة أعم هو تفسير لها . وقد قطعت العلوم الطبيعية في سبيل ذلك الهدف شوطاً بعيداً . وفي ذلك يقول البرت أينشتين : « إن صدق النظرية النسبية ليس قاصراً على ناحية واحدة من النواحي الطبيعية ، فهذه النظرية تشكل إطاراً عاماً يضم جميع الظواهر الطبيعية ويتضمن تفسيرها » (١) .

ولذا كان قوام العلم هو اكتشاف العلاقات القائمة بين الظواهر المختلفة في هذا الكون ، فإن كلمة علم لا تصبح قاصرة على مجال أو ناحية من نواحي الطبيعة دون النواحي الأخرى . فقد جرى العرف على أن تطلق كلمة علم أحياناً على العلوم الطبيعية كالطبيعة والجيولوجيا والكيمياء وعلم الحياة ، دون العلوم الاجتماعية كالاقتصاد وعلم النفس والاقتصاد والسياسة . والواقع أنه كان لهذا التخصيص أسبابه ، فلم يكن من المعروف حتى وقت قريب جداً أن الظواهر الاجتماعية والظواهر السلوكية الفردية يمكن أن تخضع للدراسة العلمية ، بل كانت هذه الظواهر تعتبر موضوعاً للتأمل الذاتي أو التفكير الفلسفي . أما البحث العلمي فقد ظهر أول ما ظهر في مجال العلوم الطبيعية . ونظراً لسهولة عزل العوامل المؤثرة في هذا المجال فقد نجح البحث العلمي فيه نجاحاً باهراً وسار فيه شوطاً بعيداً جداً . أما تعقد العوامل وتداخلها في

Albert Einstein and Leopold Infeld: The Evolution of Physics, Simon and Schuston, New York, 1950, p. 210.

(١)

النواحي الاجتماعية فكان من أسباب تخلف البحث العلمى فى تلك النواحي . وبذلك حدث
توحد بين العلوم الطبيعية ومفهوم العلم لمدة طويلة . وظل هذا التوحد سائداً حتى الآن .
فنحن نستخدم كلمة « علمى » مثلاً فى مقابل كلمة « أدبى » للإشارة إلى نوع معين من
المقررات التى تقتصر فى الواقع على مواد العلوم الطبيعية ، مثل الطبيعة والكيمياء وعلم
الحياة . أما مواد مثل علم النفس والتاريخ والجغرافيا وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع مما يمكن أن
تدخل فى دائرة العلم ، فإنها لا توصف فى العادة بكلمة « علمى » بل تدخل ضمن المواد
« الأدبية » . كذلك فإننا عندما نتحدث عن كلية « العلوم » أو معهد البحوث « العلمية »
أو باحث « علمى » فإننا قد نقتصر على هذا التصور الخاطئ للعلم ، ألا وهو العلم بمعنى
العلوم الطبيعية . فى حين أننا يجب أن نفهم من كلمة « علم » ذلك المفهوم الواسع الذى
سبق أن حددنا بعض معالمه وهو المفهوم الذى يشمل جميع الظواهر التى يمكن أن تقع تحت
الحواس فيشمل سلوك الإنسان كما يشمل ظواهر الطبيعة غير الحية .

وما دام العلم يمكن أن يشمل ظواهر الكون مهما كان نوعها ، ومهما كان المجال الذى
يمكن أن تظهر فيه ، لذلك فإنه لا يجوز أيضاً أن تقتصر كلمة علم على أوجه النشاط الذى
تستخدم فيه الأجهزة العلمية مثل الميكروسكوب والآلات الكهربائية والأنابيب الزجاجية
والمعامل ، وغير ذلك . فالعلم ليس قاصراً على النشاط الذى يجرى فى المعامل والأنابيب كما
هو الشائع فى أذهان البعض ، بل هو نشاط قوامه البحث عن العلاقات الوظيفية بين
الظواهر . وعلى ذلك فهو طريقة فى التفكير أكثر منه مجموعة معينة من الحقائق ، وهو اتجاه
عام من الأمور والحوادث التى تقع حولنا أكثر منه طائفة من القوانين . وعلى ذلك فإن
الإنسان العادى يمكن أن يكون ذا منهج علمى فى الحياة اليومية تماماً كالعالم الذى يبحث
فى معمله بأجهزته وأدواته . بل إن العالم الذى يقوم فى معمله بالبحث العلمى قد يقف من
أمور الحياة العادية موقفاً غير علمى . والمهم فى كل حالة ليس هو المجال الذى يحدث فيه
التفكير بقدر ما هو الأهداف التى يرمى إليها هذا التفكير والمسلمات التى يعتمد عليها للوصول
إلى هذه الأهداف ، ثم أخيراً الجوانب أو العناصر التى يتكون منها هذا التفكير . والواقع أن
تعريفنا للعلم لا يمكن أن يتحدد بشكل واضح ما لم نتناول كل نقطة من هذه النقاط بالبحث
بشكل تفصيلي .

أهداف العلم

إن الهدف الرئيسى للعالم ، كما يتضح من المناقشة السابقة ، هو أن يفهم الظاهرة التى يشتغل بدراستها . وهو يعتبر أنه قد فهم هذه الظاهرة إذا ما استطاع أن يتبأ بنجاح عن ظهورها تحت ظروف تختلف إلى حد ما عن تلك التى درست فيها أو عندما تمكنه معلوماته من أن يسيطر على ظهورها فى سبيل تحقيق أغراض عملية . وسوف نتناول كل هدف من هذه الأهداف الثلاثة : الفهم والتنبؤ والضبط فى الفقرات التالية على الترتيب بشيء من التفصيل .

الفهم :

قلنا إن أهم ما يميز العلم كنشاط إنسانى أنه يهدف إلى كشف العلاقات التى تقوم بين الظواهر المختلفة . والواقع أن كشف العلاقات والفهم شيء واحد . ففهم الظاهرة معناه أن نجد علاقة تربط بينها وبين ظواهر أخرى ، أما إذا لم نجد أى علاقة لها بأى ظاهرة كانت ، فإنها تظل غامضة غير مفهومة أو غير معروفة . فالمعرفة أو الفهم لا يتم إلا عن طريق اكتشاف العلاقات المختلفة بين المتغيرات موضوع الفهم أو المعرفة . فنحن نفهم معنى الأحداث فى ضوء مقدماتها أو الأحداث الأخرى التى تسبقها والظروف التى تحيط بها . ولنضرب لذلك مثلاً : فإذا ذهبنا إلى منزل فوجدت أثاثه متناثراً هنا وهناك ونظامه مضطرباً على غير عهدك به ، فإنك تحاول أن تفسر هذه الظاهرة بأن تربط بينها وبين دخول شخص غريب فى المنزل مثلاً كسطو لص أو غير ذلك . كذلك فإن ظاهرة مثل وجود وباء فى بلد ما مثلاً لا يمكن أن نفهم أو تفسر قبل أن نربط بينها وبين ظواهر أخرى مثل تلوث المياه أو انتقال العدوى من جرثومة معينة أو غير ذلك

فالفهم إذن يتم بعملية الربط أو إدراك العلاقات بين الظواهر المراد تفسيرها وبين الأحداث التى تلازمها أو تسبقها . ويجب أن نفرق بين الفهم بهذا المعنى وبين مجرد وصف الظاهرة أو الانفعال بها أو التعجب منها . فالوصف مهما دق ، والانفعال مهما صدق التعبير عنه ، والتعجب مهما كان رائعاً ، فإنه لا يؤدى إلى ما نقصده بالفهم . فكسوف الشمس كظاهرة فلكية مثلاً لا نستطيع أن نفهمها بمجرد أن نصفها مهما كان وصفنا لها دقيقاً ، بل نفهمها عندما نربط بينها وبين ظواهر أخرى مثل وضع القمر بالنسبة للأرض والشمس ..

وهكذا . كذلك فإن وصفنا للشخصية السيكوباتية أو تصويرنا لما يمكن أن يصلر عن هذه الشخصية من سلوك أو انفعال أو تصرف لا يؤدي وحده إلى فهمنا لهذه الشخصية مهما دق الوصف ، لأنه يترك لنا هذه الظاهرة دون أن تربط بينها وبين الظواهر الأخرى التي تعتبر مسئولة عن وجودها .

فالفهم بالمعنى الذى نقصده لا يتحقق ما لم نربط بين الظاهرة وبين متغيرات وظروف أخرى خارجة عن الظاهرة ذاتها ، ويعتبر وجودها مسئولا عن حدوث هذه الظاهرة ، بمعنى أنها توجد إذا وجلت وتغيب إذا غابت وتزيد أو تنقص إذا زادت أو نقصت . وباختصار فإننا نبحث لتفسير الظاهرة عن ظروف خارجة عنها تربطها بها علاقة وظيفية مثل العلاقة التي تربط بين الحرارة والحجم مثلاً أو العلاقة التي تربط بين فائض الإنتاج والأزمات الاقتصادية .

نقطة هامة أخرى يجب أن نؤكد عليها كذلك ، هي أن الظروف التي نبحث عنها لتفسير الظاهرة يجب أن تكون مستقلة عن الظاهرة نفسها . ففى هذه الحالة فقط يمكن للتفسير أن يساعدنا على التنبؤ والضبط أى على تحقيق أهداف العلم الأخرى . أما إذا كانت المتغيرات تمثل ناحية أخرى أو صفة أخرى في الظاهرة نفسها ، فإن ذلك في ذاته لا يفيدنا في فهم الظاهرة . إذ أننا نكون عندئذ في حاجة إلى سؤال أبعد فأبعد حتى تصل بنا الإجابة إلى متغيرات خارجة عن الظاهرة ذاتها . فإذا قلنا مثلاً إن السبب في سلوك شخص ما على نحو معين هو شعوره بالنقص أو رغبته الشديدة في التفوق ، فإننا لا نفيد شيئاً من حيث التفسير إلا إذا ربطنا بين الشعور بالنقص أو الرغبة في التفوق من ناحية وبين متغيرات أخرى مستقلة عن الشعور ذاته تعتبر مسئولة عن هاتين الظاهرتين من ناحية أخرى : كظروف التشعة الاجتماعية عندما كان هذا الشخص طفلاً صغيراً . وسوف نتعرض لهذه النقطة مرة أخرى في مكانين آخرين ، حين نعرض لفكرة المتغيرات الوسيطة وحين نعرض لأنواع التفسيرات المختلفة في علم النفس . والمهم هنا أن نقرر أن الفهم كما يقصده العلم معناه البحث عن أحداث أو ظواهر أو متغيرات يؤدي التغير المنتظم فيها إلى تغير معين في الظاهرة . أو بمعنى آخر متغيرات تربطها بالظاهرة علاقة وظيفية . فكأننا في التفسير إذن نكون أمام عناصر ثلاثة لابد من تحديدها بدقة قبل أن نقول إننا قد أدينا مهمتنا .

أما العنصر الأول فهو الظاهرة نفسها التي نريد أن نفسرها وهذه تسمى اصطلاحاً في البحث العلمي بالمتغير التابع^(١) أى الذى يعتمد على ظروف أخرى تعتبر مسئولة عن

حدوثه ، وذلك كتمدد الأجسام مثلاً أو نمو النبات أو سلوك الكائنات الحية أو أى ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة التى نريد تفسيرها .

أما العنصر الثانى فى التفسير العلمى فهو الظروف أو الأحداث أو المتغيرات المسؤولة عن وقوع الظاهرة التى ندرسها وتسمى بالمتغيرات المستقلة^(٢) . فإذا كنا ندرس التمدد كمتغير تابع مثلاً ، تكون الحرارة هى المتغير المستقل . وليس هناك متغيرات تابعة ، ومتغيرات مستقلة بشكل مطلق ، ولكن المسألة نسبية بالطبع ؛ فالمتغيرات المستقلة فى بحث معين قد تكون متغيرات تابعة فى بحث آخر والعكس صحيح . والمسألة كلها متعلقة بوجهة نظر الباحث . فتكاثف بخار الماء مثلاً يمكن أن يكون متغيراً مستقلاً بالنسبة لسقوط المطر ، ولكنه من ناحية أخرى يكون متغيراً تابعاً بالنسبة لتغير درجة الحرارة ، وتغير درجة الحرارة يمكن بالتالى أن يكون متغيراً تابعاً بالنسبة لهبوب رياح أو تغير فصول السنة وهكذا .

أما العنصر الثالث فى التفسير فهو العلاقة الوظيفية التى تقوم بين المتغيرات التابعة من ناحية والمتغيرات المستقلة من ناحية أخرى . ما شكل التغير الذى يطرأ على المتغير التابع إذا حدثت تغيرات معينة فى المتغيرات المستقلة ؟ فالإجابة على هذا السؤال هى التى تحدد نوع العلاقة الوظيفية القائمة بين المتغيرات موضوع الدرس . فلا يكفى لكى نحقق الفهم أن نقرر فقط أن هناك علاقة معينة بين المتغيرات ، بل يجب أن نحدد نوع ومدى هذه العلاقة . ففى حالة التمدد مثلاً نريد أن نعرف هل يقابل كل زيادة فى الحرارة تمدد فى الأجسام ؟ وإلى أى حد يحدث هذا التمدد ؟ والوضع الأمثل بالطبع هو أن يحدث هذا التحديد بشكل كمى دقيق .

ونود أخيراً أن نقرر أن الفهم أو التفسير باعتباره الهدف الأول من أهداف العلم لا يخرج فى معناه عن مجرد تصور للحوادث أو الأحداث كيف تلازمت زماناً ومكاناً . أو بعبارة أخرى هو نظام تصورى على أساس من الخبرات التى حصل عليها العالم بالنسبة للعالم الطبيعى . وهذا النظام لابد أن يكون متكاملاً ومطابقاً للواقع الموضوعى .

التنبؤ :

الهدف الثانى من أهداف العلم هو التنبؤ . والتنبؤ مبنى على الفهم ويقوم على أساسه . فالفهم هو نقطة البدء التى يمكن أن ندخل منها إلى المجهول مرة أخرى . ذلك أننا بعد أن نفهم ظاهرة معينة فهماً مبدئياً ، أى بعد أن نتصور وجود علاقة وظيفية بينها وبين أحداث

معينة ، فإننا لا نكتفى بالوقوف عند هذا الحد ، بل نريد أن نستفيد من النتائج التى توصلنا إليها ؛ فنحاول أن نستنتج من العلاقة الوظيفية التى اكتشفناها نتائج أخرى يمكن أن تتسق معها . أو بمعنى آخر نحاول أن نطبق هذه التعميمات على مواقف جزئية أخرى غير تلك التى اكتشفناها على أساسها ، لكى نستفيد من هذه التطبيقات فى أوسع مجال ممكن . وهذا هو معنى التنبؤ . فالتنبؤ إذن مؤداه تصور انطباق القانون أو القاعدة العامة فى مواقف أخرى غير تلك التى نشأ عنها أساساً . أو بمعنى آخر تصور النتائج التى يمكن أن تترتب على استخدامنا المعلومات التى توصلنا إليها فى مواقف جديدة . فقانون حركة الأجسام مثلاً ، الذى يقول إن كل جسم متحرك يستمر فى حركته ما لم يعقه عائق ؛ يمكن أن نستنتج منه أو نتنبأ على أساسه أن الأجسام المستديرة الملساء تستمر فى حركتها لمسافة أبعد من تلك التى تستمر فيها الأجسام الخشنة ، وذلك ببساطة لأن الاحتكاك بالنسبة للأولى يكون أقل من الاحتكاك بالنسبة للثانية وبناء على اكتشاف العلاقة بين الحرارة وتمدد الأجسام نستطيع أن نتنبأ بأن قضيب السكة الحديدية سوف يتقوس إذا مر عليه القطار ولم تكن هناك فراغات بين أجزائه بعضها وبعض .. وهكذا .

ولاشك أن التنبؤ من ناحية أخرى يساعد بدوره على زيادة الفهم . ذلك أن التنبؤ يكون جزءاً من خطة التحقيق التى تختبر بها صحة معلوماتنا . فإذا ثبت صحة تنبؤاتنا فإن معنى ذلك أن المعلومات التى أقمنا التنبؤ على أساسها ، معلومات صحيحة . أما إذا لم تثبت صحة التنبؤات فمعنى ذلك أنه تجب مراجعة معلوماتنا فى ضوء النتائج الجديدة التى نحصل عليها . فإذا فرضنا مثلاً أننا فى ضوء معلوماتنا عن العلاقة بين الذكاء من ناحية وكل من التحصيل المدرسى والتكيف الاجتماعى فى المدرسة الابتدائية من ناحية أخرى ، قد نتنبأ بأن تقسيم التلاميذ إلى فصول بناء على تجانس نسب ذكائهم يساعد على التحسن فى تحصيلهم المدرسى وتكيفهم الاجتماعى ، فإن مثل هذا التنبؤ قد يتضح فيما بعد أنه غير صحيح . ذلك أن التجانس فى الذكاء قد يوجد فروقاً كبيرة فى السن مما يساعد بدوره على سوء التكيف الاجتماعى . وعلى ذلك فقد يتضح أن التصنيف بناء على الذكاء يزيد من سوء التكيف الاجتماعى بدلاً من أن يساعد على حسن التكيف ، عندئذ لابد من مراجعة معلوماتنا الأولى أو فهمنا الأول عن الذكاء وعلاقته بالتكيف الاجتماعى فى ضوء المعلومات الجديدة التى حصلنا عليها بناء على ما قمنا به من تنبؤ . وعلى أى حال فإنه بغض النظر عما إذا كان تنبؤنا صحيحاً أم غير صحيح ، فإن نتيجة تنبؤاتنا لها تأثير مباشر على فهمنا للمشكلة التى نحن بصدد حلها .

فنحن فى التنبؤ نقيم فى الواقع علاقات جديدة ليس من السهل التحقق من وجودها فعلاً بناء على معلوماتنا الماضية وحدها . ذلك الموقف العملى قد يتمخض عن اكتشاف عوامل أخرى لم تكن فى الحسبان تؤثر فى تشكيل النتائج فتظهر بصورة على غير ما كنا نتوقع . وقد

يكون الفرق بين ما يتوقعه العالم في تنبؤه وبين ما يحدث فعلاً فرقاً صغيراً . وهذا يحدث في الغالب عندما يكون التنبؤ متعلقاً بموقف هو عبارة عن صورة قريية الشبه بالموقف الأصلي . مثلاً عندما نحصل من مجموعة من الفئران على درجات لتعلم المرور في متاهة من المتاهات ذات الجدران المنخفضة ، نستطيع أن نتنبأ بدرجة كبيرة بما ستكون عليه درجاتهم في تعلم المرور في متاهة ذات جدران عالية . ولكن قد يكون الفرق بين ما يتوقعه العالم في تنبؤه وبين ما يحدث فعلاً فرقاً كبيراً ؛ وهذا يحدث عندما يختلف أكثر من عامل بين الموقف المتنبأ به والموقف الفعلي أى عندما يتمخض الموقف المتنبأ به عن تغيرات في عوامل لم تكن في الحسبان . مثلاً عندما نحصل من مجموعة من الفئران على تقديرات في تعلم التمييز بين درجات الضوء ، قد نتوقع أن هذه التقديرات قد تكون بشكل معين بعد إتلاف جزء من مراكز الإبصار في المخ . ولكن قد يترتب على هذا الإتلاف ليس فقط تقليل مساحة هذه المراكز ، بل أيضاً اختلاف في درجة الصحة العامة عند هذه الحيوانات ، وكذلك اختلاف في قوة الدافع عندها ، وبذلك قد يفشل تنبؤنا لأننا لم نعمل فيه حساباً إلا لاختلاف عامل القدرة على التعلم فقط .

وبصرف النظر عما إذا كان الفرق بين ما يتنبأ به العالم وبين الواقع كبيراً أو صغيراً ، فإننا في عملية التنبؤ نفترض وجود علاقة جديدة لا نستطيع أن نتحقق من وجودها فعلاً بناءً على معلوماتنا السابقة وحدها . وإنما تجبرنا عدم معرفتنا بالعوامل الجديدة على أن نقبل التنبؤ على أنه صحيح بشكل مبدئي فقط وذلك إلى أن نتحقق بالفعل وعن طريق التجريب من صحته .

ويقودنا هذا إلى أن نقرر أننا يجب أن نعتبر عملية التحقيق جزءاً من التنبؤ . ولذلك فإن التنبؤ الذي لا يمكن اختباره عملياً ليست له أية قيمة ، إذ يبقى مقدار صحته مجهولاً إلى الأبد . واختبار صحة التنبؤ يقتضي منا إلى نقوم بعمليتين أو بخطوتين منفصلتين وإن كانتا متكاملتين . الخطوة الأولى هي أن نقوم بعملية استنتاج عقلي عن طريق الاستدلال ، أن النتائج المترتبة على نظريتنا أو على فرضنا يجب أن تكون على نحو معين أو يجب أن تتخذ وضعاً معيناً أو يجب أن تكون لها صفات أو خصائص معينة .

فلنفترض مثلاً أننا نريد أن نوضح كيف يمكننا رؤية الألوان . فنقول إن هناك نوعين من التركيبات في الشبكية ، هما : العصي والخروطات ، وأن الأخيرة هي الحساسة للألوان . ونحن نعرف أيضاً من تجاربنا في عملية خلط الألوان أن ألوان الطبيعة يمكن إحداثها أو الحصول عليها عن طريق مزج ألوان ثلاثة هي الأحمر والأصفر والأزرق بنسب مختلفة . فإذا أقرنا هذه الحقائق ببعضها البعض فإننا يمكن أن نستنتج وجود تركيبات حساسة للون

في الشبكية : كل تركيب منها حساس للون من هذه الألوان الثلاثة . وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر رؤيتنا للألوان بأن الأشعة الضوئية تنشط واحداً أو أكثر من هذه التركيبات الثلاثة بشكل معين في الشبكية . ومن هذا التفسير وعلى أساسه يمكن أن نتنبأ بالنتائج التي تترتب على حدوث تغيير أساسي في هذه التركيبات . فيمكن أن نتنبأ مثلاً بأنه إذا ولد شخص بدون أى واحد من هذه التركيبات اللونية الثلاثة الموجودة في الشبكية ، فإنه يصبح ذا عمى لوني بالنسبة لألوان معينة هي التي تتناسب مع نقص هذا التركيب وتقابله . أو أنه حتى إذا كانت هذه التركيبات الثلاثة موجودة ولكنها موزعة توزيعاً غير عادل في الشبكية فإن الشخص الذي يعاني هذا النقص سوف يرى ألواناً معينة ولا يرى ألواناً أخرى في أجزاء معينة من المجال البصري . إلى هنا نكون قد أكملنا الخطوة الأولى وهي خطوة الاستدلال أو الاستنتاج العقلي .

أما الخطوة الثانية فهي خطوة التحقيق التجريبي ، وهي أن نرى ما إذا كان استنتاجنا هذا صحيحاً أم لا ، بأن نحاول أن نخلق الظروف التجريبية التي تؤدي إليه ، ونرى ما إذا كان سيحدث عن خلق هذه الظروف النتيجة التي توقعناها أم لا . ففي المثال السابق مثلاً ، بعد أن نتنبأ بأنه إذا ولد شخص بدون أحد هذه التركيبات في شبكية العين فإنه لابد وأن يكون أعمى بالنسبة لألوان معينة ، بعد أن نتنبأ بذلك ، علينا أن نبحث عن أناس تنطبق عليهم أوصافنا هذه فعلاً . فعلياً أولاً أن نصنف أنواع العمى اللوني التي يمكن أن توجد . ويقوم هذا التصنيف بالطبع على أساس المكونات اللونية التي يمكن أن تختفى من شبكية العين . فإذا كانت الشبكية لا تحتوى تركيبات الإحساس باللون الأحمر مثلاً ، فإن الشخص لابد وأنه لا يرى اللون الأحمر . وإذا كانت الشبكية لا تحتوى على تركيبات الإحساس بالألوان الثلاثة فإن الشخص لابد وأن يكون عنده عمى كلي للألوان ؛ وهكذا بعد أن نحصر أنواع العمى اللوني جميعها ، نأتى بأولئك الذين يعانون عمى لونياً وندرسهم لنرى ما إذا كان عمى كل منهم اللوني الذي نتنبأ بوجوده عنده حسب تفسيرنا لإدراك الألوان ، موجود فعلاً أم لا . فإذا وجدناه مطابقاً فإننا نكون قد حققنا صحة التنبؤ بطريقة تجريبية .

والواقع أن جميع التنبؤات يجب أن توضع في محل الاختبار التجريبي إذ أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للتحقق من صحتها . كما أنها تسمح لأكثر من فرد بملاحظة الظاهرة وبذلك تعطى الفرصة للاتفاق بين الباحثين أو العلماء .

التحكم أو الضبط :

التحكم هو الهدف الثالث من أهداف العلم ولعله الهدف النهائي . ذلك أنه إذا كان العلم نشاطاً يهدف به الإنسان إلى السيطرة على الطبيعة لتحقيق أحسن تكيف ممكن بالنسبة له ، فإن معنى ذلك أن المهدفين الأولين إنما يخدمان هذا الهدف النهائي . والتحكم معناه تناول الظروف التي تحدث حدوث الظاهرة بشكل يحقق لنا الوصول إلى هدف معين . وتزداد قدرتنا على التحكم بالطبع كلما زادت قدرتنا على التنبؤ بها . كما أن مقدار تحكمنا في الظاهرة هو في الوقت نفسه اختبار لمقدار صحة تنبؤاتنا وقدرتنا على فهم تلك الظاهرة .

ويمكن أن نضرب أمثلة عدة لفكرة التحكم في جميع فروع العلم . فنحن نتحكم في ظاهرة تمدد قضبان السكك الحديدية مثلاً حتى لا تحدث أخطار معينة عن حدوث هذه الظاهرة ، فنترك فراغات بين القضبان على مسافات متباعدة حتى لا يؤدي التمدد الناتج عن احتكاك القطر أو عن حرارة الجو ، إلى انحناء القضبان وانقلاب القطار . كذلك نستطيع أن نتحكم في ظاهرة النجاح في كليات الجامعة إذ قمنا بعملية توجيه تعليمي على أساس ميول الطلبة وقدراتهم ؛ فننصح للطلاب الذي لا يصلح - بناء على تقديراته في هذه النواحي - بألا يحاول أن يسلك الطريق الجامعي مثلاً فيوفر على نفسه وعلى الدولة متاعب جمة . كما يمكن بتوجيهه إلى نوع الدراسة التي يصلح لها ، أن نحقق له النجاح والإنتاج . في هذه الحالة نحن نتحكم في السلوك البشري كظاهرة ونوجهه الوجهة التي تؤدي إلى تحقيق هدف معين ولاشك أنه بزيادة معرفتنا وفهمنا للظروف التي نتحكم في السلوك وتحدد تزداد قدرتنا على التحكم فيه . كما أن زيادة قدرتنا على التحكم فيه تعطينا من ناحية أخرى أحسن أنواع الاختبار لصحة فهمنا له .

والنقطة التي نريد أن نؤكد هنا هي أن إمكانية التحكم في الظاهرة لن تتحقق بأى شكل من الأشكال ، ما لم نكن قد وضعنا أيدينا على الظروف أو المتغيرات التي تحدث حدوث الظاهرة . بمعنى أننا إذا لم نستطع أن نحدد بالضبط هذه الظروف ، فإننا سوف لا نستطيع بالتالي أن نتناول الظاهرة بأى تعديل أو تغيير . والظروف التي تحدث حدوث الظاهرة كما سبق أن ذكرنا هي نفسها الظروف التي إذا ما تناولناها بالتعديل فإننا نحقق بذلك تعديلاً وتغييراً في الظاهرة نفسها . ونحن نؤكد هذه النقطة هنا لما سيكون لها من أهمية كبرى في مناقشتنا لتفسير الظواهر السيكولوجية فيما بعد .

فالعلاقة بين التحكم والفهم إذن علاقة وثيقة . كذلك العلاقة بين التحكم والتؤ . والواقع أن التحكم والتنبؤ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر إذا ما أخذناهما على أنهما هدفان

عامان . من أهداف العلم . فلكى تحقق أى تنبؤ مهما كان بسيطاً يجب أن نتحكم فى الظروف التى تحدد الظاهرة التى نتنبأ بها . ففى المثال السابق وهو مثال التنبؤ بالنجاح فى التحصيل على أساس اختبارات معينة ، نحن فى الواقع نتحكم فى السلوك ، فنسمح فقط بدخول الجامعة لأولئك الذين حصلوا على نسب معينة فى هذه الاختبارات . كذلك فإن التحكم فى السلوك لا يمكن أن يتم إلا على أساس تنبؤ سابق . فعندما نعطي نصيحة معينة لخريجى المدارس الثانوية من حيث التوجيه إلى كلية معينة دون الأخرى نحن فى الواقع نتحكم فى سلوكهم بناء على تنبؤنا بما سيكون عليه هذا السلوك فى هذه الحالات .

* * *

تلك هى أهداف العلم الثلاثة . وأى تفسير لا يسمح بتحقيق هذه الأهداف لا يعتبر تفسيراً علمياً^(١) . فقديماً مثلاً كان يعتقد أن فيضان النيل يسببه بكاء بعض الآلهة الذين فشلوا فى حبهم ، وإذا جاء الفيضان عالياً فلأن الآلهة فى ذلك العام قد اشتد بكاءهم وغزرت دموعهم ، وإذا جاء منخفضاً فعلى العكس لأن دموعهم لم تترك فى ذلك العام مدراراً .

هذا التفسير لفيضان النيل مثل من أمثلة التفسيرات غير العلمية . ذلك أن قدماء المصريين لم يكونوا فى ذلك الوقت قد اكتشفوا منابع النيل أو عرفوا من أين تأتي مياهه فأستدوا ذلك إلى دموع الآلهة . وإذا حللنا ذلك التفسير نجد أنه لا يحقق أى هدف من أهداف العلم التى سبق أن تحدثنا عنها . فهو أولاً لا يضع أيدينا على عوامل أو متغيرات تمكن ملاحظتها وتعتبر مسؤولة عن حدوث الظاهرة التى هى فيضان . وثانياً ، فإنه لذلك لا يسمح بالتنبؤ بحدوث الفيضان . ولذلك لم يكن فى إمكان قدماء المصريين أن يعرفوا - كما نعرف اليوم - ما إذا كان الفيضان سيكون عالياً أم منخفضاً أو ما هو بالضبط مقدار ما سيصل إليه من ارتفاع . كذلك لا يسمح هذا التفسير بالتالى بأى تحكم فى مياه الفيضان إذ أن ذلك يقتضى - كما سبق أن رأينا - إمكان تحقيق الهدفين السابقين أولاً .

وعلى العكس من ذلك فإننا إذا ما قارنا هذا التفسير بالتفسير العلمى المعروف اليوم نجد أن كل مميزات التفسير العلمى يتحقق فى ذلك الأخير . إذ نعرف أن المسئول عن حدوث الفيضان (وهو الظاهرة المراد تفسيرها) هو سقوط الأمطار فى الحبشة فى موسم معين . وإذا استطعنا أن نتحقق من ذلك أمكن التنبؤ بما سيكون عليه الفيضان من حيث الارتفاع

(١) إلا فى حالة الظواهر الفلكية فنحن لا نستطيع أن نتحكم فيها ومع ذلك فإننا نفرسها تفسيراً علمياً .

والانخفاض وبالتالي أمكن التحكم في مياه الفيضان ببناء الجسور وغير ذلك .

ويمكن أن نضرب مثلاً ثانياً من أمثلة التفسيرات غير العلمية في ميدان الظواهر الطبيعية بما سبق أن ذكرناه من تعليل ظاهرة الاشتعال بافتراض وجود مادة الفلوجستين . وكان الفلوجستين هذا شيئاً وهمياً لا تمكن ملاحظته . ولا تمكن ملاحظة الفلوجستين هذا لأنه بحكم تعريفه شيء لا يدرك . ولنا كان هذا التفسير تفسيراً غير علمي لأنه لا يضع أيدينا على متغيرات محددة تعتبر مسئولة عن حدوث الظاهرة وخارجة عن الظاهرة ذاتها . كذلك فإنه بالتالي لم يكن يساعدنا على التنبؤ بأى المواد سوف يكون أسرع احتراقاً وأى المواد سوف يكون أبطأ احتراقاً أو غير قابل للاحتراق ، أو ما هو التغير الذى يحدث بعد الاشتعال . وبالتالي لم يكن هذا التفسير يساعدنا على التحكم في ظاهرة التغير الكيميائى والطبيعى الذى يحدث في الأجسام .

ولكن إذا نظرنا إلى التفسير العلمى وهو أن عملية الاحتراق تتم نتيجة لاتحاد الجسم بالأكسجين الموجود في الهواء الجوى تحت ظروف معينة ، نجد أننا أمام عملية مختلفة تمل الإختلاف عما جاء به التفسير الأول . فبدلاً من أن نفترض شيئاً وهمياً ، فإننا نقيم علاقة بين متغيرات مختلفة : المتغير الأول هو الأكسجين في ظروف معينة ، والمتغير الثانى هو عملية الاحتراق . وكلا النوعين من المتغيرات محدد وقابل للملاحظة . ثم ننسور العلاقة بين هذه المتغيرات تصوراً قائماً على الملاحظة . ويوضع أيدينا على المتغيرات الأولى وعلى طبيعة العلاقة بينها وبين المتغير الثانى وهو ظاهرة الاحتراق ، نصبح عندئذ في موقف يسمح لنا بالتنبؤ بحدوث الظاهرة وبالتحكم فيها .

وإذا صعدنا فوق جبل عال وأردنا أن نسلق بيضاً أو خضراً أو طعاماً آخر من هذا النوع ، ولاحظنا أن الطعام لا ينضج بالرغم من غليان الماء ، ففسرنا ذلك بأن شيطاناً حل في القدر فمنع الطعام من النضج ، كان تفسيرنا هنا مثلاً آخر من التفسيرات غير العلمية . ذلك أن مثل هذا التفسير سوف لا يضع أيدينا على عوامل يمكن التحكم فيها أو ملاحظتها ، إذ أنه يجعل طهو الطعام أو نضجه ظاهرة خاضعة لأهواء الشيطان ، وبالتالي لا نصبح قادرين على السيطرة عليها أو التنبؤ بها ، شأننا في ذلك شأن الإنسان البدائى في تفسيراته الخرافية . أما إذا قلنا إن درجة غليان الماء تتوقف على ضغط الهواء وأن ضغط الهواء على قمة الجبل قليل ولذا فقد تطلب غليان الماء درجة من الحرارة أقل من درجة الحرارة التى يغلى عندها وهو على سطح البحر ، كان تفسيرنا في هذه الحالة تفسيراً علمياً ، إذ أنه سيضع أيدينا على محسوسات ، فالضغط الجوى يمكن قياسه ويمكن التحكم فيه . وبالتالي يمكن التحكم في عملية الطهو أو

نضج الطعام فنزيد الضغط في الوعاء بأن نجعل غطاءه محكماً مثلاً وبذلك نقلل من المدة التي ينضج فيها الطعام .

والعجيب أنه بقدر ما تبدو صفة الخرافة والجهل في مثل هذه التفسيرات واضحة في ميدان الطبيعة اليوم ، بقدر ما يعز على الكثير من علماء النفس ودراسيه تبين هذه الصفة في التفسيرات التي هي من نفس النوع في ميدان السلوك الإنساني . فالإنسان الحديث لم يتحرر بعد كلية من الاستعانة بمثل هذه التكوينات الغيبية في أثناء محاولاته لتفسير السلوك . ولا تزال هذه التكوينات موجودة وكاثرة تعيش بيننا في الكثير من نظريات علم النفس حتى اليوم . وهي وإن كانت تدل على شيء فإنما تدل على بقايا التفكير الخرافي أو الميتافيزيقي في ميدان لم يكن من السهل أن ينمو فيه التفكير العلمي . وسوف نتناول مثل هذه التفسيرات الخرافية أو الميتافيزيقية في علم النفس في الباب الثاني من هذا الكتاب . ولكننا نود أن نشير هنا فقط إلى أن فكرة الغرائز أو فكرة المجالات العصبية أو فكرة الوراثة التي كثيراً ما نلجأ إليها في تفسيرنا للسلوك البشري لا تحقق من أهداف العلم إلا بقدر ما كانت تحققه فكرة « الفلوجستين » أو « إرادة الطبيعة » أو « بكاء الآلهة » في تفسير الطبيعة .

والطريق في مثل هذه التفسيرات أنها تخضع لأهواء المفسر إلى أقصى حد ذلك أنها تفترض وجود أسباب أو عوامل غير قابلة للملاحظة . وليس من الممكن تحديدها . فإذا حدثت الظاهرة مثلاً فلأن هذه العوامل (الوهمية) كانت « موجودة » وإذا تخلفت فلأن هذه العوامل قد « تخلفت » . فوجود العوامل أو تخلفها مستنتجة من حدوث الظاهرة أو عدم حدوثها ، في حين أن المفروض في التفسير العلمي - على العكس - أن يميننا على التنبؤ مقدماً بحدوث الظاهرة أو عدم حدوثها ، اعتماداً على وجود المتغيرات أو الظروف المسبولة عنها أو عدم وجودها . ومن هنا كانت هذه التفسيرات لا قيمة لها من حيث الوصول إلى أهداف العلم من حيث التنبؤ والتحكم كما سبق أن وضعنا .

مراجع الفصل الثاني

- ١ - كروثر : العلم وعلاقته بالمجتمع - ترجمة إبراهيم حلمى عبد الرحمن وأمين
تکلا .
2. Jullian Huxely: Man in the Modern World. The New American Library.
New York 1949.
3. Albert Einstein and Leopold Enfeld: The Evolution of Physics. Simon and
Schuston. New York 1950.
4. Brown, C. W., & Ghiselli, E. E. Scientific Method in Psychology.
Mc. Graw-Hill, New York 1955.
5. Cohen, M. R., and E. Nagel: An Introduction to Logic and the Scientific
Method. Harcourt, Brace and Co. Inc. 1934.

الفصل الثالث مسلمات العلم

إن العالم الذى يبحث عن نظام معين فى هذا الكون يتمثل فى مجموعة من العلاقات التى تقوم بين ظواهره المختلفة لابد أن يفترض وجود هذا التنظيم مقدماً . فلا نستطيع أن نطبق المنهج العلمى أو نستخدم التفكير العلمى فى مجال يفترض فيه مقدماً أنه خاضع للأهواء . وإلا فما الذى نبحث عنه إذن فى مثل هذه الحالة ؟ إن البحث عن العلاقات معناه وجود نظام ، وأن هذا النظام مستمر مضطرب ، وأننا بالملاحظة والتجريب نستطيع أن نكتشف هذا النظام المضطرب . يقول اينشتين^(١) : « إنه بدون الاعتقاد بأن هناك انسجام داخلى فى عالمنا هذا فإنه لا يمكن أن يقوم العلم . فهذا الاعتقاد سوف يظل دائماً الدافع الأساسى للإبداع العلمى » .

ومن ثم كانت المسلمات الضرورية التى يستند إليها العلم فى منهجه والتى يعتبر الجدل فيها مسألة فلسفية وليست مسألة علمية ، هى :

أولاً : أن هناك نظاماً معيناً فى هذا الكون .

ثانياً : أن هذا النظام مضطرب .

ثالثاً : أن معرفتنا هذا النظام لا تتأق عن أى طريق آخر غير الملاحظة أو الخبرة الحسية .

هذه هى مسلمات العلم الثلاثة .

المسلم الأول هو ما يسمى بمسلم الحتمية .

والمسلم الثانى هو مسلم الاضطراب .

والمسلم الثالث هو مسلم الوضعية أو الحسية فى المعرفة .

وسوف نتناول الآن كل مسلم من هذه المسلمات على حدة .

Albert Einstein and Leopold Enfeld: The Evolution of Physics, Simon and Schuston, New York, 1950, p. 313.

(١)

مسلم الحتمية :

يعتمد العلم دون شك على المسلم الذى يقول إن جميع الظواهر فى هذا الوجود محتومة ، بمعنى أن مظاهر الطبيعة هى نتائج لعمليات أو أحداث طبيعية ولا تنتج من لا شيء .
فالأشياء لا تحدث هكذا أو من تلقاء ذاتها . فنحن نستطيع أن نتلمس بداية الظاهرة - ولو نظرياً على الأقل - فى الحوادث السابقة عليها أى التى سبقت ظهورها مباشرة والتى يمكن إرجاعها إليها . فهناك علاقة زمنية - من الناحية النظرية - بين هذه الظاهرة وبين الأحداث المقترنة بظهورها . وهذه العلاقة هى التى تمهدنا بالمعلومات اللازمة عن « سبب » حدوث الظاهرة . فمسلم الحتمية إذن يؤكد أن كل ظاهرة لها تاريخ ويتلخص هذا التاريخ فى الحوادث التى سبقت حدوث الظاهرة . ولا يقتصر هذا الكلام على ظواهر العلم الطبيعى فحسب بل ينطبق على جميع الظواهر والأحداث الطبيعية . وكما سنرى فإن كلمة الأحداث الطبيعية تشمل أيضاً الأحداث السلوكية مثل الدافع والرغبة والحب والكراهية والإدراك وغير ذلك ، وإن كانت هذه تختلف فى طبيعتها عن أحداث طبيعية مثل التيار الكهربائى والمجال المغناطيسى والحرارة والتمدد وغير ذلك .

وعلى أى حال فإن القول بالحتمية على هذا النحو يختلف عن الاعتقاد بأن الحوادث تحدث بشكل تلقائى أى بدون أن يكون هناك بالضرورة أى تلازم زمنى بين حدوثها وبين وقوع أحداث أخرى . ومن أمثلة هذا الاعتقاد الأخير ، القول بأن السلوك تلقائى .
فماكدوجال^(١) مثلاً يصف السلوك بخاصية أساسية هامة تميزه - فى نظره - عن حركة المادة ، هى أنه تلقائى . إذ يقول إن السلوك تلقائى أى أن الكائن الحى يستطيع أن يبدأ سلوكاً من تلقاء نفسه .

ولاشك أن وصف السلوك بأنه تلقائى معناه أنه يحدث هكذا دون تحديد أو ارتباط بعوامل أخرى تعتبر مسئولة عنه . وهنا معناه إخراج السلوك كله من دائرة الظواهر التى تخضع للدراسة العلمية ، إذ أن العلم يسلم مقدماً أن جميع الظواهر فى هذا الوجود محتومة . وليس هناك من الظواهر ما يحدث هكذا بدون « سبب » .

على أن السبب الذى نبحث عنه فى تفسيرنا للظواهر الطبيعية والذى يسلم مبدأ الحتمية بوجوده ليس هو « السبب » بالمعنى الآلى القديم . ذلك المعنى الذى كان يسود العلم الطبيعى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كان العلم فى تفسيره للعلاقات القائمة بين الظواهر يفترض وجود « قوة طبيعية » تنتقل من السبب إلى المسبب ، أو يفترض وجود

ارتباط ميكانيكى أو آلى بين الأشياء أو بين الحوادث بعضها وبعض ، ارتباط يجعل من بداية هذه الأحداث « سبباً » لما يلها أو يترتب عليها ، ويجعل من هذا « السبب » « قوة طبيعية » هى التى « تولد » أو « تنتج » النتيجة . ففكرة القوى الداخلية إذن أو فكرة الطاقة الكامنة كانت فكرة أساسية فى المعنى الآلى القديم للسببية .

وليس من الصعب أن نفهم لماذا أصبحت فكرة « القوة الطبيعية » فكرة أساسية فى المفهوم القديم للسببية . ففى مجال العمل اليومى حيث يتطلب الأمر من الفرد أن يقوم باستخدام قوته فى رفع شئ أو دفعه أو جذبه أو هزه أو ما شابه ذلك ، يفسر الفرد القوة التى يستخدمها فى هذا الحالات فى ضوء شعوره الخاص الذى يصاحب هذه العملية . ولما كان الإنسان يلاحظ أن الآلات يمكنها أن تقوم بعمليات كذلك التى يقوم بها هو ، لذلك فقد طبق مفهوم القوة هنا ، الذى استخلصه من خبراته هو الخاصة ، طبقه على الآلات . ولم يقتصر الإنسان على ذلك ، بل عم هذا المفهوم على حوادث الطبيعة وظواهرها . فالحركة التى يكتسبها جسم معين هى « نتيجة » للقوة التى تنتقل إليه من جسم آخر ، والضوء هو « نتيجة » للتغير فى الطاقة ، ذلك التغير الذى ينتقل خلال الأثير من الشمس إلى الأرض . والسلوك نتيجة لمؤثرات داخلية أو خارجية « تولد » أو « تدفع » السلوك . فهناك إذن قوة أو طاقة أو « تأثير » ينتقل من السبب إلى المسبب ويشبه هذا ما يحدث فى حالة الحركة الناتجة عند الدفع أو الجذب أو الرفع الآلية .

هذا هو المفهوم الآلى للسببية حيث كان ينظر إلى الأحداث الطبيعية باعتبار أنها وحدات مستقلة يرتبط بعضها على أساس مبدأ السببية ، فهناك رابطة ضرورية بين الحدث « السببى » والحدث « النتيجة » . وهذه الرابطة هى التى تجعل الأول « ينتج » أو يولد الثانى . أما الآن فإنه نتيجة لتطور العلم فى القرنين التاسع عشر والعشرين وعمو الصفة التجريبية فيه إلى حد بعيد ، بدأ العالم يوجه إنتباهه إلى الظواهر الملاحظة فقط دون الاهتمام بما يحدث فيما وراء هذه الظواهر . وبدأ على هذا الأساس يكون مفهومات تعينه على تنظيم ملاحظاته عن هذه الظواهر . فاستبدال مفهوم « السبب » بمفهوم « المتغير المستقل » ومفهوم « النتيجة » أو « المسبب » بمفهوم « المتغير التابع » واستبدال المفهوم القديم « الرابطة » بين السبب والمسبب بمفهوم « العلاقة الوظيفية » . وأخذ العلماء يبحثون العلاقات الوظيفية بين المتغيرات ، تلك العلاقات التى يمكن التعبير عنها بطريقة أو بأخرى من الطرق الإحصائية كمعامل الارتباط مثلاً . وليس هنا محل التفصيل فى أنواع العلاقات التى يبحث عنها العالم ،

ولكن المهم الذى نريد أن نؤكد أنه هو أن العالم لم يعد يبحث عن قوى خفية . ولم يعد اهتمامه بالأحداث أو تصوره لها على هذا النحو ، وإنما أصبح اهتمامه بالأحداث من حيث أن بعضها يلزم بعضاً تلازماً زمانياً إيجابياً والبعض على العكس يتلازم تلازماً زمانياً سلبياً وهكذا . وباختصار فإن تصور العالم للأحداث أصبح على أساس أن تغيراً معيناً فى المتغيرات المستقلة قد يحدث تغيراً معيناً مقابلاً فى المتغيرات التابعة . وهذا هو معنى العلاقة الوظيفية ، وهذا هو كل ما معنى العالم .

فالظواهر يرتبط بعضها ببعض بشكل معين ولا يعيننا أن نبحث فى « طبيعة » هذه « الرابطة » أو كيف يحدث « السبب » المسبب ، وإنما الذى يعيننا هو أن نبحث فى « شكل » هذه العلاقة كما تلاحظ فى الظاهرة . وشكل العلاقة لا يتضمن وجود « قوة » طبيعية معينة تنتقل من « السبب » إلى « المسبب » كما كان يفهم قديماً ، ولا يتضمن أن المتغير المستقل « ينتج » أو « يولد » المتغير التابع . ولا يتضمن وجود رابطة أشبه بوجود مادة لاصقة تجمع بين السبب والمسبب . بل كل ما تتضمنه فكرة العلاقة الوظيفية هى مجرد وصف الأحداث كما تحدث ، وصفها من حيث حدوثها فى نظام معين ليس غير . أو بمعنى آخر وصفها من حيث تلازمها أو عدم تلازمها فى التغير .

ذلك هو معنى السببية فى المفهوم العلمى الحديث . وقد أردنا أن نخدده هنا بوضوح حتى ندرك كيف تخلص العلم مما علق به من التفكير الميتافيزيقى . فإذا كانت الحتمية مسلماً أساسياً من مسلمات العلم ، فإن مضمون هذا المسلم أن نظاماً معيناً يحكم الظواهر التى تحدث فى هذا الكون ، وأن هذا النظام يمكن أن نشاهده فى التلازم فى التغير الذى يحدث بين الظواهر المختلفة . وعلى ذلك تقتصر فكرة السببية على ما يشاهد من تلازم فى التغيرات التى تحدث فى ظواهر الكون . ذلك التلازم الذى يمكن أن نعبّر عنه بطريقة ما من الطرق الرياضية .

ولا شك أن مسلم الحتمية بهذا المعنى مسلم أساسى بالنسبة للعلم . ذلك أنه لولا اعتماد العالم على هذا المسلم - كما سبق أن ذكرنا - لما كان هناك أى معنى للبحث عن علاقات وظيفية معينة بين الظواهر أو الأحداث ، ولما كان هناك أيضاً أى مجال للتنبؤ بهذه الظواهر أو التحكم فيها . ذلك أن العالم يعتمد فى تنبؤاته دون شك على وجود نظام معين فى تتابع الأحداث ، وأنها لا تحدث بناء على أهوائها . كما أنه إذا أراد العالم أن يتحكم فى ظاهرة معينة ، فإن معنى ذلك أنه يعرف مقدماً أن ظروفها معينة هى التى ، إذا تناولها بالتغير والتعديل ، فإنه سيمرتب على ذلك تغيراً معيناً فى حدوث الظاهرة .

وقبل أن نفرغ من هذه النقطة نود أن نؤكد فى النهاية أن معظم الكتابات فى علم

النفس لازالت بعيدة كل البعد عن التسليم بمبدأ الحتمية ، بالرغم من إدعائها اتباع الأسلوب العلمى . وحتى إذا سلمت بهذا المبدأ فى بعض الأحيان ، فإن مفهوم السببية فيها مازال يتخذ معانى بعيدة كل البعد عن معنى العلاقة الوظيفية بين المتغيرات ، معانى تتضح فيها آثار الخرافة الميتافيزيقية القديمة ، فضلاً عن التفكير الخرافى بصوره الأخرى . إننا نلمس ذلك مثلاً فى الكلام عن « الدوافع » عندما يوصف الدافع بأنه « تكوين ... يدفع صاحبه إلى أن يسلك ويدرك وينفعل ... الخ » ، أى أنه يسبب المظهر السلوكى بالمعنى الآلى القديم أى يولده وينتجه . ونلمس هذا المعنى كذلك عندما نتحدث عن الاتجاه مثلاً أو الشخصية^(١) أو أى متغير آخر باعتبارها مصدراً لطاقة معينة يتولد عنها السلوك ، أو عندما نتحدث كذلك عن « المثير » بأنه « يثير » الاستجابة .

كل هذه أمثلة لمفهوم السببية بالمعنى الآلى . والواقع أنه ليس هناك من ضرر معين يمكن أن يترتب على الكلام عن بعض المتغيرات باعتبار أنها من « أسباب » السلوك ، ما دمتنا على استعداد دائماً لأن نستبدل كلمة سبب بكلمة « متغير مستقل ذى علاقة وظيفية بالظاهرة السلوكية » . ولكن الضرر كل الضرر فى أن نسند إلى ذلك السبب « قوة » خاصة ونقول إنها هى التى تحرك الكائن الحى . ذلك أننا نكون معرضين دائماً فى كل هذه الأحيان لأن ننسى أننا نتكلم عن متغيرات ، ثم نجسد هذه القوة ذاتها التى افترضنا وجودها . ونجعل لها كيانه خاصاً فى مكان ما من الكائن الحى ، ونعبرها مسقولة - بشكل خفى - عن سلوكه وتصرفه . وبذلك نبداً من مجهول وننتهى إلى مجهول كما سيتضح بالتفصيل فيما بعد .

مسلم الاضطراب :

يقرر هذا المسلم أن الطبيعية ثابتة نسبياً على مر الزمن ، بمعنى أن ما حدث على نحو معين فى الماضى ، سوف يحدث على نفس النحو فى المستقبل إذا تسلوت الظروف . وإذا حدث تغير فى الكائنات المحيطة فإن مثل هذا التغير يحدث ببطء . فالشجرة والحجر والإنسان الذى قابلناه بالأمس وغير ذلك من الكائنات لا تبلى على مر السنين أنها تتغير بشكل ملحوظ . نحن نتعلم هذه الحقيقة ونتوقعها منذ الصغر حتى أصبحت شيئاً مسلماً به ونادراً ما نقاشه .

(١) راجع تعريف ألبورت مثلاً للشخصية بأنها « نظام يعمل على إصدار وتوجيه أشكال من السلوك »

على أننا إذا سلمنا مبدأ الثبات هذا ، فإننا لا ننكر أن هناك اختلافاً في الظواهر في نسبة التغير في الظواهر المختلفة ، أى أن مقدار الثبات على مر الزمن لا يبدو واحداً بالنسبة لجميع ظواهر الكون . وإذا اخترنا مبدأ الثبات هنا من الناحية التاريخية نجد أنه قد نشأ عند الإنسان من احتكاكه بالعالم الطبيعي . فالتغير في العالم الطبيعي بطيء على وجه العموم . إذ تبدو العلاقات الموجودة بين الظواهر الطبيعية هي هي . كما يبدو تتابع هذه الظواهر هو هو على مر الزمن .

أما إذا انجبهنا إلى الإنسان فإننا نجد أن التغير لا يبدو بمثل هذا البطء الذى يبدو عليه في الظواهر الطبيعية . ذلك أننا قد نجد فرداً معيناً يسلك اليوم بشكل خاص بإزاء ظروف معينة ولكنه قد يسلك غداً مسلماً مختلفاً كل الاختلاف ، رغم ما يبدو لنا من أنه في نفس الظروف . كذلك فإن أقل تغير في الظروف المحيطة بالملاحظة قد يحدث تغيراً واضحاً وسريعاً في سلوك فرد ما . هذا هو ما نشاهده في خيروتنا العادية وهذا هو ما يبدو لنا لأول وهلة . ولكن الواقع أن سلوك الإنسان محصلة للعديد من العوامل المعقدة المتشابكة المتداخلة ، في حين أن الظواهر الطبيعية تحددها عوامل أكثر وضوحاً وأكثر بساطة وأقل تعقيداً . فإذا كان السلوك الإنسانى يبدو متغيراً فلأننا لم نحدد بعد جميع العوامل التى يمكن أن تؤثر في حدوثه ، أما في حالة الظواهر الطبيعية فإنها تبدو ثابتة لأننا قد حددنا العوامل التى يمكن أن تؤثر في حدوثها . وعلى ذلك فإن ما يبدو لنا متغيراً في السلوك الإنسانى قد لا يبدو كذلك إذا فهمنا فهماً أدق ؛ أى إذا حددنا العوامل التى كانت خافية علينا عندما لاحظنا أنه قد تغير .

وإذا انتقلنا من عالم الفرد إلى عالم الجماعة نجد أن الظواهر الاجتماعية تبدو أكثر تعرضاً للتغير الشديد المفاجئ ، وعلى ذلك تبدو هذه الظواهر كما لو كانت غير خاضعة للتنبؤ أى أنها تبدو كما لو كانت تحدث دون قانون أو نظام مضطرب . فمعلوماتنا الماضية عن ظاهرة اجتماعية معينة غالباً ما لا تكفى لتفسير ما يحدث مستقبلاً . والسبب هو أننا لم نكتشف حتى اليوم جميع العوامل التى يمكن أن تحدث تأثيراً في الظاهرة الاجتماعية .

وإذن فيمكننا أن نقول بوجه عام إن الطبيعة مضطربة بما في ذلك الظواهر أو الأحداث السيكولوجية والاجتماعية وإن كان اضطراب النظام الطبيعي في عالم المادة أكثر ظهوراً منه في عالم الظواهر السلوكية الفردية وعالم الظواهر الاجتماعية . بل إنه لا يمكن أن تكون للدراسة العلمية أى معنى إذا لم نأخذ بمسلم الاضطراب هذا . وذلك أمر واضح بذاته ، إذ أنه من الصعب أن نتصور كيف يمكن أن تتحقق أهداف العلم لو كان التنبؤ بالمستقبل يعتمد كلية على الصدفة . وإذا كانت حوادث اليوم لا تستطيع أن تدلنا على حوادث الغد .

بمعنى آخر فإننا لا نستطيع أن نعمم أحكامنا بالنسبة للظواهر ما لم يكن هناك اعتقاد ضمنى بأن هناك استمراراً في وقوع الحوادث على النحو الذى حدثت عليه في الماضي . فنحن لا بد لكى نصدر قانوناً عاماً أن نعتقد أولاً بأن حوادث الطبيعة تسير على نحو مضطرب ، ووفق نظام لا يشذ . وإذا ظهر شذوذ للقانون الذى نصلره فليس لأن الطبيعة قد تغيرت ولكن لأننا لم نكتشف بعد جميع العوامل التى يمكن أن تحدث التغير ، أو لأن عوامل أخرى جددت فأحدثت تغيرات في شكل العلاقات .

على أننا هنا أيضاً يجب أن نذكر أنه ليس معنى الاضطراب في وقوع الحوادث أنه إذا تشابهت الظروف فإن النتائج « حتماً » أو « لابد » وأن تكون متشابهة . بل معنى ذلك أننا « نتوقع » نتائج متشابهة في الظروف المتشابهة . أو بمعنى آخر يمكننا أن نقول إن معنى الاضطراب هو أننا نتوقع أن تؤدي نفس المقدمات إلى نفس النتائج . ذلك أننا في هذا المجال أيضاً يجب أن نذكر أن الاضطراب ليس شيئاً موجوداً في ذاته مفروضاً على الحوادث من عل ، أو أن هناك « روابط » لها وجود مادي تربط المقدمات بالنتائج وتجعل الأحداث تسير باستمرار في اتجاه محدد . مثل تلك الروابط المادية ومثل ذلك الوجود المادي للاضطراب يجعلنا مرة أخرى نقع في نفس الخرافة الميتافيزيقية التى كان يمكن أن نقع فيها نتيجة لتصورنا الآلى للسببية . فإننا إذا امتحنا خبرتنا لا نلاحظ سوى قبض من الأحداث وتصور لعلاقات معينة بين هذه الأحداث . فنحن نتعلم أن عمليات معينة لابد أن تتم إذا ما أردنا أن نصل إلى نتائج معينة . هذه الخبرة نكتسبها من مرورنا بمواقف مختلفة متعددة في حياتنا الماضية ، ومن انتباهنا إلى هذه الظاهرة أو تلك بدافع من صالحنا في البقاء واجتناب الخطر . ثم إننا لنحمل بعد ذلك هذه الخبرة الماضية ونطبقها على الحاضر . وبناء على خبرتنا الماضية والحاضرة نتوقع نفس الشيء بالنسبة للمستقبل .

وبمعنى آخر فإنه بناء على خبرتنا بالنظام الذى سارت عليه الأحداث مما لاحظنا في الماضي ، فإننا نتوقع أن تسير على نفس النسق في المستقبل . فنحن في تصورنا للاضطراب نعتمد على خبرتنا السابقة وليس غير . أى كأننا نقول إن الأحداث قد حدثت على هذا النحو في الماضي وعلى ذلك فنحن نتوقع أن يستمر حدوثها على نفس النحو مستقبلاً . وعلى ذلك يكون تصورنا للاضطراب مبنياً على عملية استقراء للأحداث الماضية ، ثم تعميم ما لاحظناه في الماضي من نظام على ما سيحدث أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل . مثل هذا التصور لمفهوم الاضطراب لا يمكن أن يتضمن معنى اليقين وإنما كل ما يتضمنه هو درجة معينة من « الاحتمال » . وهذه الدرجة من الاحتمال تتراوح بالطبع من أقصى درجات الشدة إلى أقصى درجات الضعف ، بناء على خبرتنا بالظواهر ومدى معرفتنا بها . ولسنا هنا بصدد مناقشة

نظرية الاحتمالات ، ولكن يكفي هذا القدر لبيان مفهوم الاضطراب .

ولاشك في أن التسليم بالاضطراب شديد الأهمية بالنسبة لإمكان قيام العلم . فمن الواضح أنه إذا لم نسلم بالاضطراب فإن معنى ذلك أنه لا يوجد أى استقرار أو ثبات في الظواهر على مر الزمن . ومثل هذا الاستقرار ومثل هذا الثبات أمر أساسى بالنسبة للطريقة العلمية . ذلك أنه إذا لم يكن هناك ثبات أو استقرار في الظواهر الطبيعية ، تصبح أهداف التنبؤ والتحكم في العلم لا معنى لها . فمن الصعب أن نتصور كيف يحقق العلم أهدافه إذا كان حدوث الظواهر في المستقبل يعتمد على مجرد الصدفة ، وهى البديل المنطقي الوحيد إذا لم نأخذ بمسلم الاضطراب .

مسلم الحسية :

يتضح من مناقشتنا لمفهوم الحتمية والاضطراب ، أن كلا من هذين المفهومين قد نشأ وتحدد بناء على خبرة الإنسان الحسية ، أى أن الإنسان قد لاحظ في أثناء احتكاكه بالطبيعة المحيطة ، أن الحوادث لا تحدث بناء على أهوائها وإنما تنتظمها قوانين أو علاقات مضطردة ، مما يجعل من الممكن التنبؤ بها والتحكم فيها . ثم حاول الإنسان أن يكشف بالملاحظة هذه العلاقات . وأن يعتمد على ملاحظته في إقامة العلم . وأفادته ملاحظته فعلاً في نزاعه من أجل البقاء . في حين لم تفده - كما سبق أن بينا - المراجع أو التصورات الخرافية أو التأملات الميتافيزيقية . وباختصار فإنه عندما اعتمد الإنسان على ملاحظته الحسية بدأت ترداد قدرته في السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها بفضل اكتشاف قوانينها .

فليس غريباً لذلك أن يقوم العلم على التسليم بأن المعرفة تبدأ من الحواس . وأن ما يأتيها عن طريق الحس لا بد أن يكون هو بداية الطريق . بل إن العلم لم يقم إلا على هذا الأساس . فنحن في العلم نبدأ من أحكامنا نحن أى من تصورنا للواقع ، ذلك التصور الذى لا يمكن أن يتأق إلا عن طريق الحواس .

على أننا لا بد أن نقرر هنا حقيقة هامة ، تلك هى أن معطيات الحس هذه لا بد أولاً أن تكون قابلة للانتقال من فرد إلى آخر ، أو قابلة للتداول بين الأفراد ، حتى تصبح موضوعاً للعلم . وبمعنى آخر فإن الخبرة الفردية التى لا يمكن أن يشترك فيها أفراد آخرون لا تصلح لأن تكون موضوعاً للعلم . فإذا أدرك الشخص بمحوسه شيئاً لا يدركه أى فرد آخر بمحوسه ، أو مر بخبرة لا يمكن أن ينقلها إلى أى فرد آخر ، كان إدراك ذلك الفرد وكانت خبرته خارجة عن نطاق الموضوعات التى تصلح للدراسة العلمية . ذلك أن الشرط الأساسى لموضوعات العلم أن تكون مشتركة بين جميع الأفراد الذين تتوافر لديهم شروط الملاحظة .

وذلك هو معنى الموضوعية في العلم . فالعلم موضوعي بمعنى أن موضوعاته لابد أن تتساوى فرص ملاحظتها لجميع الأفراد الذين تتوفر لديهم شروط الملاحظة . أما إن اقتصر الموضوع على فرد بالذات ولم يستطع بقية الأفراد الاشتراك معه في الملاحظة ، فإن الموضوع في هذه الحالة يخرج من نطاق إمكانية البحث العلمي ؛ ولا يصلح أن يكون موضوعاً لمثل هذه الدراسة .

ويجانب علماء النفس هذه الحقيقة عندما يقررون في موضوع علم النفس دراسة الشعور (أى الخبرة اللاتية) . أى عندما يقررون للشعور منزلة خاصة ضمن موضوعات علم النفس باعتبار أنه خبرة « داخلية » في مقابل السلوك الظاهري . فالخبرة اللاتية إذا ظلت شيئاً « خفياً » أو « باطنياً » أو « مجرد ما يجري في داخل الفرد » دون أن تحدد أى وسيلة لمعرفة ، لا يمكن أن تكون موضوعاً للدراسة العلمية ، بل لا تصلح بحكم تعريف العلم - أن تكون كذلك . ومن ناحية أخرى ، فإنه إذا أمكن التعبير عن الخبرة اللاتية بطريقة ما من الطرق التي تسمح لنا بدراستها فإن معنى ذلك أنها تتحول عندئذ إلى سلوك . وبذلك يصبح موضوع علم النفس هو دراسة السلوك ، والسلوك فحسب . ذلك أن السلوك في صورة أفعال وحركات ولغة وتصرفات لها آثار خارجية هو فقط ما يمكن أن نلاحظه . ولا يعترف العلم بعد ذلك بأى شيء آخر . فمجرد الكلام عما هو « باطنى » من الظاهرة يخرج الكلام عن كونه مقبولا علمياً .

ولكن ليس معنى هذا أن نحذف من موضوع علم النفس - كما فعل السلوكيون الأوليون - ظواهر مثل « الألم » و « الانفعال » و « الإدراك » وغير ذلك مما كان يوضع حتى وقت قريب تحت عنوان « الحياة الشعورية » أو « الحياة العقلية » . ولكن الذى ننكره هو أن نتحدث عن هذه الأشياء باعتبارها « حقائق باطنية » قائمة بذاتها ، ولاسيبيل إلى مشاهدتها أو ملاحظتها في الخارج ؛ فتتحدث مثلاً عن « الشعور » و « طبقات الشعور » و « بؤرة الشعور » إلى آخر ذلك ، دون أن يكون في استطاعتنا أن ننقل إلى الآخرين ما نقصده بمثل هذه الألفاظ بعبارات تسمح لنا بملاحظتها ملاحظة موضوعية ، أى عن طريق الحواس . فنحن لا ننكر أن جزءاً من البيئة المؤثرة في السلوك الإنسان خاص بالفرد نفسه وينحصر فيه ، ولكن مثل هذا الجزء من البيئة لا يعنيها ولا يمكن أن يكون موضوعاً للدراسة العلمية ما لم يكن قابلاً للملاحظة بشكل ما ، أى ما لم يترجم بعبارات سلوكية تجعله يرضخ لأساليب الملاحظة العلنية الموضوعية .

ولنأخذ مثلاً ما يقرره شخص من أنه « يشعر بألم » في ضرسه . إن « شعور » الفرد في هذه الحالة شيء خاص به . شيء ذاتي لا يمكن أن يشبه « شعور » أى فرد آخر بهذا

الضرس . إذ لا يمكن لأى شخص آخر أن يقيم علاقة مع هذا الضرس تشبه علاقة هذا الفرد به . والشعور بهذا المعنى لا يصلح لأن يكون موضوعاً للدراسة العلمية . ولكن لتصور آثاراً معينة ؛ مثل ورم معين فى لثته وتغيراً ملحوظاً فى ضغط دمه وعلامات خاصة فى ملامح وجهه وحركات جسمه ، وتقريره اللفظى عن الألم ... الخ ، قد مكنتنا من أن نتحدث عن « الألم » بشكل موضوعى ، أى وفرت لنا فرص المشاهدة والملاحظة ، بحيث أصبحنا نستطيع أن نتكلم عن ظاهرة تقع تحت حواسنا . فإننا فى هذه الحالة سوف نكون فى موقف مختلف من ظاهرة « الألم » عن موقفنا الأول . فقد ترجم « الألم » الآن بعبارات جعلته قابلاً للملاحظة . وجعلت منه ظاهرة يمكن أن تخضع للدراسة العلمية ؛ وباختصار فقد ترجم « الشعور » إلى سلوك وترجمت الخبرة الذاتية إلى ظواهر موضوعية .

وقد نقتصر على ترجمة الشعور إلى تقرير لفظى أى سلوك لفظى ، ولكن مثل هذه التقارير اللفظية يجب أن يعالجها الشخص الذى يقوم بالملاحظة فى هذه الحالات كما يعالج أى تقارير عن أى ملاحظات أخرى . أو بمعنى آخر يجب أن نتوخى الموضوعية فى طريقة الحصول على مثل هذه التقارير وفى تحليلها كما يحدث ذلك فى أى مجال آخر للدراسة العلمية . أما إذا أغفل الملاحظ أن يقرر بوضوح تفاصيل ملاحظاته ، وحاول أن يقفز مباشرة إلى النتائج المقامة على هذه الملاحظات ، فإنه يقلل فى مثل هذه الحالة من القيمة العلمية لعمله ، ويكون أشبه بالطبيب الذى لا يستطيع ، أو لا يود ، أن يعطى تفاصيل عن ملاحظاته ، ويقوم بالتشخيص بشكل مباشر . وباختصار فإن التقرير اللفظى للخبرة يجب أن يعالج كما تعالج التقارير اللفظية الأخرى عن الملاحظات التى يقوم بها العالم فى أى ميدان آخر ، من حيث توخى الصدق والموضوعية فى التقرير .

وقد يعترض البعض بأن التقرير اللفظى (أو الكتابى) أو المظاهر السلوكية والتغيرات الظاهرية الأخرى التى سبق التحدث عنها ، ليس هو الخبرة الذاتية نفسها ، وإنما هى مجرد مظاهر أو رموز وعلامات « للحقيقة الباطنية » . والجواب على مثل هذا الاعتراض ، أننا لا نملك حتى الآن وسيلة يمكننا بها أن نتصل بالأحداث الذاتية بشكل مباشر لنلاحظها ملاحظة موضوعية . ولذلك فنحن لا نستطيع علمياً إلا أن نستنتج هذه الأحداث إستنتاجاً . فنحن لا يعيننا من الأحداث الذاتية إلا ما يظهر لنا وما نستطيع أن نتحقق من وجوده أو عدم وجوده عن طريق الاختبار الحسى ، ثم قد نستنتج بعد ذلك ما تؤيد هذه الظواهر . أما إذا كنا سنعتمد فى دراستنا على ما يقوله الناس عما يدور فى بواطن نفوسهم « عن طريق عملية التأمل الباطنى ، بصرف النظر عما إذا كان ما يقولونه هنا يمكن التحقق من صدقه أم لا ، فإنه لا يكون أمامنا عندئذ إلا أحد أمرين : إما أن نصدق ما يقوله هؤلاء الناس أو لا نصدق ، أى إما أن نؤمن بما يقولونه أو لا نؤمن . والعلم كما سبق أن قلنا لا يعتمد على

الذاتية وإنما يعتمد على الحواس والمشاهدة الحسية .

هذا الخطأ في علم النفس يقع فيه الكثيرون من المبتدئين وغير المبتدئين على السواء . فهم يظنون أحياناً إن مجرد وصف الخبرة الذاتية عندهم معناه التوصل إلى حقيقة علمية . يأخذ البعض أحياناً في وصف مثل هذه الحقائق التي لا وجود لها إلا في خبرته الذاتية معتمداً على مجرد ألفاظ وتشبيهات . ثم لا ينتهي أخيراً إلى أن قضية يمكن التحقق منها بالطرق العلمية . أى يمكن اختبار صحتها أو كذبها عن طريق التحقيق العلمى .

فإذا كنا ندرس الغضب مثلاً ، فلا بد أولاً أن نحدد معنى الغضب بطريقة يمكننا بها أن نلاحظه ملاحظة موضوعية . كأن نحدده بما يظهر من تغير في ملامح الوجه وتغير في ضغط الدم وسرعة النبض وتقلص في العضلات وغير ذلك مما يظهر دائماً في الأحوال التي نسميها بالغضب . أما ما هو الغضب بعد ذلك فليس أمامنا إلا أن نستنتج من هذه الشواهد مفهوماً شاملاً عنه . ولكن ليس لنا أى حق في اتخاذ الطريق العكسى ، أى في أن نفترض وجود شيء داخلي أو « حقيقة باطنية » هى التى تسبب هذه المظاهر . والكلام عن مثل هذه « الحقيقة الباطنية » سوف لا يخرج عن كونه مجرد تشبيهات أو لغة مجازية ليست صلتها بالواقع مما يفيد العلم في شيء .

والذى نريد أن نخلص إليه من كل هذا هو أن علم النفس كأي علم آخر لا يدرس إلا ما هو ظاهري ، ما يقع تحت الحواس ؛ وأن « الشعور » أو « الخبرة الذاتية » ليس لها مكان كموضوع للدراسة العلمية ، إلا إذا ترجمت معانيها بعبارة سلوكية . وبذلك يصبح موضوع علم النفس هو دراسة السلوك فحسب لأن هذا هو الموضوع الوحيد الذى يمكن أن يلاحظ بشكل مباشر عن طريق الحواس .

وأخيراً ، عندما يقرر العلم أنه يعتمد على الحواس كتنقطة يبدأ منها ، فإنه يعتمد على ما يسمى بالفلسفة الوضعية المنطقية^(١) التى تعتبر أن المعرفة تقف عند حدود الخبرة الإنسانية ، وتعتمد على ما تتطبع به حواس الإنسان . وأن الاختلاف في قيمة المعرفة يقابله اختلاف في نوع التجريبات أو التصورات ومدى انطباقها على الخبرات الحسية . وأن جميع المشكلات المتعلقة « بالحقيقة القصوى »^(٢) تصبح لذلك مشكلات ميتافيزيقية لا تمت إلى العلم بأى صلة . والعلم قد سلم بوجهه النظر هذه لا على أساس مناقشة جدلية ، ولكن على أساس نفعي بحث وهو الفائدة التى حصل عليها الإنسان من التسليم بهذه الأسس .

Logical Positivism

(١)

Ultimate Reality

(٢)

مراجع الفصل الثالث

- ١ - زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥١ .
2. Albert Einstein and Leopold Enfeld. The Evolution of physics. Simon and Schuston. New York 1951.
3. Brown C. W. and E. E. Ghiselli. Scientific Mehtod in Psychology. Mc. Graw-Hill. New York 1955.
4. Shinner, B. F., Science and Human Behavior. The Mac millan Company. New York 1953.
5. Perice, C. S. : Notes on a Scientific Philosophy, in D. J. Bronstein, Y. H. Krikorian, and P. P. Weiner (eds.). "Basic Problems of Philosophy". Prentic-Hall. Inc. New York 1947.
6. Marx, M. H. (ed). "Psychological Theory : Contemporary. Readings," The Macmillan Company New York 1951.

الفصل الرابع جوانب التفكير العلمى

إن أى تقسيم للتفكير العلمى إلى خطوات هو فى الواقع تقسيم مصطنع . فالتفكير العلمى نشاط موحد أو خبرة كلية . والخبرة الكلية لا تقسم إلى عناصر أو أجزاء ، وإنما يمكن أن ينظر إليها من جوانب مختلفة أو زوايا متعددة . وإذا كنا نصنف هذه الزوايا أو الجوانب فى عناوين مختلفة ، فذلك فى الواقع لأغراض عملية فقط ، ولأجل التحليل وسهولة الوصف ، ولا يعنى أن هذه الزوايا أو الجوانب تمثل موضوعات منفصلة عن بعضها البعض . وقد تحدثنا حتى الآن عن تعريف العلم بشكل عام ، وعن الأهداف التى يرمى العلم إلى تحقيقها ، وعن المسلمات التى يعتمد عليها العلم ويبدأ منها . وخلاصة هذا الكلام حتى الآن أن العلم نشاط لغوى اجتماعى يهدف به الإنسان إلى فهم الطبيعة من حوله حتى يمكنه أن يسيطر عليها لتحقيق التكيف المنشود . ولاشك أن هذا النشاط - باعتباره خبرة إنسانية - ليس أمراً بسيطاً . بل هو ، كأى خبرة إنسانية أخرى ، على درجة كبيرة من التعقيد . ولذلك فإذا أردنا أن نصف هذا النشاط على وجه التحديد ، فلا بد - كما سبق أن قلنا - أن ننظر إليه من زوايا مختلفة . وقد تعودنا أن نحمد الذين يكتبون فى هذا الموضوع ينظرون إلى هذه الجوانب من التفكير العلمى باعتبار أنها خطوات ثابتة محددة تسير الواحدة منها بعد الأخرى . فهناك الشعور بالمشكلة ثم الملاحظة ثم الفرض ثم التحقيق^(١) ؛ وكأنها عناصر مستقلة عن بعضها البعض ، ويمكن فصلها بخطوط محددة .

والواقع أن الإنسان فى أثناء تفاعله مع البيئة المحيطة من أجل المحافظة على بقائه واجتناب الخطر ، يتوجه بانتباهه إلى أجزاء مختلفة من هذه البيئة ونواحي متعددة منها . فيدرك فى هذه النواحي أو فى هذه الأجزاء علاقات مختلفة : أوجه شبه وأوجه اختلاف بين الظواهر أو الأحداث التى تمر به . فقد يلاحظ الإنسان أن هناك صلة شبه أو اختلاف بين ما سبق

(١) انظر خطوات التفكير العلمى فى بعض كتب المنطق .

أن وجهه إليه انتباهه في الماضي وما يوجه إليه انتباهه في الحاضر . وقد تفيد هذه العلاقات في تحقيق أهدافه في الحياة وإشباع دوافعه وحاجاته الملحة فيها ، فيتابع هذه العلاقات بالمزيد من الانتباه والدراسة والبحث والمقارنة ، وهكذا ؛ وبعبارة أخرى يحاول الإنسان أن يربط بين ما يظهر جزئياً مفككاً . يربط بين ظواهر الطبيعة المختلفة وأحداثها التي تتبدى أمامه في سلسلة لا نهاية لها . هذه المقارنة الضمنية بين الظواهر المختلفة التي تصادفها وتنبه إليها في صراعنا مع الطبيعة ، واستخلاص ما بينها من علاقات تبعاً لما يسعفنا به إدراكنا في وقت ما ، هو ما نعينه بالنشاط الذي نطلق عليه التفكير العلمي .

وواضح من ذلك أنه يصعب علينا أن نقسم النشاط العلمي إلى خطوات . وإنما الأوفق أن نميز فيه نواحي . وأبرز هذه النواحي ناحيتان أساسيتان : الأولى هي ما نسميه بالناحية الوضعية^(١) ، والثانية هي ما نسميه بالناحية التفسيرية أو النظرية^(٢) . ولقد سارت هاتان الناحيتان باستمرار جنباً إلى جنب في نشاط مزدوج كانت نتيجته ما توصلنا إليه حتى اليوم من العلوم . فمنذ قديم الإنسان يلاحظ ، ويبحث عن تفسير لملاحظته هذه في نفس الوقت . فقد لاحظ الناس منذ قديم الزمان مثلاً أن الشمس تشرق كل يوم من الشرق وتغرب في الغرب ، كذلك لاحظوا أوجه القمر كل شهر . وغير ذلك من الظواهر الطبيعية . وقد كان من بين هؤلاء مجموعة سألت نفسها لماذا تشرق الشمس ؟ ولماذا تغرب ؟ وأين تشرق ؟ وأين تغرب ؟ ولما تتغير أوجه القمر ؟ وهكذا . من هذه الأمثلة وغيرها يتضح جانباً التفكير العلمي . الجانب الأول : الوضعي ، ويتلخص في القيام بعمل ملاحظات . والجانب الثاني ويتلخص في المحاولات المنهجية المنظمة لتفسير هذه الملاحظات . وينمو العلم وتطوره حدث تقسيم للعمل فتخصص بعض المشتغلين بالعلم في عمل الملاحظات بينما شغل القليل منهم نفسه بمشكلات التفسير .

ولما كانت مشكلات التفسير أو الجانب النظري هي التي تهتمنا في هذا المجال أكثر مما يهتمنا الجانب الوضعي من العلم ، لذلك سوف نعرض بشكل سريع للجانب الوضعي ثم نوفر الجزء الأكبر من اهتمامنا للجانب النظري .

الناحية الوضعية في التفكير العلمي :

نقطة البداية في العلم كما قلنا هي الحواس ، وتنطبع الحواس بما يحدث حولها من ظواهر

فيلاحظ الإنسان ما يجري حوله ويسجل ملاحظاته ومشاهداته هذه كلما اتصل بالطبيعة في أى ناحية من نواحيها . وعلى أساس هذه الملاحظات يبنى العالم بناءه العلمى .

على أن الملاحظة - مع ذلك - ليست بالشئ البسيط كما قد يعتقد أحياناً . وإن دراسة عميقة للملاحظة وما تتضمنه من عمليات أخرى لتبين لنا مدى التعقيد الذى تتميز به هذه العملية الأولية . فحتى فى الملاحظة التى تبدو عرضية نحن نستخدم الفروض العلمية فى تفسير ما نحسه . فقد ندعى مثلاً أننا نرى النجوم الثوابت أو نرى ظل الأرض يخسف القمر ، أو نرى النحل يجمع الرحيق للعسل أو نحس باقتراب العاصفة . ولكن إذا تذكرنا أن ما نراه هنا اكتسب هذا المعنى فى وقت متأخر نسبياً فى الحياة البشرية ، فإننا نكون عندئذ أكثر استعداداً للتنازل عن الاعتقاد بأن ما نراه هنا نراه بشكل أولى ، دون تدخل أى نظرية . والملاحظة التى تخلو من الخبرة التفسيرية لا توجد تقريباً ، فأينما وجدت الملاحظة كانت مختلطة بالتفسير . فموضوعات رؤيتنا وسمعنا وحواسنا على وجه العموم تكتسب معانها من خبراتنا السابقة ، ولا يمكن أن تجرد هذه الموضوعات من المعانى التى تكتسبها . فالبقعة اللامعة البيضاء المضيئة على الأرضية الزرقاء العميقة لا تجذب انتباهنا بهذا الشكل الخالى من المعنى . ولكننا نترك - عندما نلاحظها - أنها نجم بل وأنها عبارة عن ملايين السنين المضيئة . فملاحظتنا عبارة عن مدركات ، عبارة عن تفسيرات لما يقع تحت حواسنا من متغيرات . وهى عملية أكثر تعقيداً بكثير مما نظن . فهذه المدركات لا تصبح على هذا النحو الذى هى عليه إلا بعد أن نكون قد لاحظنا (أدركنا) أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين الأشياء . وكتيجة لإدراك أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين الأشياء ، نقوم بعملية تصنيف لموضوعات إدراكنا ، فنسمى هذه شجرة ونسمى ذلك نجماً وهذا نهراً وذلك جبلاً ، وهكذا . فنحن إذ نبني هذه التصنيفات إذن بناء على تفسير سابق أو نظرية سابقة ، نقرر بشكل ضمنى أن ما يندرج تحت اسم واحد هو فى الواقع متشابه . فحتى أبسط الملاحظات إذن يتدخل فيها التفسير إلى حد كبير .

ونحن لا نصل بملاحظتنا إلى تصنيف الأشياء فقط ، بل إلى تصنيف الحوادث التى تقع فى هذا الكون والتغير الذى يحدث فيه . فنلاحظ مثلاً المد والجزر ونلاحظ شروق الشمس وغروبها ونلاحظ أوجه القمر ، ونلاحظ أن الأسعار ترتفع وتنخفض ، ونلاحظ أن صحة مجموعة من الناس قد اعتلت أو أن وباء قد أصاب عدداً كبيراً من الأفراد فى بلد ما أو أن الأفراد يختلفون فى قدرتهم على الفهم واستيعاب المعلومات أو أن الفرد يتعدل سلوكه كلما تكرر اتصاله بالموقف أو أن الانحراف قد زاد أو أن الجريمة قد قلت فى مجتمع ما ، وهكذا .

وقد يتضح لنا فيما بعد أن ملاحظتنا غير صحيحة . والشواهد العديدة على ذلك ليست ببعيدة . ففي كل يوم يشهد في المحاكم أناس مخلصون أن ما رأوه هو خلاف ما رأى غيرهم . وتجارب علم النفس التي كشف هذا الاختلاف ، بل التعارض والتناقض في الملاحظة بين الأفراد المختلفين ، تجارب عديدة . وفي تاريخ العلم أمثلة أخرى ، فالحوت مثلاً قد يصنف على أنه نوع من الأسماك ، ولكن بناء على الملاحظة الدقيقة التي تأخذ في الاعتبار أوجه شبه أشد دلالة من أوجه الشبه السطحية ، فإننا نعتبره من الثدييات ، وهكذا .

وعوامل الخطأ في الملاحظة كثيرة منها قصور المعرفة كما يحدث عند الرجل العادي ، أو الباحث الذي يلاحظ ملاحظة عرضية ، ولا يتوخى الدقة أو تحديد الظروف التي تحدث تحتها الملاحظة أو يعمم من جزئيات بسيطة غير ممثلة . كذلك من عوامل الخطأ التحيز أو الدوافع الشخصية ، كأن يرى الرجل الأبيض الأمريكي أن الزنجرى عدواني أو مندفع وراء الجنس أو كرهه الرائحة أو غير ذلك . وكذلك من عوامل الخطأ في الملاحظة التوقع والافتكار السابقة . فالتفسيرات أو الفروض السابقة التي تقودنا في ملاحظتنا هي أيضاً التي تحدد الجانب الذي نلاحظه من الظاهرة . ولذلك فإنه إذا لم تحدد الظروف التي حدثت فيها الملاحظة تصبح الملاحظة غير ثابتة أو حتى عديمة القيمة . فإذا قلنا مثلاً إن سائلاً معيناً يغلى في درجة حرارة ٨٠ مئوية ، يصبح هذا الكلام عديم القيمة إذا لم تحدد كثافة هذا السائل والضغط الجوي الذي يحدث فيه الغليان .

ومن البديهي أن تكون القاعدة الأساسية للملاحظة المعينة هي أن يتخلص الإنسان من جميع هذه العوامل ، أو باختصار ألا يجعل للتفسير دخلاً في ملاحظاته بقدر الإمكان . ويستطيع القارئ أن يجد بالتفصيل شروط الملاحظة الجيدة وطرق جمع الملاحظات وعرضها وتحليلها في كتب مناهج البحث^(١) وكتب الإحصاء^(٢) . ولكن الذي يهمنا هنا هو أن نبين أهمية ذلك من حيث تطور العلم والتفكير العلمي وتطبيق ذلك في ميدان علم النفس بوجه خاص .

(١) اقرأ في مناهج البحث كتاب المنطق الوضعي للدكتور زكي نجيب محمود . مكتبة الانجلو المصرية

١٩٥١ .

(٢) وفي كتب الإحصاء : كتاب علم النفس الإحصائي وقياس العقل البشري للدكتور فؤاد البهي السيد . دار الفكر العربي ١٩٥٨ .

وكتاب الإحصاء في البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية للدكتور سيد حمري ، دار الفكر العربي .

ولاشك أن العلم في مراحله الأولى كان يقوم بملاحظات معظمها عرضي ووصفي ، فنصف مثلا شروق الشمس فنقول إن الشمس تشرق في مطلع النهار ثم تتوسط السماء في منتصفه ثم تغرب . ونصف أوجه القمر فنقول إن القمر يبدأ هلالا ثم يكبر حتى يصبح بديراً كاملاً ثم يتناقص مرة أخرى ، وهكذا . ولعل مثل هذه المرحلة هي ما بدأت به العلوم الاجتماعية بوجه عام وعلم النفس بوجه خاص في بداية هذا القرن . فوصف السلوك مثلا بأنه ينقسم بوجه عام إلى علوان وجنس وتملك وهروب ... الخ ووصف كل نوع من هذه الأنواع بشكل كيفي ؛ وقسم السلوك إلى أنواع أخرى ، إلى عصاب وذهان ، وقسم كل من هذين الأخيرين إلى أنواع أخرى ، وهكذا . وكانت معظم هذه الملاحظات عرضية لم يتوخ فيها العلماء الدقة المعروفة في الوقت الحاضر .

ولكن بعد أن تقدم العلم أخذ يطور ملاحظاته من الوصف الكيفي إلى الوصف الكمي ومن الشكل العرضي إلى الشكل المنظم ، فأخذ العلماء يعدون مثلا الأيام التي يمكنها القمر في دورته ، كما يحسبون على وجه التحديد الوقت الذي تقضيه الشمس في « دورتها » وهكذا . وهدف العلم اليوم هو أن يصل إلى أدق وصف كمي ممكن للظواهر التي يدرسها . وقد تطلب منه هذا أن يبتدع آلات وأدوات خاصة تعينه على الملاحظة الكمية المضبوطة . هذه الآلات والأدوات هي المقاييس المختلفة كالمسطرة والساعة والتليسكوب والميكروسكوب والمقاييس الأخرى كالمقاييس العقلية ومقاييس السلوك يظاهاه المختلفة .

وقد وضع العلماء الأدوات والأجهزة القياسية التي تستخدم في قياس مجموعة معينة من الظواهر ، في مكان معين لصيانتها وسهولة استخدامها . وسمى هذا المكان بالمعمل ، كالمعمل الفسيولوجي والمعمل الكيميائي والمرصد ومعمل علم النفس ، وهكذا .

وبنمو الرغبة في البحث العلمي لم يعد في وسع الإنسان أن ينتظر حتى تحدث الحوادث بالشكل التلقائي . ثم إن حدوثها بهذا الشكل لا يتيح له الفرصة المواتية لتسجيلها تسجيلاً دقيقاً . وعلى ذلك أراد العلماء أن يخضعوا الظواهر للملاحظات بالطريقة التي تسمح لهم بالدقة ويتوفر الوقت معاً . فابتدعوا التجريب : أي تهبة الظروف المناسبة لحدوث الظاهرة بالشكل المطلوب ، والمناسبة بالتالي لعمل الملاحظات المطلوبة . ونشأت بذلك أنواع مختلفة من التجارب وخطط مختلفة للتجريب . ووضعت على هذا الأساس قواعد عامة

للتجريب في العلوم المختلفة وقواعد خاصة بكل علم بالذات^(١).

ولا يقتصر الجانب الوضعي في العلم على مجرد الملاحظات الأصلية التي يسعى الباحث إلى تسجيلها ، بل يشمل أيضاً جميع الخطوات السابقة واللاحقة للحصول على هذه الملاحظات مما تستخدم فيه الخبرة الحسية ؛ فتشمل في علم النفس مثلاً إعداد المقاييس وتطبيقها ، كما يشمل خطط البحث وطرق تسجيل الملاحظات وطرق عرضها وتحليلها . ويستعين علم النفس في ذلك بالطبع بالعلوم الرياضية كعلم الإحصاء . فطرق التوزيع التكراري ومقاييس النزعة المركزية ومقاييس التشتت والارتباط والتحليل الإحصائي بكافة أنواعه ما هي إلا أشكال وطرق لعرض الملاحظات وتحليلها حتى تسهل قراءة المعاني المختلفة فيها ، ويسهل إدراك العلاقات بين جزئياتها . كذلك يتضمن الجانب الوضعي تحديد طريقة اختيار العينة التي تجرى عليها الملاحظات حتى يمكن التعميم من هذه العينة إلى الأفراد الآخرين الذين لم تجرب عليهم الملاحظة ، وهكذا . كل هذه النواحي يتضمنها الجانب الوضعي للعلم ، ومنها وعلى أساسها يمكن أن يوصل إلى فهم الظواهر وتفسيرها وهو ما يختص به الجانب النظري .

الناحية النظرية في التفكير العلمي :

لعلنا قد بينا حتى الآن أن جمع الملاحظات عن طريق القياس التجريبي المباشر هو القاعدة الأساسية للعلم . ولقد تجمع لنا حتى الآن الكثير من الحقائق العلمية الثابتة عن هذا الطريق . إلا أننا لا نستطيع دائماً أن نصل إلى حلول للقضايا العلمية ببساطة عن طريق الملاحظة والقياس المباشر . فالكثير من الظواهر يبدو بعيد الصلة بالمتغيرات التي تقع تحت الملاحظة المباشرة بحيث يتعذر الاعتماد على هذا الطريق السهل المباشر في تفسيرها . كما أن مشكلة إقامة العلاقات بين الظواهر التي تبدو بعيدة الصلة بعضها ببعض هي في أساسها مشكلة لا تحل عن

(١) يمكن أن يطلع قارئ علم النفس الذي يريد الاستزادة في هذه الناحية على كتاب :

Experimental Design in Psychology. By: Allen L. Edwards. Rinehart and Co., Inc. New York, 1950.

وكذلك كتاب « مناهج البحث في علم النفس » ترجمة المؤلف بالاشتراك مع آخرين : مؤسسة فرنكلين إشراف الدكتور يوسف مراد القاهرة ١٩٥٩ .
وكتاب الدراسة العلمية للسلوك الاجتماعي : تأليف نيب اسكندر إبراهيم ولويس كامل مليكة ورشدي فلم منصور . مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٦٠ .

طريق الملاحظة المباشرة لذلك كان لابد - في جميع العلوم الحديثة - من إقامة النظريات أو المبادئ التفسيرية التي ، وإن كانت تقوم أساساً على ما جمعناه من الخبرة المباشرة ، إلا أنها لا يمكن أن تعتبر قاصرة عليها .

ففي كل علم إذن لابد من أن نفرق بين الحقائق الوضعية من ناحية والتصورات التفسيرية من ناحية أخرى . أى نفرق بين الملاحظة والقياس من ناحية وبين تفسير هذه الملاحظات والأقيسة من ناحية أخرى . فبالرغم من أننا وضحنا كيف أن الملاحظة قد تعتمد إلى حد ما على التفسير وبالرغم من أننا نقرر الآن أن التفسير في العلم يعتمد أساساً على الملاحظة التجريبية إلا أن التفرقة بين هاتين الناحيتين لازمة وضرورية .

وإذا كانت العلاقة بين ما هو وضعى وما هو نظرى من الأهمية بمكان كبير في التفسير العلمى على وجه العموم ، فإنها تحتل الآن في علم النفس المكان الأكبر من الأهمية ، نظراً لطول الصلة بين علم النفس والفلسفة ، ونظراً - كذلك - لأن النظريات التي قامت في علم النفس لم تقم على أساس من المعرفة بالشروط اللازم توفرها في قيام التفسير العلمى . فلقد كانت معظم هذه النظريات عبارة عن تأملات وثيقة الصلة بالاتجاهات الفلسفية التي كان علم النفس أحد فروعها . أما الآن وقد بدأ الوعي ينتشر فيما يتعلق بشروط البحث العلمى والأسس التي لابد أن تقوم عليها النظرية العلمية حتى تكون مفيدة ومحققة لأهداف العلم فإن مناقشة هذه الناحية أصبحت شيئاً لابد منه في علم النفس .

وتفسير الظاهرة معناه أن 'نتناولها تناولاً عقلياً نظرياً يرمى إلى اكتشاف أو تصور العلاقات القائمة بينها وبين غيرها من المتغيرات . وهذه نفسها هي عملية الفهم التي سبق أن تحدثنا عنها كهدف أساسى من أهداف العلم . فلكي نفهم مجموعة معينة من الظواهر يجب أن نتصور ثمة علاقة تقوم بينها وبين غيرها من الظواهر التي تلازمها أو تلاحقها . ونحن نتصور هذه العلاقات على سبيل التخمين أولاً ثم نعاود النظر في مثل هذه التصورات لتحقيق من صحتها بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التجريبية . والوسيلة التي نعبر بها عن تخميننا أو تصورنا لوجود علاقات معينة بين الظواهر المختلفة بهدف تفسيرها ، هي ما نسميه بالفرض العلمى . والطرق التي نتحقق بها من صحة هذه الفروض أو مدى انطباقها على الواقع المشاهد هي ما نسميه بطرق تحقيق الفرض . وإذا ما ثبتت صحة الفرض فقد يصبح قانوناً . والنظام الذى يتضمن عدة قوانين أو فروض علمية

في شكل متناسق موحد هو ما سمي به بالنظرية . ويتضمن الجانب النظرى من العلم كل هذه التركيبات والقضايا بالإضافة إلى العمليات العقلية التى يستخدمها في سبيل الوصول إليها ، كالأستدلال والتعميم والتجريد والحكم وما إلى ذلك . وسوف نتناول هذه التركيبات الواحدة بعد الأخرى ، حتى يمكن أن نفهم على وجه التحديد كيف يكون التفسير العلمى .

الفرض العلمى :

الفرض العلمى هو الوسيلة اللغوية التى تعيننا على فهم ظاهرة ما ، فهماً بالمعنى الذى سبق أن شرحناه . فهو عبارة عن قضية تحمل خبيراً يتعلق بعناصر واقعية وتصورية^(١) ، وبالعلاقات القائمة بينهما ، بحيث يتعدى هذا الخبر الوقائع أو الخبرات الحسية المعروفة ، وذلك بغرض زيادة الفهم أو التفسير . وبعبارة أخرى فإن الفرض العلمى هو أحسن « تخمين » أو « حرز » يتضمن ظرفاً لم يثبت عنه شيء بعد ولكنه يستحق البحث والاستقصاء . ويمكن كذلك التعبير عنه بأنه أحسن حل ممكن لمشكلة من المشاكل أو تفسير لحقيقة غير معروفة . فهو محاولة لوصف عنصر أو علاقة ، إذا وجد أنها صحيحة عن طريق الاستنتاج المنطقى ، فإن ذلك يمهّد الطرق لقيام تفسير معين أو نظرية معينة .

هذا التعريف يحدد معنى الفرض العلمى بحيث لا ينطبق لفظ « الفرض العلمى » على أى عبارة يقصد منها إيجاد حل لمشكلة . فمثلاً إذا كنا معنيين بتفسير رؤية الألوان ، يمكن أن نضع حلنا لهذه المشكلة فى العبارة الآتية : « إن الاستجابة للون مسألة وراثية » مثل هذه العبارة ليست فرضاً علمياً ذلك أنها لم تحدد - كما سبق أن بينا فى تعريف الفرض - ظرفاً خاصاً أو علاقة أو عنصراً يمكن أن نخضعه للتحقيق العلمى . أو بعبارة أخرى مثل هذه العبارة لا تقرر حلاً قابلاً للاختبار ، فهى لم تقم علاقة بين متغيرات . ولكن لفرض أننا وضعنا حل المشكلة كالآتى : « إن الاستجابة للون هى نتيجة لنشاط أنواع مختلف من المخروطات فى شبكية العين » . هذه العبارة تحدد ظروفاً معينة يمكن استقصاؤها . فهى تقوم على الحقيقة الواقعة وهى وجود مخروطات شبكية ، كما أنها تعبر عن تصورنا لوجود وظائف يمكن أن تقوم بها هذه الأعضاء .

(١) راجع الفصل الثانى .

ومعنى ذلك أن الفرض العلمى يجب أن يحتوى على متغيرات وعلاقات بين هذه المتغيرات. وجانب من هذه المتغيرات هو الظاهرة ذاتها التى نريد أن نفسرها، أما الجانب الآخر فهو العوامل التى نتصور أنها المسئولة عن هذه الظاهرة. وفى بعض المشكلات تكون هذه العوامل تصورية بحكم طبيعتها كما هو الحال فى تفسيرنا لحدوث الليل والنهار، فنحن لا ندرك دوران الأرض بشكل مباشر، ولكننا نتصور حدوثه. وفى بعض الأحيان تكون العوامل المسئولة من النوع الذى يمكن إخضاعه للإدراك المباشر كما هو الحال فى مثال إدراك الألوان السابق الذكر. أما العلاقات القائمة بين المتغيرات فهى دائماً متصورة. وعلى أى حال فإن الذى نريد أن نقرره هو أن الفرض لابد أن يحتوى على عنصر لم يسبق لنا أن أدركناه بحواسنا، عنصر تصورى يتعدى الخبرة الحسية المباشرة. ويتمثل هذا العنصر التصورى دائماً فى العلاقة التى يقيمها الفرض. كما أنه قد يتمثل فى بعض الأحيان - إلى جانب مثل هذه العلاقات - فى التكوينات الفرضية التى يستعين بها الفرض فى التفسير. وسيأتى الكلام على هذه التكوينات الفرضية بالتفصيل فيما بعد نظراً لأهميتها الخاصة فى علم النفس. ولكن لنأتى الآن بمثال بسيط لتوضيح هذا الكلام.

من الحقائق المعروفة مثلاً، أن العصيات الشبكية تختص بالإدراك البصرى غير اللونى. ومن المعروف أيضاً أن هذه العصيات تنشط عن طريق تغيرات كيميائية تحدث من تأثير الضوء فى مادة تسمى رودوبسين rhodopsine أو الأرجوانى البصرى، وتحيط هذه المادة إحاطة كاملة بالعصيات. والآن لنفرض أننا نريد أن نعرف كيف تنشط المخروطات البصرية (وهى المختصة بالإدراك اللونى). إن المنطق البسيط قد يجعلنا نفترض وجود مادة - مثل الأرجوانى البصرى - تحيط بالمخروطات ثم نكون بناء على ذلك الفرض الآتى: «تؤدى المخروطات الشبكية وظيفتها عن طريق تغيرات كيميائية تحدث فى مادة تحيط بها»^(١).

ففى هذا المثال يمكن أن نميز العناصر الآتية:

- ١ - رؤية الألوان (الظاهرة المراد تفسيرها) متغير تابع يخضع للملاحظة المباشرة
- ٢ - أن الإدراك اللونى وظيفة من وظائف المخروطات - علاقة (عنصر تصورى).

(١) هذا المثال مأخوذ من كتاب:

- ٣ - تغير كيميائى يحدث فى المادة السابقة - تكوين فرضى .
- ٤ - أن نشاط المخروطات يحدث نتيجة لهذا التغير الكيميائى - علاقة .
- ٥ - أن التغير الكيميائى يحدث نتيجة لتعرض العين للألوان - علاقة .

شروط الفرض العلمى :

ولكى يكون الفرض العلمى مفيداً فى التفسير ، أى لكى يؤدى الفرض العلمى وظيفته ، لابد أن يستوفى شروطاً معينة هى :

١ - أن يكون ممكن التحقيق بالخبرة الحسية إما بشكل مباشر أو عن طريق الاستدلال المنطقى . على أن معظم الفروض ذات القيمة العلمية لا يمكن تحقيقها بشكل مباشر ، وإنما يتم تحقيقها عن طريق استنتاج نتائج لازمة عنها ثم تحقيق تلك النتائج بشكل مباشر عن طريق الخبرة الحسية . فنحن لا نستطيع أن نحقق فرض الجاذبية مثلاً عن طريق الملاحظة الحسية المباشرة ، ولكننا يمكن أن نستنتج من ذلك الفرض نتائج يمكن إخضاعها للتحقيق التجريبى . فمثلاً الفرض بأن هناك جاذبية بين الشمس والريخ وأن هذه الجاذبية تتناسب تناسباً طردياً مع كتلتهما وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما ، هذا الفرض لا يمكن تحقيقه بالملاحظة المباشرة ، ولكن بالنتائج التى تترتب عليه ، فمثلاً يترتب على هذا الفرض أن مدار المريخ مدار يضاوى (اهليلكى) وأن الشمس تقع فى مركز هذا المدار ، وعلى ذلك نتوقع أن نرى المريخ بناء على هذا الفرض فى نقط معينة من مداره هذا فى أوقات معينة يمكن أن نحددها بعمليات حسابية . فإذا صحت هذه التوقعات المستنتجة من الفرض كان ذلك وسيلة غير مباشرة لتحقيق هذا الفرض .

ولذلك فإنه يجب أن تصاغ الفروض بطريقة تسمح لنا باستنتاج النتائج منها . وتتوقف درجة الدقة فى مثل هذه الصياغة على مدى ارتباط العناصر المختلفة التى يتكون منها الفرض بالواقع التجريبى . ومدى انطباقها على ذلك الواقع أو إشارتها إليه . فنحن لن نستطيع أن نخضع أى فرض للتحقيق إلا إذا صدقت حدوده على وقائع أو إجراءات تجريبية معينة أو كانت عباراته تسمح بعمل مثل هذه الإجراءات . فإذا قال بعضهم مثلاً : « إن الإيمان بالعناية الإلهية هو القوة الفعالة التى تجعل الحق يسود فى الحياة » . مثل هذا الفرض لا يمكن أن يوضع فى محك التحقيق التجريبى ، إلا إذا ترجمت كل كلمة فيه مرة أخرى بشكل يسمح لنا بالإجراءات التجريبية . فلابد أن نحدد معنى الإيمان بالعناية الإلهية ، والقوة الفعالة ،

والحق ، ويسود في الحياة . يجب أن يحدد كل هذه العبارات بصورة تجعلها تدل على واقع تجريبي معين ، أى تجعلها قابلة للملاحظة المباشرة والقياس .

وهناك بالطبع فروض لا تسمح بالمرّة بمثل ذلك التحقيق ذلك أن المفاهيم التي تستخدمها لا يمكن - بحكم طبيعتها - أن تخضع للملاحظة أو القياس . فإذا قال أحدهم مثلاً : « إن الآلهة تمسك بالنجوم فتدعها معلقة في الفضاء » . مثل هذا الفرض لا يمكن تحقيقه لأننا لا نملك من وسائل المشاهدة أو الملاحظة ما يمكننا من رؤية الآلهة . كما أن الفرض بهذا الوضع لا يسمح بأى استنتاج يساعدنا على التحقق من صدقه أو كذبه . ويمكن أن نضرب لهذه الفروض أمثلة عديدة يجد القارئ بعضها في الصفحات السابقة . فكل مثل من أمثلة التفكير غير العلمى جاء ذكره في الصفحات السابقة^(١) يصلح لأن يكون مثلاً للفروض التي لا يمكن تحقيقها .

وقد يظل الفرض صعب التحقيق أو حتى مستحيلاً لمدة طويلة ، ولكن ذلك لا ينفي عنه صفة الفرض العلمى ، فليس المهم هو تحقيق الفرض فعلاً ، بقدر ما هو إمكانية تحقيقه أى أن يتضمن في صياغته ، كما سبق أن أوضحنا ، الإجراءات أو النتائج التي تسمح لنا بتحقيقه تجريبياً . فمثلاً كان لابد أن يحدث كسوف كلى للشمس كنتيجة من النتائج التي يمكن على أساسها اختبار صحة النظرية النسبية ، ولكن هذا لم يمنع الفرض من أن يكون قابلاً للتحقيق .

٢ - أما الشرط الثانى من شروط الفرض العلمى فهو أن يمكننا من عملية التفسير بأقل عدد ممكن من المكونات الفرضية أى العناصر التي يفترض وجودها لتفسير ظاهرة معينة . ويسمى هذا الشرط « بقانون الاقتصاد »^(١) . وليس معنى الاقتصاد هنا التبسيط أو البساطة ولكن معناه الشمول أى أن يكون الفرض من الشمول بحيث يمكن أن تدرج تحته أكبر مجموعة ممكنة من الظواهر . ويتضح الفرق بين البساطة والشمول من المقارنة مثلاً بين نظرية اينشتاين ونظرية نيوتن ، فليس هناك من يقرر أن نظرية اينشتاين أبسط من نظرية نيوتن ، ولكنها مع ذلك تحقق قانون الاقتصاد أكثر مما تفعل نظرية نيوتن . كذلك تعتبر النظرية التي تفترض وجود دافع واحد للسلوك الإنسانى ، كاللذات الجنىسى أو المحافظة على الحياة أكثر بساطة من نظرية تتضمن في تفسيرها وجود عدة دوافع . ولكن ليس معنى ذلك أن نظرية تتضمن عدة دوافع في نظام موحد يفسر السلوك بأكمله ، لا تعتبر أكثر اقتصاداً من

(١) انظر الصفحات الأخيرة من الفصل الثانى

نظرية تفترض وجود دافع واحد . فنظرية السلوكية الحديثة مثلاً ، التي تفسر السلوك في مظاهره المختلفة على أساس عملية التعلم (وتفترض وجود أكثر من دافع واحد للسلوك) تعتبر أكثر اقتصادا من نظرية فرويد من وجهة النظر هذه .

وليس معنى الاقتصاد هو الشمول فحسب ، بل معناه أيضاً الاستغناء عن المكونات الفرضية التي لا تساعد على التفسير ، فإذا استطعنا أن نفسر عملية التفكير مثلاً بردها إلى عمليات كالاستدلال والقياس نستخلم في حل المشكلات ، كان من الإسراف في الفروض بعد ذلك أن نتبرع بافتراض وجود تكوين آخر نطلق عليه اسم العقل ليقوم إلى جانب هذه الاستجابات في تفسير عملية التفكير ، أو ليقوم هو بهذه العمليات ، وهكذا .

الفرض العلمي والنظرية :

يمكن أن نميز بين الفرض العلمي والنظرية ، بالرغم من أنهما قد يستخدمان بالتبادل في بعض الأحيان . فالفرض العلمي يشبه النظرية من حيث أنهما عملا تصورياً بطبيعته . ومن حيث أن أهدافهما الأساسية هي تفسير الظواهر أو الأحداث الطبيعية ، أما الفرق بينهما فإنه يقوم في درجة تعقد مجال الظواهر التي يراد تفسيرها أو في مدى اتساع هذا المجال . فالفروض العلمية أكثر تخصصاً أو أقل شمولاً من النظريات . أما النظريات فهي أعم . فالنظرية يمكن أن تشمل على عدة فروض علمية ، فإذا كانت هناك عدة مجالات للظواهر التي يراد تفسيرها ، وكانت هذه المجالات مرتبطة بعضها ببعض ، فإننا نحتاج إلى أكثر من فرض علمي لاستخدامها في تفسير هذه المجالات المتشابكة . ثم يحدث في العادة أن توضع هذه الفروض ذاتها في علاقات بعضها مع بعض داخل نظم أشمل هو ما نسميه بالنظرية .

فنظرية هيرنج Hering في إدراك الألوان تتضمن عدداً من الفروض العلمية . فقد افترض مثلاً وجود ثلاث عمليات في الشبكية تتضمنها خبرة الرؤية . عملية منها لإدراك الأحمر والأخضر والأخرى للأزرق والأصفر والثالثة للأسود والأبيض . وافترض كذلك وجود حالتين كيميائيتين في هذه العمليات ، الحالة الأولى سماها حالة البناء^(١) والحالة الثانية سماها حالة الهدم^(٢) . وافترض أيضاً أن حالة البناء هي التي ينتج عنها رؤية الأخضر والأزرق والأسود ، وحالة الهدم ينتج عنها رؤية الأحمر والأصفر والأبيض . ومن فروضه أيضاً أن الألوان المختلطة تنتج عن النشاط المتواقت لعمليتين أو ثلاث عمليات متضمنة في الرؤية

Anabolism

(١)

Catabolism

(٢)

إما في حالة المدم أو في حالة البناء . وجاء أيضاً بفروض أخرى لتفسير عمى الألوان والصور البعدية والخيرات الأخرى المتضمنة في الرؤية . وتكون كل هذه الفروض نظاماً متناسقاً متصلاً هو نظرية هيرنج في الألوان .

الفرض العلمي والقانون العلمي :

يختلف القانون العلمي عن كل من النظرية والفرض العلمي من حيث أن الأول قد مر بمراحل كافية من التحقيق التجريبي حتى أصبح ثابتاً نسبياً . على أن القانون العلمي لا يختلف عن النظرية والفرض العلمي من حيث أن وظيفته هي التفسير . وقبل أن يصل القانون العلمي إلى هذه الدرجة من التحقيق لا بد له أن يمر بمرحلة الفرض أو النظرية ، ويظل ثابتاً كقانون طالما أن الشواهد التجريبية تؤيده باستمرار وطالما أننا نستطيع على أساسه أن نتنبأ بالأحداث التي يفسرها . ولكن حتى في هذه الدرجة من الثبات فإنه قد يخضع للشك مرة أخرى إذا ما ظهر من الشواهد ما يتناقض معه ، وهنا يعود القانون إلى مرحلة الفرض الذي يحتاج إلى زيادة التحقيق ، أما إذا ظهر عدد كاف من الشواهد مناقض له ، فإنه يمكن في هذه الحالة التخلي عنه كلية .

الفرض العلمي والحقيقة :

كلمة الحقيقة مفهوم يستخدم بمعان مختلفة ، ولكن يمكن أن نقرر بوجه عام أن الحقيقة تميز أساساً ما ثبت انطباقه على الواقع . إما لأنه خبرة حسية مباشرة أو لأنه تفسير ثبت صحته بتجارب عدة . وهذان المعنيتان للحقيقة يجعلانها تختلف عن الفرض العلمي . فالمعرفة في صورتها الوصفية تأتي من دراسة الحقائق أي من دراسة خبراتنا الحسية المباشرة بالأشياء . أما المعرفة في صورتها التفسيرية فتأتي من تكوين الفروض التي تشمل على عناصر وعلاقات تصورية . ولكن بالرغم من أن هذه العبارة تعبر عن العلاقة بين الفرض والحقيقة (بالمعنى الأول) كوسيلتين للحصول على المعرفة إلا أنها تفشل في إظهار أن من الصعب في بعض الأحيان أن تميز بين الحقيقة بالمعنى (الثاني) وبين الفرض . فهناك أوقات تكون فيها محتويات الفرض قريبة جداً من الحقيقة كما أن هناك أوقات تكون فيها الحقيقة قريبة جداً من الفرض .

قضى بنهاية تكوين الفرض العلمي يحتوي الفرض على مكونات فرضية لا تخضع للخبرة الحسية المباشرة أو لا يوجد ما يؤيد صحة افتراضها . ولكن بعد أن يمر الفرض في مرحلة التحقيق فقد تثبتت الشواهد التجريبية صحته . وبذلك تؤيد وجود العلاقات والمكونات التي كانت إلى وقت قريب فرضية . وفي هذه الحالة تعتبر هذه المكونات وهذه العلاقات حقائق .

وهذا الانتقال من الفرض إلى الحقيقة لا يتم عادة عن طريق دراسة واحدة بل ربما يتطلب عدداً كبيراً من البحوث ومدة طويلة من الزمن . ومع ذلك فيمكن في أى وقت أن يتطرق الشك إلى صحة هذه العناصر ، التي قبلت كحقائق ، إذا ظهر من الشاهد ما يشير إلى عدم صحتها . وعلى ذلك فإن ما كان يعتبر حقيقة بالأمس قد يفقد هذه الصفة بعد ذلك . ومن ذلك يتضح أن الحقائق ربما تحولت إلى فروض كما أن الفروض قد تتحول إلى حقائق ، وأنه ليس هناك حداً فاصلاً بين الاثنين .

طرق تحقيق الفروض :

هناك طرق أو إجراءات تجريبية يمكن بها أن نتحقق مما إذا كان الفرض صحيحاً أم خاطئاً . وتسمى هذه الطرق بالطبع إلى الجانب الوضعي للعلم . ولكننا سوف نتعرض لها هنا حتى نستوفى جميع التقط التي تتعلق بالفرض العلمى . ويرجع الفضل في صياغة هذه الطرق إلى الفيلسوف الانجليزى جون ستوارت مل^(١) . وسنذكر هنا أهم هذه الطرق :

طريقة الاتفاق أو التلازم في الوقوع :

وتنص طريقة الاتفاق على أنه لو وجد مثلاً أو أكثر من أمثلة الظاهرة التي نبحثها ، لا تشترك إلا في جانب واحد ، كان هذا الجانب الذى تشترك فيه وحدة جميع الأمثلة هو سبب الظاهرة التي نبحثها .

فإذا ظهر وباء أو إصابة عامة في بلد مثلاً نبحث عن ظروف مشتركة بين جميع الذين أصيبوا بهذه الإصابة أو الوباء ، كاشتراكهم في تناول طعام معين مثلاً أو شربهم من شراب واحد أو غير ذلك من علل محتملة . فإذا وجد أنهم شربوا جميعاً السوييا مثلاً أو أكلوا جميعاً فطائر معينة ، كان هذا الأمر الذى تتفق فيه جميع الأمثلة علة لهذه الظاهرة في رأى هذه الطريقة .

على أن هذه الطريقة بادية القصور ، ذلك أن الظرف الذى يلزم الظاهرة وقوعاً ليس من الضروري أن يكون ظرفاً سببياً للظاهرة . فوجوده باستمرار في حالات حدوث الظاهرة لا يعنى أنه لا يوجد في الحالات التي لا تحدث فيها الظاهرة ، فإذا فرض وأن أصيب أحدهم بصدا عفيف لمدة ثلاث ليال متوالية ، فأصيب به في الليلة الأولى بعد أن قرأ عشر ساعات ثم

John Stewart Mill: A System of Logic, Vol. I, Chapt. 8 and 9.

(١)

تمشى قليلاً ، ثم أصيب به في الليلة الثانية بعد أن تعشى عشاء دسماً ثم تمشى قليلاً وأصيب به في الليلة الثالثة بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر ثم تمشى قليلاً . فالعامل المشترك هنا هو المشى . وتبعاً لطريقة الاتفاق قد يظن هذا الشخص أن المشى هو السبب في الصداع ، مع أنه لا توجد علاقة بين المشى والصداع . وإذا كنا ندرس الجناح مثلاً ، فقد نجد في عينة ممثلة من الجانحين صفة ملازمة ، وهى أنهم يأتون من طبقات فقيرة . وبذلك قد نصل خطأً إلى أن الفقر سبب من أسباب الجناح .

والسبب في هذا القصور الواضح في طريقة الاتفاق أننا قد نحطئ في تحليل عناصر الموقف الذى نبحثه فنغفل عن عنصر موجود فعلاً ، وبذلك نخرجه من حسابنا مع أنه قد يكون ذا علاقة سببية بما نحن بصدد بحثه . ففى المثال الأول مثلاً قد يغفل الشخص المصاب بالصداع عن عامل مثل وجود اضطراب في معدته وفي المثال الثانى قد يغفل عن عامل مثل الاتجاهات الوالدية في التشقة الاجتماعية . على أننا لا نستطيع أن نتأكد من صحة مثل هذه الفروض إلا إذا حصلنا على أمثلة أخرى تتخلف فيها الظاهرة ويتخلف في الوقت نفسه العامل الذى نقرحه كظرف مسبب لحدوثها .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لطريقة الاتفاق ، فما هى قيمتها إذن ؟ إن قيمة طريقة الاتفاق هى أننا يمكن أن نستبعد على أساسها بعض الفروض . فالعامل الذى لا يلزم الظاهرة حدوثاً لا يمكن اعتباره عاملاً مسئولاً عن حدوث الظاهرة . على أنه لا يتم تحققنا للفرض إلا باستخلام طريقة أخرى مع طريقة الاتفاق هى طريقة الاختلاف .

طريقة الاختلاف أو التلازم في التخلف :

هى عكس طريقة الاتفاق ، فمؤداها أنه إذا وجدت حالة واحدة تظهر فيها الظاهرة امراد بحثها وحالة أخرى لا تظهر فيها تلك الظاهرة ، وكانت الحالتان متفتحتين في كل شيء إلا جانباً واحداً فقط . يظهر في الحالة الأولى التى تحدث فيها الظاهرة ولا يظهر في الحالة الثانية التى لا تحدث فيها الظاهرة كان هذا الجانب الذى تختلف فيه الحالتان هى السبب أو جزء من السبب المسئول عن حدث الظاهرة .

وتعتمد هذه الطريقة على أن غياب « العلة » يؤدي إلى غياب « المعلوم » فإذا فرض وأن لاحظ أحد القراء مثلاً أنه أمضى ليلة أمس مسهداً ، في حين أنه قد نام في أمس الأول نوماً عميقاً ، وأنه في الوقت نفسه قد شرب القهوة أمس في حين أنه لم يشرب القهوة في أمس الأول ، فإنه قد يظن أن شرب القهوة هو المسئول عن عدم نومه .

على أن هناك قصوراً واضحاً في هذه الطريقة أيضاً يشبه القصور البادى في الطريقة السابقة . وهى أننا قد نغفل عن عنصر أخرى هامة في الموقف مما قد يكون له الأثر الحقيقى في حدوث الظاهرة . فقد لا يكون لشرب القهوة أثر في عدم نوم ذلك الشخص ، بل يكون أرقه نتيجة لإنشغاله بموضوع ما أو لسوء هضم أصابه أو غير ذلك . ولا يمكن أن نتكهن بذلك إلا باستقصاء جميع الحالات التى يشرب فيها القهوة ، لنرى ما إذا كان يتلزم معها الأرق أم لا . وبمعنى آخر فإن هذه الطريقة وحدها أيضاً ليست كافية لتحقيق الفرض العلمى . وتقتصر قيمتها - كما هو الحال في الطريقة السابقة - على أنها طريقة لاستبعاد عامل أو أكثر لا يستوفى الشروط الأساسية لما يمكن أن يكون سبباً . وكأن هذه الطريقة تقول : «لا يمكن أن يعتبر سبباً لظاهرة أى عامل لا يتخلف في الوقت الذى تتخلف فيه الظاهرة» .

الجمع بين طريقة الاتفاق وطريقة الاختلاف :

لذلك كله يجمع بين طريقتى الاتفاق والاختلاف معا . والمنطق في ذلك أن الظروف المسئولة عن حدوث الظاهرة هى ما توجد إذا وجدت الظاهرة ، وما تتخلف إذا تخلفت الظاهرة . وقد صاغ «مل» هذه الطريقة في العبارات الآتية : « إذا وجدت حالتان (أو عدة حالات) تظهر فيها ظاهرة ما ، وتشارك هاتان الحالتان (أو الحالات) في شيء دون سواه ، وكان هناك حالتان أخريان (أو حالات أخرى) لا تظهر فيها هذه الظاهرة ولا تتفقان إلا في غياب الشيء الذى وجد في الحالتين الأوليين (أو الحالات الأولى) استنتجنا أن الشيء الذى تختلف فيه هاتان المجموعتان من الحالات وهو الذى وجد في الحالتين الأوليين وتختلف في الحالتين الأخريين ، هو المعلول أو العلة للظاهرة أو جزء ضرورى منها » .

وسوف نورد فيما يأتى مثلاً عملياً حقيقياً ذكره كلود برنارد في كتابه « الطب التجريبي »^(١) . لتطبيق هذه الطريقة : « تلقيت يوماً في معملى أرانب واردة من السوق فوضعتها على منضدة حيث بالت ، ولاحظت أن البول كان صافياً حامضاً فاندعشت للأمر لأن بول الأرانب يكون في العادة عكراً قلوياً ، إذ أن الأرانب من أكلة الأعشاب ، في حين يكون البول في أكلة اللحوم ، كما هو معلوم ، صافياً حامضاً . فأدنى ما لاحظته من حموضة البول لدى الأرانب إلى الاعتقاد بأن هذه الحيوانات لا بد أن تكون في نفس الحالة الغذائية التى تكون عليها أكلة اللحوم . فظننت أنها ربما لا تأكل منذ زمن طويل ، وأن الصيام قد حوّلها إلى أكلة لحوم حقيقية تتغذى من دمها هى . وكان من السهل جداً التحقق تجريبياً

(١) الترجمة العربية للدكتور يوسف مراد والأستاذ حمد الله سلطان ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

من صحة هذه الفكرة السابق تصورها أو من صحة هذا الفرض . فقدمت العشب للأرانب فأكلته . ولاحظت بعد بضع ساعات أن البول عكراً قلوياً ، ثم حبست الطعام عن هذه الأرانب عينا ، فلاحظت بعد مضي أربع وعشرين ساعة أو ست وثلاثين ساعة على أكثر تقدير ، أن البول قد أصبح من جديد صافياً وشديد الحموضة ، ثم عاد البول قلوياً بعد أن أطعمت الأرانب عشباً وهكذا دواليك . فأعدت هذه التجربة البسيطة عدة مرات على الأرانب ، وكانت هذه النتيجة دائماً هي . ثم أجريتها على الفرس وهو من أكلة الأعشاب وبوله أيضاً عكر وقلوى ، فوجدت أن الصيام يحدث فيه ، كما يحدث في الأرانب ، حموضة سريعة في البول وزيادة كبيرة في نسبة البولينا في البول إلى حد يحدث عنه تلقائياً تبلور البولينا في البول المبرد . وكانت نتيجة تجاربي هذه ، الحكم الذي لم يكن معروفاً من قبل ، وهو أن جميع الحيوانات الصائمة تتغذى باللحم بحيث يكون بول أكلة الأعشاب شبيهاً ببول أكلة اللحوم .

ونحن هنا بصدد واقعة جزئية بسيطة جداً تسمح لنا بأن نتبع بسهولة تطور الاستدلال التجريبي . فعندما نشاهد ظاهرة لم نألف رؤيتها من قبل يجب دائماً أن نتساءل عن مرجعها أو بعبارة أخرى عن علتها القريبة . وفي هذه اللحظة قد يلوح في البال الجواب أو الفكرة التي يجب إخضاعها للتجريب . فعندما لاحظت حموضة البول لدى الأرانب ، دفعت دفعاً إلى أن أتساءل عن علة هذا الأمر .

وقد كانت الفكرة التجريبية عبارة عما قمت به تلقائياً من عملية الربط بين حموضة البول لدى الأرانب وحالة الصيام التي اعتبرها بمثابة تغذية حقيقية لدى أكلة اللحوم . أما الاستدلال الاستقرائي الذي قمت به بطريقة ضمنية فإنه يرجع إلى القياس الآتي :

بول أكلة اللحوم حامض ، وبول الأرانب التي ألاحظها حامض ، فالأرانب إذن من أكلة اللحوم أي أنها في حالة صيام ، وهذا ما يجب إثباته عن طريق التجربة .

ولكى أبرهن على أن الأرانب الصائمة فعلاً من أكلة اللحوم ، كان من الضروري القيام بتجربة عكسية ، وهي اصطناع التجربة لتحويل أرانب إلى حيوان يأكل اللحم ، وذلك بإطعامه لحماً ، لكي نرى هل يصبح بوله صافياً حامضاً ومحتوياً على نسبة أكبر من البولينا كما يحدث في حالة الصيام ؟ وتحقيقاً لهذا الفرض أطعمت الأرانب لحم بقر مسلوقاً بارداً وكانت تقبل على أكله إذا لم تقدم لها أى شيء آخر . وتحقيق فرضي هذه المرة أيضاً فكان بول الأرانب طوال مدة التغذية الحيوانية صافياً حامضاً .

وتكملة لهذه التجربة قمت بتشريح هذه الحيوانات لأعرف هل يحدث هضم اللحم في

ارنب كما يحدث في أكلة اللحوم . فوجدت فعلاً أن جميع الظواهر الدالة على حدوث هضم جيد جداً كانت ممثلة في التفاعلات المعوية وأن جميع الأوعية اللبنة كانت ممثلة كيلوساً غزيراً جداً أبيض شبيهاً باللبن كما هو في أكلة اللحوم . غير أني ، بمناسبة هذه التشریحات التي أثبتت آرائی في هضم اللحم لدى الأرانب وقفت على حادث لم أكن أفكر فيه من قبل . وقد أتاح لي هذا الحادث فرصة الشروع في بحث جديد .

وهذه الطريقة التي تجمع بين طريقتي التلازم في الوقوع والتلازم في التخلف هي التي نستخدمها في علم النفس مثلاً عندما نحصل على مجموعتين متساويتين من جميع الوجوه ما عدا عامل واحد هو الذي نفترضه مسئولاً عن الظاهرة ثم نرى ما إذا كانت الظاهرة تلازمه وقوعاً وتخلفاً أم لا . فإذا كان الأمر كذلك كان الفرض صحيحاً .

فإذا افترضنا مثلاً أن طريقة التدريب لها أثر في انتقاله ، أي أن انتقال أثر التدريب تعتمد على الطريقة نفسها التي يحدث بها التدريب ، فإننا نأتي بمجموعتين متساويتين من حيث السن والذكاء والمعلومات السابقة عن موضوع التدريب وجميع العوامل الأخرى ، ما عدا الطريقة التي يعطون بها تدريباً في نوع معين من الأمور (حل مسائل هندسية مثلاً) ، فتعطى إحدى المجموعتين التدريب بطريقة معينة (نفترض أنها أجدى) وتعطى المجموعة الثانية التدريب بطريقة أخرى (نفترض أنها أقل جدوى) ثم نختبر المجموعتين بعد ذلك في مسائل مماثلة ، لاختبار مدى انتقال أثر التدريب . فإذا حصلت المجموعة الأولى على درجات أعلى كان الفرض صحيحاً . إذ أن معنى ذلك أن انتقال أثر التدريب وجد حيث وجد العامل (الطريقة الأجدى) وتخلف حيث تخلف العامل (في المجموعة الأخرى) وتسمى المجموعة الأولى في هذه الحالة بالمجموعة التجريبية والمجموعة الثانية بالمجموعة الضابطة .

طريقة التغير النسبي :

إن طريقتي الاتفاق أو الاختلاف أو هما معاً يهدفان إلى اكتشاف التلازم القائم بين الظروف السببية وبين الظواهر ، دون تحديد للدرجة ذلك التلازم بطريقة كمية . ولكن العلم قد يتجاوز البحث في مثل هذا الاتصال بين الحوادث « عللاً » و « معلولات » ويرمى إلى أبعد من ذلك ، إلى معرفة العلاقة بين المتغيرات معرفة كمية دقيقة . فالطرق السابقة طرق وصفية حيث أن استخدامها يقودنا إلى معرفة وجود أو غياب صفة أو متغير ما ، ولكن الطريقة الحالية توصلنا إلى معرفة بالعلاقة الكمية ، وهي غاية العلم ، فالفروض أن كل تغير يطرأ على الظروف « السببية » أو المتغير المستقل يقتضى تغييراً مقابلاً في الظاهرة أو المتغير

التابع ويهدف البحث العلمى إلى معرفة هذا التغير معرفة رياضية محددة . وقد عبر مل عن هذه الطريقة بالقانون التالى

إذا تغيرت ظاهرة ما وكان التغير مصحوباً بتغير فى ظاهرة أخرى على نحو محدد كانت تلك الظاهرة الثانية علة أو معلولة لها أو مقترنة بها اقتراناً عالياً على نحو ما .

على أننا نجب أن نتذكر أنه ليس معنى وجود ارتباط فى التغير بين ظاهرتين أن الأولى هى السبب للثانية أو هى نتيجتها . فقد يكون الارتباط عرضياً محضاً . فإذا فرض وأن كان هناك ارتباط بين تغير درجة الحرارة فى مدينة القاهرة خلال عام وبين نسبة الوفاة اليومية فى مدينة بكين ، فهل معنى هذا أن الأولى هى السبب فى الثانية أو هى نتيجتها ؟ بالطبع لا . بل حتى إذا لم تكن الحالة تمثل ارتباطاً جاء عن طريق الصدفة ، حتى إذا كان هناك تغير مضطرب بين ظاهرتين مثلاً ، فإن ذلك لا يدل بالمرّة على وجود علاقة سببية بين الظاهرتين ، فليست هناك أى علاقة سببية بين مقياس الحذاء والعمر العقلى للفرد طبعاً . ولكن هذه العلاقة مرتبة بشكل عرضى على ارتباط كل من الظاهرتين بعامل آخر هو عامل السن . فمن المعروف أنه كلما كبر عمر الشخص الزمنى كبر معه مقياس حذائه وكبر كذلك عمره العقلى .

وعلى ذلك فلا بد أن نبحث بالتحليل العقلى المنطقى عن الظروف المسئولة عن الظاهرة ولا يجوز إطلاقاً أن نعتمد على معامل الارتباط (وهو الطريقة الإحصائية التى تستخدم لاكتشاف علاقة التغير النسبى)^(١) لتفسير ظاهرة بأخرى اعتبار أنها سببها أو علتها أو حتى الظروف المستقلة المسئولة عنها . وهذا الخطأ شائع جداً فى علم النفس . فقد نجد مثلاً أن هناك ارتباطاً بين السمنة والميل إلى المرح . ولكن هذا لا يعنى أن التكوين الجسمى هو « السبب » فى « سمة » أو « مزاج » المرح ، إذ يمكن تفسير ذلك مثلاً بأن الشخص السمين تعوقه ظروفه الجسمية من نواح عدة ، عن التفوق أو التميز على أقرانه فى مواقف المنافسة . فيتخذ من المرح وسيلة للدفاع عن ذاته فى مجتمع يسوده ويتحكم فيه التنافس إلى حد كبير .

وكذلك يفسر الارتباط الموجود بين الأداء فى اختبارات الذكاء والأداء فى المواد الدراسية بأن « الذكاء » « سبب » من أسباب النجاح أو التفوق فى التحصيل المدرسى . والواقع أننا إذا أردنا أن نفسر الارتباط الموجود بين كلا النوعين من الأداء علينا أن نرجع إلى ظروف أو خبرات مستقلة عن كل منهما .

(١) انظر كتابى : نؤاد البهى السيد ، والسيد محمد خيرى ، السابق الذكر .

فطريقة التغير النسبى إذن ، كما تعبر عنها معاملات الارتباط الموجودة بين الظواهر المختلفة ، لا تكفى وحدها كطريقة للتفسير إذ أن الارتباطات المكتشفة لا تعطينا أسباباً للظواهر ولكنها توحى إلينا بالبحث عن « الأسباب » . ذلك البحث الذى يقوم أساساً على التحليل العقلى المنطقى للظروف والعوامل المتعددة المحيطة بالظاهرة .

الفصل الخامس خصائص النظرية العلمية وبعض المميزات الأخرى للعلم

نخس بنا بعد هذا الاستعراض السريع الذى قمنا به فى الفصل السابق لنواحى العلم المختلفة ، أن ننظر مرة أخرى إلى العلم بوجه عام والنظرية العلمية بوجه خاص ، لنبين بعض الملامح الأخرى التى تميزه عن غيره من أساليب التفكير المختلفة .

إن العلم أولاً وقبل كل شئ مجموعة من الاتجاهات . إنه فى الواقع طريقة لمعالجة الحقائق أكثر من أن يكون مجرد تأثر بما يقوله بعضهم عن هذه الحقائق . فقد كانت سمة عصر النهضة وازدهار العلم ، هى إنكار التسليم تسليماً أعمى لكل ما جاء على لسان السلطات الموجودة حيثئذ سواء كانت هذه السلطات تتمثل فى فلاسفة العصور القديم أم فى رجال الكنيسة فى العصور الوسطى . بل إن العلم لينكر سلطاته هو إذا تدخلت هذه السلطات وأخلت بمقتضيات البحث الموضوعى فى « الطبيعة » نفسها فنحن لا نصدق العالم لأنه وقور أشيب الشعر طويل اللحية وضع على عينيه نظارة ذات إطار ذهبى ، بل نصدقه إذا ما عرفنا أنه أتبع فى بحثه طريقة معينة وعالج الحقائق باتجاه علمى صرف

ويتميز الاتجاه العلمى بأنه استعداد لتقبل الحقائق حتى ولو جاءت مخالفة لرغباتنا وآرائنا الشخصية . ولا شك أن المفكرين قديماً قد لاحظوا أننا قد ندرك الأشياء كما نريدها بدلاً من أن ندركها كما هى عليه فى الواقع إلا أن الفضل الأكبر فى توضيح هذه الحقيقة كان لماركس الذى جعلنا أكثر وعياً بما قد يؤثر فى إدراكنا من رغبات ذاتية وما قد يجعل من تفكيرنا مجرد إشباع لدوافع شخصية . وعكس التفكير الذاتى هو التفكير الموضوعى الأمين ، وهو أهم ما يتحلى به العالم الحق . وليس العالم بطبعه أكثر أمانة من غيره من الناس ، ولكن الاشتغال بالعلم - كما قال برديجان - يضع على كاهل العالم مهمة شاقة ، وهى التزام الأمانة إلى أقصى حد ، وإلا كانت النتيجة غير سارة بالنسبة للعالم نفسه ، وبالنسبة لموضوع العلم . ولنتصور مثلاً أن عالماً ما يقوم ببحث ليختبر صحة نظرية من النظريات التى تتفق ووجهة

نظرة هو . سوف يخرج هذا العالم بنتائج معينة من بحثه هذا . وقد نجيء هذه النتائج إما مؤيدة لوجهة نظره أو معارضة لها أو تاركة إياه في حالة من الشك يحتاج معها إلى مزيد من البحث . فإذا ما جاءت النتائج معارضة لوجهة نظره تحتم على العالم في هذه الحالة أن يقرر ذلك بنفس الدرجة من الوضوح ومن الاستعداد الذي يقرر به النتائج إذا ما جاءت مؤيدة لوجهة نظره . وباختصار فإن العالم يجب أن يكون مستعداً للذكر الحقائق كما هي حتى ولو جاءت معارضة لآرائه السابقة . وإذا لم يفعل ذلك فسوف يفعله آخرون غيره إن عاجلاً أو آجلاً . وسوف يؤثر ذلك بالطبع في مكانته وفي كرامته أكثر مما يؤثر فيها ذكره للحقيقة بصرف النظر عن آرائه هو .

ولا يجب أن يكون العالم مستعداً للإجابة دائماً ، سواء بالنفي أو بالإيجاب . بل إن هناك حالات يجب أن يتوقف فيها العالم عن الحكم حتى يمكنه أن يحصل على إجابة شافية . والتوقف عن الحكم ليس أمراً سهلاً إذ من العسير جداً على الإنسان أن يعترف بجهله . ولكن العلماء اكتشفوا مع ذلك قيمة أن يظل الواحد منهم مترقباً للإجابة غير قادر على الإفتاء فترة من الزمان ، حتى يحصل على إجابة يطمئن إليها . ولاشك أن هذا الاتجاه يحتاج تكوينه إلى مجهود كبير وشاق . ذلك أن تجنب الوصول إلى نتائج سريعة فجة ، والخلل من إقامة أحكام على غير أساس كاف من الشواهد الواقعية ، وتجنب عمل التفسيرات التي هي في الواقع مجرد ابتلاع من الخيال ، كل ذلك يحتاج إلى تدريب طويل وإعداد خاص .

والعلم إلى جانب أنه مجموعة من الاتجاهات ، فإنه يتضمن أيضاً البحث عن النظم في هذا الكون ، أي البحث عن العلاقات بين الظواهر كما سبق أن بينا . وهو يبدأ بملاحظة الأحداث الفردية ، ثم ينتهي إلى التعميمات والقوانين الكلية . وإن سلوكنا في مرحلة مبكرة من حياتنا يتضمن استخدام قواعد أشبه بالقوانين العلمية . فنحن في مرحلة مبكرة نتعلم القوانين الهندسية للمكان الذي نتحرك فيه ؛ كذلك نتعلم قوانين الحركة في أثناء تحركنا وفي أثناء جذبنا أو دفعنا أو قذفنا أو التقاطنا للأشياء التي حولنا . فإذا لم نستطع أن نجد تناسقاً أو اضطراباً أو نظاماً في العالم الذي نعيش فيه لظل سلوكنا عشوائياً غير متكافئ مع الأحداث التي تحدث حولنا . والعلم هو الذي يكمل هذه الخبرات الذاتية وينمها باكتشافه للعلاقات وتحديدتها بشكل أدق فأدق فأدق .

ويتقدم العلم من مجموعة من القواعد أو المبادئ إلى تنظيمات أكبر فأ أكبر . ويسمى التنظيم الذي يشمل عدة قوانين في علاقات بعضها مع بعض بالنظرية العلمية . فالعلم لا يقتصر على مجرد جمع المبادئ الفردية بل يضع هذه المبادئ ذاتها في علاقات مع بعضها البعض حتى يصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه من التجريد والشمول .

ويجب أن نؤكد هنا أنه ليست هناك نظرية نهائية ، كما أنه ليس هناك قانون نهائى فى العلم . أو بمعنى آخر فإن النظرية وسيلة وغاية فى نفس الوقت . هى وسيلة للتفسير وهى غاية نريد أن نصل إليها لنكون أقدر على السيطرة على العالم المحيط . فإذا ما وجدنا أن النظرية قاصرة عن أن نحقق لنا كل ما نرجوه منها ، كانت غايتنا هى الوصول إلى نظرية أخرى أنفع لنا من النظرية الأولى وهكذا . فالنظرية إذن ليست شيئاً نهائياً . كما أنها ليست غاية فى ذاتها ذلك أن العلم باستمرار يسعى إلى زيادة الإيضاح للعلاقات المختلفة الموجودة فى هذا الكون كما يسعى إلى زيادة تحسین وسائله فى التفسير سواء من حيث الدقة أم من حيث الشمول . وتتوقف المسألة جميعها على مقدار أداء النظرية للوظيفة المتوقعة منها ، أى مقدار شمولها ومقدار دقتها فى تفسير الواقع . وإن أحسن مثل لذلك التطور فى النظريات هو ما حدث فى علم الطبيعة فى نهاية القرن الماضى . ذلك أن نظرية نيوتن فى الميكانيكا قد أعيد تقييمها كنتيجة لنشوء النظرية النسبية لأينشتين .

والخطر فى اعتبار النظرية غاية فى ذاتها ، هو أن تتمسك بها وندافع عنها حتى لو ظهر من النظريات ما يبنى عنها أو يحل محلها ، ويكون انفع منها فى تأدية وظيفتها . وبذلك ننسى أن النظرية ما هى إلا وسيلة للتفسير ونجمد عند النقطة التى تطور التفسير إليها ، حتى ولو ظهر ما يؤدى هذه المهمة بطريقة أحسن . وهذا الموقف هو ما ظل عليه علم النفس حتى وقت قريب جداً ، بل نستطيع أن نقول حتى الآن ، إلا باستثناء نفر قليل من العلماء . ذلك أن التحزب للنظريات قد عاق الوصول إلى تفسير عام واحد للظواهر النفسية . وكان من الممكن الوصول إلى حل أسرع للمشكلات النظرية التى اعترضت علم النفس لو أن واضعى النظريات كانوا قد أدركوا هذه الحقيقة أو اتخذوا هذا الاتجاه ولم يتمسكوا بنظرياتهم على أنها أشياء نهائية .

ومعنى ذلك أن صحة النظرية مسألة نسبية محضة . بمعنى أنه ليست هناك نظرية « صحيحة » ونظرية « خاطئة » فى ذاتها . أو بمعنى آخر ليس هناك من النظريات ما يمثل « الحقيقة » وما لا يمثلها . إذ أن معنى ذلك أننا نعتبر أن النظريات شئ متعال أو متسام فوق الأفق الذى ترسمه لنا الملاحظة المباشرة والاستنتاج المنطقى ، بدلا من أن نعتبر أن النظريات ما هى إلا وسيلة للتفسير ، وأننا فى وضعنا للنظريات مقيدون بما تنقله إلينا الحواس ، وما تؤدى بنا إليه قدرتنا على الاستنتاج المنطقى . ووجهة النظر هذه نابعة طبعاً مما يسمى بالفلسفة الوضعية التى تعتبر - كما سبق أن بينا - أن جميع المشكلات المتعلقة « بالحقيقة القصوى » إنما هى مشكلات ميتافيزيقية لا تنتمى إلى العلم بأى حال من الأحوال . وأن النظريات هى من صنع الإنسان وليست صورة لما هو موجود بالفعل أو لما هو « موجود فى ذاته » . ذلك أن

هذا « الموجود في ذاته » لا وجود له في نظر الفيلسوف الوضعي ، الذي لا بد للعالم أو واضح النظرية العلمية أن يتخذ فلسفته هذه أساساً لتفكيره .

ويترتب على هذا الموقف أن يصبح في إمكاننا أن نقارن بين نظريات مختلفة أو تفسيرات مختلفة ، مقارنة علمية على أساس مدى صحة ما تؤدي إليه هذه النظريات من تنبؤات . فقيمة النظرية تتحدد بالاختبار التجريبي أي بوضعها في عكس الاختبار العملي وليس عبر طريق البرهان الجدلي . ذلك أن من أهم الصفات المميزة للنظرية العلمية أن صحتها لا تتوقف في النهاية على مقدار ما تستند إليه من قوة البرهان الجدلي ، بقدر ما تتوقف على البرهان العملي التجريبي . حقاً إن البرهان الجدلي والنظرية العلمية يشتركان في أن كل منهما ذا طبيعة شكلية (صورية) أو قياسية . ففي كل منهما لا بد أولاً أن نحدد مصطلحاتنا وأن نحدد مسلماتنا أو مبادئنا الأولية ثم نستخلص في كل حالة النتائج التي تترتب على هذه المقدمات بطريقة منطقية . ولكن بالرغم من هذا التشابه السطحي بين البرهان الجدلي والنظرية العلمية ، إلا أنهما يختلفان اختلافاً أساسياً في طبيعتهما الجوهرية ؛ حتى إنه ليعتبر خطأ جسيماً أن نخلط بينهما . ولكي نحدد بشكل أوضح الفرق بين كل من النظرية العلمية والبرهان الجدلي (الصوري) يصبح أن نوضح أهداف كل منهما .

إن الهدف الأول من البرهان الجدلي هو الإقناع . بمعنى أن شخصاً ما في هذه الحالة يضع نصب عينيه أن يسعى عن وعى وعن قصد واضح إلى التأثير أو الضغط على شخص آخر عن طريق عملية استدلالية . ففي البرهان الجدلي إذن هناك نوع من العنوان الاجتماعي ، أو بمعنى آخر هناك شخص مؤيد وشخص معارض . ويبدو في الظاهر أن هدف المؤيد هو أن يجعل المعارض يسلم بقضية معينة على درجة ما من التجريد . ولكن الغرض النهائي المستتر وراء هذا غالباً ، هو أن يدفع المؤيد المعارض إلى اتخاذ قرار عملي في مصلحة الأول أو في مصلحة مجموعة معينة ينتمى هو (المؤيد) إليها . والقضية التي يتمثل فيها هدف المؤيد في هذه الحالة لا يمكن بطبيعتها أن تثبت عن طريق الملاحظة المباشرة . وإلا لما كان هناك مجال لكل ذلك المجهود الذي يبذل في البرهان الجدلي . والمعارض لم يكن أيضاً يستطيع إخضاع القضية لمثل هذه الملاحظة وإلا كان هناك مجال لإقناعه .

وبمعنى آخر فإن النتيجة النهائية التي يريد المؤيد أن يصل إليها ليست بطبيعة الحال من النوع الذي يمكن إخضاعه للملاحظة المباشرة ، ولذلك كان لا بد له من أن يستند في إقناعه على مقدمات يسلم المعارض مبدئياً بوجاهتها أو يكون مقتنعاً بها بشكل أو بآخر ، ثم يتطرق المؤيد من هذه المقدمات عن طريق الاستدلال المنطقي الصوري إلى النتيجة التي يريد أن يقنع بها المعارض أو المستمع . وبذلك ينقل تأييده أو اقتناعه من المقدمات إلى النتيجة . مثل هذا

المهج هو . يعتمد عليه الفلاسفة و الإعتناء ذلك أن قضاياها ليست من النوع الذى يحذر إخضاعه للملاحظة المباشرة . حد مثلاً برهان أرسطو على « العلة الأولى أو علة العلل » فهو يبدأ من أن لكل معلول علة وما دم لا يحسن أن نتصور تسلسل العلل إلى ما لا نهاية . لذلك كان لابد أن تنتهى إلى علة أولى هي العلة المحركة وهي الغاية التى يسير إليها الوجود . فالنتيجة هنا ليست من النوع الذى يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة ، لذلك فهو يعتمد في برهانه على مقدمات يسلم بها المستمع أولاً ، ثم يتطرق من هذه المقدمات عن طريق الاستدلال المنطقي إلى النتيجة التى يريد إقناعه بها .

ومن ناحية أخرى فإن الهدف الأول للنظرية العلمية هو الوصول إلى قوانين أو مبادئ علمية ثابتة (نسبياً) . ففي حين أن الجدل يكون موجهاً نحو التغلب على الأفراد أو التغلب على شخص آخر ، نجد أن النظرية العلمية تكون موجهة نحو التغلب على الطبيعة ، نحو إيجاد حلول للمشكلات الطبيعية ، مستخدمة المنطق كأداة للتفكير بالنسبة للعالم نفسه ، باعتبار أنه أحسن وسيلة لفهم الأحداث الطبيعية . فلو أن نيوتن مثلاً كان - وهو على ما كان عليه من تفكير - منقطعاً عن كل اتصال بأفراد المجتمع الآخرين لاتباع نفس الخطوات المنطقية التى اتبعها لكي يصل إلى تفسير حركة الأجسام كما فعل ، إذا فرض وأن كان هناك ما يدفعه هو نفسه لأن يفهم هذه المشكلة

وفي الجدل يفترض المؤيد مقدماً أن حل المشكلة بخلافه في متناول يده . وهو لذلك يكون مبالغاً في ثقته بنفسه ، عدوانياً ، لا يرحمه عن عقيدته شيء . أما في حالة البرهان العلمى ، فسواء من الناحية النظرية أم من الناحية الوضعية ، نجد أن العالم يوجه نشاطه بتواضع وبثؤدة وخطوة بخطوة نحو تحقيق القضية العلمية . وباختصار فإن النظرية العلمية عبارة عن خطة أو طريقة للبحث . ذلك البحث الذى نستقرئ الإجابة على مشكلاته من الطبيعة ذاتها . وإذا كان يعتمد على البرهان المنطقي فهو يبدأ من المشاهد ولا يمكن أن يبدأ من مجرد قضايا لفظية كذلك التى تعتمد عليها الميتافيزيقا أو البراهين الفلسفية الميتافيزيقية . وهناك فرق هائل بين البرهان الفلسفى الذى يعتمد على « قضايا واضحة بذاتها » ، وبين البرهان العلمى الذى يعتمد على المحسوس . ففي حالة البرهان الميتافيزيقي تكون المقدمات من النوع « الأولى » أو « الواضح بذاته » ، الذى لا يستند إلى واقع ولا يقبل الجدل بطبيعته . ولعل هذا أثراً من آثار إقليدس الذى كان يعتقد أن مبادئه « حقائق واضحة بذاتها » . ولقد حطم هذه الفلسفة رياضيو ومناطق العصر الحديث ، الذى أنكروا البدهة أو الواضوح بذاته كمنهج للحقيقة . وعلى هذا الأساس فإن النظرية العلمية لا تعترف بأى حقائق « واضحة بذاتها » . حقاً إن النظرية العلمية تعتمد على « مسلمات » . ولكن المسلمات شيء والمبادئ الأولية ، أو « البديهيات » أو « الحقائق الواضحة بذاتها » بالمعنى الاقليدى شيء

أحر فالمسلمات في حالة النظرية العلمية ليس من الضروري أن تكون صادقة بالمرّة . بل على العكس فإن النظرية العلمية تصل إلى تحقيق مسلماتها على أساس من الشواهد والملاحظة المباشرة لصحة النتائج المترتبة عليها وهي في هذا تعكس الوضع الذي تسير عليه البراهين الميتافيزيقية التي تعتمد أولاً على مقدمات واضحة بذاتها ومؤكدة ، بصرف النظر عما يؤيدها من الواقع ، ثم تصل من هذا إلى تأكيد النتائج المترتبة عليها .

مراجع الفصل الخامس

2. Marx, M.H.: Psychological Theory, The Macmillan Co., New York, 1952. Chapt. I.
2. Skinner, B.F.: Science and Human Behavior, New York. The Macmillan Co., 1953.

الباب الثاني
تفسير السلوك الإنساني

مدخل

فرغنا حتى الآن من تحديد معنى التفكير العلمى ومنهجه ، وبذلك نكون قد أرسينا الأسس التى سوف نقيم عليها نقدنا لبعض المفاهيم التى تستخدم أحياناً فى تفسير السلوك . وسوف نستعرض هذه المفاهيم الواحد بعد الآخر فى هذا الباب ، لنرى إلى أى حد يمكن أن يحقق كل منها الشروط الواجب توفرها فى التفسير العلمى . فإذا ما فرغنا من ذلك فسوف نقوم بوضع الخطوط الرئيسية للمنهج العلمى فى تفسير السلوك الإنسانى . وفى ختام الباب نتعرض للعوامل التى أخرت نمو التفكير العلمى فى مجال الظواهر السلوكية ، حتى يزداد وعينا بهذه العوامل المعطلة ونصبح أقدر على تجنبها .

وأخيراً يجب أن نوجه النظر إلى أن اهتمامنا هنا هو بالجانب التفسيرى للعلم وليس بالجانب الوضعى له . وبمعنى آخر فإن ما نعالجه هنا هو المفاهيم والنظريات التفسيرية التى تمدنا بإجابة عن السؤال : لماذا يسلك الناس على هذا النحو أو ذاك ؟ أو ما هى « أسباب » السلوك ؟

وقد يكون هناك تناقض ظاهرى بين نظرية الحرية أو الاختيار من ناحية ، وبين البحث عن أسباب السلوك من ناحية أخرى . ولعل القول بالاختيار أو التلقائية أسهل بكثير من البحث عن الأسباب فى مجال السلوك الإنسانى . ولكن بالرغم من ذلك ، فإن الرغبة فى البحث عن الأسباب كانت من القوة بحيث قادت الإنسان إلى القول بأسباب مختلفة للسلوك الإنسانى . على أن معظم هذه الأسباب لم يعد الآن مقبولاً من الناحية العلمية فى كثير أو قليل . وليس هذا بغريب فى تاريخ العلم ، فقد بدأ التفسير فى نواحى الطبيعة الأخرى بالخرافات والمعتقدات الخرافية . كذلك سبق التفسير الخيالى أو الوهمى أو الميتافيزيقى ، كما سبق أن رأينا ، التفسير العلمى أو التفسير الصحيح . فقد سبق التنجيم مثلاً علم الفلك ، وسبقت التعاويذ علم الطب ، وهكذا . وبالمثل فإننا فى مجال سلوك الإنسان لا نزال نجد المنجمين والمشعوذين والميتافيزيقيين . ولعلنا نستطيع بإستعراضنا لهذه التفسيرات أن نتلمس طريقنا فى سبيل الوصول إلى المنهج السليم فى التفسير .

وقد رأينا أن نحصر التفسيرات غير العلمية للسلوك الإنسانى فى صورتها العامة ، ممثلين لكل صورة من هذه الصور بعدد من النظريات . وإذا كنا سنتناول بعض هذه النظريات دون غيرها بالنقد ، فذلك لإعتبار أن هذه النظرية أو تلك هى خير ما يمثل اتجاهاً معيناً فى التفسير أو صورة معينة منه . أما الاتجاهات العامة فى التفسير غير العلمى فقد قمنا بتصنيفها فى خمس فئات هى : التفسيرات البدائية ، والتفسيرات التى تقوم على أساس افتراض تكوينات ذات

صبغة روحية (نفسية) ، والتفسيرات التي تقوم على أساس افتراض وجود تكوينات بيولوجية ، والتفسيرات التي تقوم على أساس افتراض السلوك نفسه كعلة ، والتفسيرات التي تقوم على أساس البحث عن الغاية . وسوف نتناول جميع هذه الأنواع من التفسيرات في الفصول القادمة ، قبل أن نتناول أساس التفسير العلمى للسلوك الإنسانى والعوامل التي أدت إلى تأخيرها .

الفصل السادس

تفسيرات بدائية

لن يطول بنا الحديث عن هذا النوع من التفسيرات ، وإنما نتعرض له هنا حتى نستكمل القائمة . ففي الواقع لم يعد هناك مجال للجدل في أن السحر أو التنجيم أو التعاويذ أو الرقى إنما هي خرافات ، ولا توجد أى علاقة سببية بينها وبين الظواهر الطبيعية . ولكن مع ذلك ، ربما كان في استعراض مثل هذه التفسيرات في مجال السلوك الإنساني فائدة أبعد من مجرد استكمال قائمة التفسيرات غير العلمية . ربما أعاننا تحليل هذه التفسيرات على فهم العلاقة بينها وبين غيرها من التفسيرات غير العلمية التي قد يكون لها مكانة أكبر بين علماء النفس ، وبذلك نستطيع أن نقيم هذه الأخيرة التقييم المناسب لها .

ومن التفسيرات البدائية المشهورة بين العامة نجد أولاً أن أى حادثة أو ظاهرة واضحة يتصادف أن تقترب بسلوك الناس أو بحياتهم قد تؤخذ على اعتبار أنها سبب لسلوكهم . ومن أمثلة ذلك مواضع النجوم عند ميلاد شخص معين . فالمنجمون يستنتجون من وقوع ميلاد شخص في يوم أو شهر معين ، أنه سيكون سعيداً أو تقيساً ، غنياً أو فقيراً ، ذكياً أو غيباً ، أو ما إلى ذلك . ومعنى ذلك أن سلوك هذا الشخص سيتأثر بهذا الحادث أى وجود الكواكب والنجوم في وضع معين .

ومثل آخر لهذا النوع من التفسيرات الخرافية ، هو محاولة تحديد ما سيكون عليه تصرف الشخص بناء على عدد الأحرف التي يتكون منها اسمه أو عنوان منزله ، وهكذا . وبلغاً ملاين الناس كل يوم إلى مثل هذه الأساليب الخرافية في محاولة يائسة لفهم سلوك الإنسان وعلاج هذا السلوك .

وتمتاز مثل هذه التفسيرات ، كما رأينا في المرحلة الخرافية من مراحل تفسير الظواهر الطبيعية ، بأنها من الغموض بحيث يصعب إثبات صدقها أو كذبها . كذلك فإن انظار الناس غالباً ما تتجه نحو حالة أو أكثر من الحالات التي يصدق فيها مثل ذلك التنبؤ عن طريق الصدفة ، ويتهاضون عن الحالات العديدة التي لا تصدق فيها مثل هذه التنبؤات . ولذلك فإن

حالة واحدة ناجحة بالصدفة يكون لما نثر كبير في تدعيم مثل هذه الأساليب الخرافية وانتشارها بين الناس . ويساعد على تدعيم هذه الأساليب أيضاً انتشار الجهل بين الناس بالأسباب الحقيقية للسلوك . ففى حالة الجهل بأسباب ظاهرة ما والعوامل الحقيقية المثيرة لها ، يصبح الموقف بالنسبة للإنسان موقفاً غامضاً ، يشعر فيه بعدم تكافئه أى بعدم قدرته على التحكم في البيئة المحيطة به والسيطرة على الطبيعة التي يعيش فيها . وبإختصار يصبح الموقف مهبطاً للإنسان مثيراً لشعوره بالعدم الأمن أو الاطمئنان ، وهذا الشعور بدوره كفيل بإثارة الرعب والخوف والقلق الشديد عند الإنسان ، ويدفعه خوفاً وقلقه هذا إلى البحث عن الأساليب التي تنزل هذا الخوف والقلق .

الخوف والقلق إذن هما اللذان يدفعان الإنسان في حالة جهله بالأسباب الحقيقية للسلوك ، إلى ابتداع هذه الأساليب الخرافية في التفسير . وهذا نفسه هو أحد العوامل التي تساعد على تدعيمها . ذلك أن هذه الأساليب التفسيرية تساعد ولو مؤقتاً على إزالة الخوف والقلق . وهي إذ تحقق هذه النتيجة فإنما تحققها في الحال . فبمجرد حصول الإنسان على تفسير يرضيه ويرضى دوافعه اللاتية يشعر بالارتياح والهدوء ، أى أنه عرف السبب ولم يصبح الموقف بعد غامضاً مجهولاً بالشكل الخفيف الذي كان عليه . وحتى لو ثبت أن مثل هذه التفسيرات غير صحيحة أى لا تؤيدها الوقائع التي قد تحدث بعد ذلك ، فإن هذه النتيجة تأتي مؤخراً وبعد مدة طويلة . ولذلك لا يكون لها من الأثر ما للنتيجة المباشرة المريحة .

ويساعد على تدعيم هذه الأساليب الخرافية أيضاً أنه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات أناس لهم مصلحة في نشر مثل هذه الخرافات . إذ أنهم يتعيشون منها ويتخلونها مهتهم التي يقيمون عليها أودهم ويكسبون منها رزقهم . وغالباً ما يحيط هؤلاء الناس أنفسهم بمظاهر القدرة والسيطرة . وبالنسبة للرجل الجاهل الذي يدفعه خوفاً الشديداً إلى البحث عن الحماية والأمن ، يمثل هذا الموقف (الإلتجاء إلى المشعوذين والدجالين والعمل بما يوصون به والاعتقاد بما يدعون إليه) الأمن المطلوب . وإن الأمل الذي يبعثه عنده ما يسمعه عن هؤلاء الناس وعما ارتبط بهم من أحداث ليساعد كثيراً على ذلك . وسواء أكانت هذه الأحداث واقعية ، عن طريق الصدقة - كما سبق أن قلنا - أو خيالية وسمها خيال الناس ، فإن مجرد المعرفة عنها يؤدي إلى خفض التوتر وإزالة الخوف والقلق الذي يعانيه هؤلاء الأفراد ، وبالتالي يدعم عندهم الاعتقاد في مثل هذه الخرافات . ولذلك نجد أن الأفراد يزداد اعتقادهم في هذه الأساليب كلما زادت مشاكلهم وتعقدت أمور حياتهم ، كما يحدث في حالات المرض وغيره من الظروف التي تثير القلق بشكل واضح .

ومن الأساليب الخرافية الشائعة أيضاً ، تفسير السلوك الإنساني بإرجاعه إلى التكوين

الجسمى للشخص . فأبعاد الجسم وشكل الرأس ولون العينين ولون الجلد أو الشعر ، وكذلك خطوط الكف وتقاطيع الوجه ، كل هذه قد تعتبر في بعض الأحيان علامات يستدل منها على كيفية تصرف الفرد أو سلوكه . وهناك من العبارات المنتشرة في لغة الحياة اليومية ما يؤيد ذلك كل التأييد . فيقال مثلاً ، إن فلاناً هنا « عينيه زى الصقر » عندما يراد التعبير عن مدى « دهاء » الشخص أو « قدرته على الملاحظة » . أو يقال مثلاً « كل طويل هيل » أو « كل قصير مكبر » وهكذا .

وقد كانت الملامح الخارجية تتخذ مقياساً للحكم على الشخص من حيث ذكائه ، وقدرته على تكوين الأصدقاء ، « وقوة إرادته » أو « ضعفها » وقدرته على القيادة ، ومبلغ ما يتصف به من شجاعة أو جبن أو ما يتميز به من « الحلم » أو « الاندفاع » وما إلى ذلك . وقد حاول البعض أن يضع تبعاً لذلك بعض القواعد ، ويقيم العلاقات التي تساعد على الحكم على الأشخاص من معرفة ملامح وجوههم ، فقالوا إن الشخص العريض الجبهة أقرب إلى الذكاء ، وأن بروز الذقن دليل على قوة الإرادة ، وأن شكل الحاجبين له علاقة بالتفكير ، وأن لمعان العينين له علاقة بالحالة العاطفية ، وغير ذلك .

وقد اتخذ هنا الاتجاه في الحكم على الأشخاص صوراً أخرى كالحكم على طباع الشخص وعاداته بحسب قرب شكل وجهه أو رأسه من شكل حيوان معين ؛ فالرجل المشابه للثعلب يكون ماكراً مثلاً وهكذا .

ومحاولة أخرى لإقامة العلاقة بين الملامح والشخصية أو السلوك عند الأفراد ، هى تلك التي تقوم على أساس الشكل الهندسى للوجه . فالشخص ذو الوجه المثلث الشكل يكون أقرب إلى كثرة التفكير والتأمل . أما الشخص المربع الوجه البارز الملامح فيكون أقرب إلى « قوة الإرادة » و « قوة العزيمة » والقدرة على التنفيذ . أما الشخص المستدير الوجه فهو أقرب إلى الحيوية والنشاط والمرح ، وهكذا .

ولم يخل العصر الحديث من محاولات لإقامة « نظريات » في هذا الاتجاه . ومن هذه النظريات نظرية العالم الإيطالى لميروزو ، الذى كان يعتقد أن الضعف العقلى والانحرافات السلوك والإجرام مرتبطة بالتكوين الجسمى الناقص الذى يدل على تدهور فى الطبيعة البشرية . ولنا كان يرى أن التشوهات الجسمية مثل عدم تماثل جانبي الوجه وصغر الرأس والتواء الأنف وعدم انتظام شكل الأذنين ، من الأدلة على الانحطاط فى المستوى العقلى وأنها يمكن أن تتخذ علامات مميزة للأشخاص ذوى الاستعداد الإجرامى .

ولعل أشهر الباحثين فى هذا الاتجاه فى العصر الحديث هو فرانسيس جول F. Gall

(١٧٥٨ - ١٨٢٨) الذى نشر مجموعة من الكتب عن النواحي التشريحية للجهاز العصبي ، وعن العلاقة بين شكل الجمجمة وتضاريسها وبين الصفات العقلية والخلقية للإنسان ، مما كان له أثر كبير في انتشار هذه الفكرة خلال القرن التاسع عشر .

وكان جول يعتقد أن المخ هو مركز العقل وأن مناطق المخ المختلفة هي مراكز للمكات العقل المختلفة وأنه كلما تضخمت منطقة من هذه المناطق كلما قويت الملكات المقابلة لها ، وأن ذلك كله يمكن التكهّن به أو استنتاجه من التنوعات أو الانخفاضات الموجودة بالجمجمة ، إذ أن تضخم المخ في مركز معين يقابله - في نظره - بروز في الجزء المعطى له في الجمجمة ، والعكس بالعكس .

وقد بنى جول آراءه هذه على مقارنة عدد كبير من جماجم العباقرة ونزلاء مستشفيات الأمراض العقلية وغيرهم من الأفراد . وتوصل من هذه الدراسات إلى عمل خرائط ورسوم توضيحية لمناطق المخ والملكات المقابلة لها . وبناء على هذه الخرائط كان يكفّي بفحص التنوعات أو الانخفاضات في سطح جمجمة أى شخص لإمكان الحكم على ملكاته المختلفة ، كالقدرة على التخيل أو الطموح أو الشجاعة أو الذكاء أو القدرة الرياضية أو الملكة الموسيقية أو حب التملك أو القابلية للتعلم أو الاعتزاز بالنفس أو التدين ، أو غير ذلك من الثلاثة والثلاثين ملكة أو صفة التي أحصاها .

ويسمى هذا الاتجاه في تفسير السلوك بناء على الملاحظ الظاهرية للجسم « بالفراسة » ومن الواضح أن اتجاه الفراسة هنا لا يمثل اتجاهاً علمياً في تفسير السلوك . بل هو أسلوب من الأساليب الخرافية التي سبق أن تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل . ذلك أن الدراسات التجريبية قد أثبتت أنه لا توجد علاقة بين الملاحظ الظاهرية للجسم وبين السلوك الإنساني^(١) . وأنه إذا كانت هناك حالات تنطبق عليها النظريات التي قال بها لبروزو أو جول ، فإن ذلك يرجع إلى مجرد الصدفة ، ذلك أن هؤلاء العلماء وغيرهم من أصحاب نظرية الفراسة إنما كانوا يختارون الحالات التي تؤيد صحة نظرياتهم ، بدلاً من اختيار عينة غير منتقاة وإجراء الفحوص عليها للحصول على المقاييس المختلفة ثم محاولة إقامة العلاقة بين هذه المقاييس (للجمجمة مثلاً أو غيرها) وبين شدة السلوك الذي نفترض أنه متعلق بها . كذلك لم يثبت أن هناك علاقة مضطربة بين الشكل الخارجى لسطح الجمجمة وبين تكوين المخ ، وهي العلاقة التي اعتمد عليها جول لإثبات الصلة بين شكل الجمجمة وبين « قوة الملكات » . بل أن كبر الجمجمة قد ينتج من زيادة في تكوين العظام ذاتها ، بينما يكون المخ

Edwin Boring: A History of Experimental Psychology.
Appelton Century, New-York, 1950.

(١)

صغيراً . أو قد يرجع إلى زيادة السائل المخي الذي يفصل بين المخ والجمجمة أو غير ذلك . هذا إلى أن العلاقة بين الصفات التشريحية للمخ ذاته وبين السلوك الإنساني ، ليست بالوضع الذي صورته جول ، وسوف نتعرض لهذه النقطة الأخيرة في مكان آخر .

وعلى ذلك فالإتجاه في تفسير السلوك الإنساني بناء على الملاحظ الظاهرية للجسم ، سواء كان في صورته عند الرجل العامى أم في الصورة التي جاء بها بعض الباحثين ، إتجاه غراني ليس له أساس من الواقع التجريبي . وفضلاً عن ذلك ، فإنه يجانب الأسس الأخرى للمنهج العلمي في تفسير الظواهر ، ذلك أنه لا يحدد طبيعة العلاقة الوظيفية التي يمكن أن تقوم بين ملاحظ الجسم من ناحية ، وبين السلوك الإنساني من ناحية أخرى - حتى إذا قامت - كما سيتضح فيما بعد .

ويدخل في هذا النوع من التفسير الخرافى أيضاً تقسيم الناس إلى أنواع أو أنماط بناء على أبعادهم الجسمية . أى ذلك التفسير الذي يقيم علاقة بين التكوين الجسمي من ناحية وبين السلوك الإنساني من ناحية أخرى . وأحدث نظرية في هذا الإتجاه هي نظرية شلدون (Sheldon) في الأنماط الجسمية^(١) .

فقد طلع علينا شلدون في عام ١٩٤٠ بتقسيم الشخصية أو السلوك العلم للفرد إلى ثلاثة أنماط يقابل كل منها غطاءً جسياً معيناً . أما الأنماط الجسمية فهي النمط الداخلي التركيب Ectomorphic أو البدين ، والنمط المتوسط التركيب Mesomorphic أو الرياضي ، والنمط الخارجى التركيب Endomorphic أو الواهن . ويتميز الأشخاص من ذوى النمط الأول في رأيه بالميل إلى الراحة والإسترخاء والروح الإجتماعية ويتميز الأشخاص من ذوى النمط الثاني بالميل إلى إثبات الذات بقوة والميل إلى العمل والحركة والرغبة في السيطرة على الآخرين ، مع عدم المبالاة بمشاعرهم إلى حد ما . أما النوع الثالث من الأنماط الجسمية فيتميز أصحابه بالميل إلى التوتر في غالب الأحيان واليقظ والحساسية والتعطل عن الحركة والنشاط وعدم النجاح في العلاقات الإجتماعية .

وقد توصل شلدون إلى هذا التقسيم - الذي طبقه أيضاً في التنبؤ بالصور المختلفة للنجاح - من بحثه لحالات مختلفة من الشبان . وكانت طريقته مبنية على القيام بمقابلات طويلة مع الحالات لإستخلاص المعلومات المتعلقة بخصائص الحالة أو مميزاتها من حيث القامة

Sheldon, W.H. and Others. The Varieties of Human Physique. New York, Harper, 1940

(١)

والحركة والنشاط والراحة وعادات الطعام والنوم والاستجابة للمواقف العصبية ومدى الميل للخمور وصفات المفاخرة والحساسية والاتجاهات العامة نحو الناس . ويقرر شلدون أنه قد حصل على معامل ارتباط ٠,٨١ بين كل مجموعة من الصفات المزاجية (صفات الشخصية) وبين ما يتشئ معها من تكوين جسمي .

ونحن لا نتكر أن هناك علاقات بين الجسم والسلوك ، فالذي يسلك كائن عضوي . ومن البدئي أن يتأثر سلوك الكائن العضوي بالحالات المختلفة التي توجد عليها أعضاؤه . ولكن يجب ألا نغفل بين العلاقات الصحيحة بين الجسم والسلوك وبين العلاقات الوهمية التي قد تتوصل إليها نتيجة للملاحظات فجأة غير محصنة كما يفعل في العادة رجل الشارع .

وحى إذا سلمنا بأن هناك علاقة كذلك التي اكتشفها شلدون بين التكوين أو الأبعاد الجسمية من ناحية وبين سلوك الفرد من ناحية أخرى ، فليس معنى ذلك أن « أسباب » السلوك تكمن في الجسم . أو أننا يمكن أن نفسر السلوك عن طريق التكوين أو الأبعاد الجسمية . ذلك أن اكتشاف مثل هذه العلاقة لا يبين لنا أيهما السبب وأيها المسبب^(١) . فلذا قلنا مثلاً أن هناك علاقة بين السمعة والمرح ، وإذا ثبت بالطرق الإحصائية أن هذا صحيح فإن ذلك لا يعني أن « التكوين الجسمي » هو « السبب » في « مزاج » المرح . إذ يمكن تفسير ذلك مثلاً بأن الشخص السمين تعوقه ظروفه الجسمية من نواحي عدة ، عن التفوق أو التميز عن أقرانه في مواقف المنافسة ، فيمتدح من المرح وسيلة للدفاع عن ذاته في مجتمع يسوده ويتحكم فيه التنافس إلى حد بعيد . أو على العكس قد تكون شدة المرح هي السبب في السمعة ، إذ معنى المرح هو التحرر من الإضطرابات الإنفعالية التي تدفع الناس إلى الإقراط في العمل ، أو إلى الإهمال في تناول الطعام وعدم القواعد الصحية .. الخ . وباختصار فإن التلازم بين السمعة والمرح ، حتى لو ثبت إحصائياً ، ليس معناه أن الأولى هي السبب في الثانية .

وبعبارة أخرى فإن التلازم بين الصفات الجسمية وبعض مظاهر السلوك أمر لا يعني أن الجسم هو « السبب » في السلوك . إذ يجب أن نتذكر أنه ليس معنى وجود ارتباط في التغير بين ظاهرتين ، أن الأولى هي السبب في الثانية أو هي نتيجتها . فقد يكون الارتباط عرضياً محضاً وقد يكون لأسباب خارجة عن الظاهرتين معاً . وعلى ذلك فلا بد أن نبحث بالتحليل المنطقي عن الظروف المسؤولة عن الظاهرة ، وألا نعتد في التفسير على هذه

(١) لرجع إلى الفصل الرابع .

الإرتباطات فحسب . كما يجب أن نحدد العلاقة أو العلاقات الوظيفية بين هذه الظروف والظاهرة المراد تفسيرها على النحو الذى سبق أن بينا .

ولكن شلدون لم يفعل ذلك ، بل عزا الأنماط السلوكية إلى أنماط « مزاجية » تكمن في التكوين البيولوجى للفرد وتعتبر مسئولة عن الجسم ، شكله وسلوكه معاً . هذه الأنماط المزاجية هى ما أسمه شلدون بالتمط الحشوى الأساسى (Viscerotonia) والتمط الجسمى الأساسى (Somatotonia) ، والتمط الخفى الأساسى (Cereborotonia) ؛ أى أن شلدون قد افترض وراء هذا الارتباط بين نمط الشكل الظاهرى للجسم وبين نمط السلوك المرتبط به تكويناً سماه « المزاج » أو « النمط المزاجى » ، واعتبر هذا التكوين هو السبب المسئول عن السلوك والتكوين الجسمى معاً . ولا شك في أن افترض وجود مثل هذه التكوينات الغيبية يجعل من نظرية شلدون محاولة أشبه بالمحاولات البدائية في تفسير السلوك . ذلك أن النظرية التى تقوم على أساس افترض مثل هذه التكوينات تعجز عن تحقيق الأهداف المطلوبة منها وهى أهداف التفسير والتنبؤ والضيظ^(١) إذ يبقى علينا أن نعرف ما طبيعة ذلك « التكوين المزاجى » الذى يمكن وراء السلوك وكيف يمكن أن نلاحظه ، قبل أن ندعى أننا قد وصلنا إلى تفسير السلوك أو إلى أى درجة من القدرة على التنبؤ به أو التحكم فيه . والنظرية بافترضها هذه التكوينات إنما تحيلنا إلى مجهول هو نفسه في حاجة إلى تفسير ، ولا يكون تفسيره إلا بتحليله بعبارة تمكّن من الملاحظة . ولكن حيث أنه لا يقبل مثل هذا التحديد ، لذلك فإنه يظل مفهوماً غيبياً لا يصلح للتفسير .

ولو أن شلدون قد حاول أن يحلل الارتباط الذى أدعى أنه وجده بين الأنماط الجسمية والأنماط السلوكية في ضوء ظروف محددة ، هى الظروف الثقافية التى يعيش فيها الفرد ، لجاء تفسيره للسلوك مفيداً من حيث إمكانية تحقيقه لأهداف العلم الأخرى . فكما سبق أن قلنا ، قد تكون هناك ظروف معينة في الثقافة التى توجد فيها مثل هذه العلاقة ، تجعل من الشخص النحيل مثلاً شخصاً غير ناجح في علاقاته الاجتماعية . ذلك أن مثل هذه الثقافة تقيم أبعاداً معينة للجسم ، فيكون صاحبها أكثر تقبلاً في الجماعة : يفضل الرفاق في الزمالة وفي اللعب وفي القيادة ، كما يكون ناجحاً في علاقاته الجنسية ، ويصيب نجاحاً أيضاً في الألعاب الرياضية ، ويسهل اختياره بذلك في الأندية والجمعيات ، في المدرسة وخرجها ، وهكذا . فإذا لم يتحقق للفرد مثل هذه الأبعاد ، فإنه في الغالب يجد نفسه أكثر قشلاً من غيره في ميدان العلاقات الاجتماعية ، ويصبح ميدان العلاقات الاجتماعية بالنسبة له ميداناً مثيراً للقلق .

(١) ارجع إلى الفصل الثانى

ويصبح البعد عن هذا الميدان هو أسلوب من أساليب الدفاع عن الذات ضد هذا القلق ، وحمايتها من الشعور بالإحباط والخيبة . على هذا النحو يمكن أن تقصر ميل الرياضى فى ثقافة معينة إلى إثبات الذات والرغبة فى السيطرة والميل إلى التفكير العملى ، وميل التحيل فى نفس الوقت إلى الإنطواء والبعد عن المجتمع والميل إلى التفكير النظرى . أى أن طريقة التفاعل بين كل منهما وبين المجتمع المحيط تدعم عنده أسلوباً مميزاً للسلوك الاجتماعى .

ولنتصور أن هناك ثقافة فرضية معينة يقيم فيها الأفراد مثلاً على أساس السرعة فى الجرى والقدرة على تسلق الغابات ، والقدرة على المرور بين أشجارها فى سرعة وسهولة ويسر سعياً وراء الصيد الذى تعيش عليه القبيلة صاحبة هذه الثقافة الوهمية ، فماذا ننتظر أن تكون عليه شخصية التحيل وسلوكه فى مثل هذه الثقافة . على فرض أن التحيل سيكون أقل على أداء الوظائف المطلوب منه أداؤها بالنسبة للقبيلة ، نتوقع عندئذ أن يكون أكثر نجاحاً فى علاقاته الاجتماعية ، وأكثر ميلاً لإثبات ذاته ... إلى آخر ذلك من الصفات التى يقول شلدون إنها ليست له بالطبيعة . ونتوقع أيضاً بناء على مثل هذا التحليل ، أن ما وجده شلدون فى الثقافة التى أجرى فيها بحثه لا يوجد على هذا النحو فى ثقافات أخرى مختلفة . بل إن ما وجده من ارتباط بين الأنماط الجسمية والأنماط السلوكية لا يوجد فى الواقع بهذه الدرجة من الارتفاع حتى فى الثقافة التى أجرى فيها بحثه . وإن الاحتمال الأكبر أن تكون عوامل التحيز عند الباحث هى السبب فى الحصول على معامل الارتباط المرتفع الذى حصل عليه . ولقد أثبتت الأبحاث الأخرى فعلاً صدق هذا الكلام من الناحية التجريبية . فقد قام باحثون آخرون على سبيل التحقيق بمحاولات مشابهة لمحاولة شلدون ، ولكنهم لم يحصلوا على نفس النتائج^(١) . ذلك أن العوامل المعقدة التى تعمل على تشكيل السلوك ، وكذلك طبيعة العلاقات القائمة بين هذه العوامل بعضها وبعض ، تجعل من غير الطبيعى أن يظهر أثر عامل واحد فقط بالوضوح الذى يقرره شلدون حتى لو وجد .

وهكذا نجد أن محاولات تفسير السلوك على أساس متغيرات الجسم الظاهرية سواء كانت هذه المتغيرات هى ملامح الوجه أم شكل الرأس أم أبعاد الجسم أم خطوط الكف ، لا تشكل جميعها فى الواقع سوى محاولات بدائية لا تزيد من قدرتنا على فهم السلوك أو التنبؤ به أو التحكم فيه ، أكثر مما كان يفعل التفكير الخرافى القديم فى تفسيره للظواهر الطبيعية .

C. Hall and G. Lindzey: Theories of Personality. John Willy and Son, New York, (١)
1957, p. 373.

الفصل السابع أسباب « نفسية داخلية »

حلول العلم في وقت من الأوقات أن يبحث في داخل الأشياء عن أسباب حركتها ونشاطها . ولقد صلاخ هذا المنهج نجاحاً في بعض الأحيان ، ولكنه صلاخ فشلاً في أحيان أخرى : وليس هناك من ضرر في البحث عن أسباب « داخلية » في حد ذاته . وإنما ينشأ الضرر من أن الأسباب الداخلية تكون صعبة الملاحظة في معظم الأحيان ، فيشجعنا هذا على أن نستدل إلى « ما هو داخل هذا » من الصفات أو من الخصائص ما لا يمكن أن يقوم عليه أى برهان أو دليل ، وما لا يسمح افتراض وجوده بأن نجري عليه أى تجريب أو نخضعه لأى تحقيق . والأخطر من هذا وذاك أننا نستطيع عندئذ أن نبتدع من الأسباب على هذا النحو ما نشاء ، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان إلى أننا لن نقع في أى تناقض مهما كانت الظروف التى تلجأ فيها إلى التعلل بهذه الأسباب ، وأنه لن يسقط في أيدينا أمل أى اعتراض قد يعترض به الآخرون على مثل هذا التفسير .

ولهذه الأنواع من التفسيرات التى تلجأ إلى افتراض وجود أسباب داخلية ، أمثلة عديدة ، قديماً كانت الحركة تعزى إلى النفس المحركة . كذلك كان يظن أن الخصائص الكيميائية للأجسام مردها إلى « العناصر » أو « الجواهر » التى تتركب منها هذه الأجسام . وقد رأينا كيف كان الاشتغال يفسر بناءً على وجود مادة « الفلوجستين » بداخل الأجسام المشتعلة . كذلك كان يعزى الشلل الجروح والنمو الصحيح للأجسام إلى وجود أرواح طيبة فيها .

ويدلو أن مجال الظواهر النفسية كان أشد إغراء لثو مثل هذه التفسيرات ، فلا تزال كتب علم النفس تزخر حتى الآن بالأمثلة العديدة لهذا الاتجاه . فمن الشائع جداً في علم النفس افتراض وجود تكوينات داخلية تفتقر إلى الأبعاد الطبيعية ، ويطلق عليها اسم العوامل « النفسية » أو « العقلية » ويعزى إليها أسباب السلوك والنشاط . ويعود تاريخ مثل هذه التفسيرات إلى أيام الإنسان البدائى الذى كان يعتبر أن « الروح » التى تسكن الجسد هى

المسئولة عن حركته وتصرفاته كما سبق أن بينا في العرض الموجز لتطور التفكير الإنسانى^(١) .

ليس من الغريب أن يصدر هذا النوع من التفكير عن الرجل البدائى ، ولكن الغريب حقاً أن يظل هذا التفكير البدائى قائماً فى علم النفس حتى الآن . فكل صفة من صفات السلوك يمكن أن تخطر على بال قد أرجعت إلى قوة داخلية مقابلة لها من قوى « قدرات » العقل أو « سمات الشخصية » . ولا يزال الكثير جداً من علماء النفس المشهورين يستخدمون هذه الثنائية فى تفسير السلوك ، كما كان يفعل الرجل البدائى تماماً .

وأحياناً ما تكون هذه الثنائية عبارة عن تقابل واضح صريح بين كائن ظاهرى وكائن داخلى ، كما هو الحال عندما يعزى السلوك اللا اجتماعى مثلاً إلى « شخصية سيكوباتية » ، أو السلوك العصابى إلى « شخصية مضطربة » . وأحياناً ما يجزأ هذا الكائن الداخلى كما هو الحال عندما يعزى السلوك إلى « قدرات عقلية » أو « سمات شخصية » أو « ملكات » أو « غرائز » . وما دام الكائن الداخلى يفتقر إلى الأبعاد الطبيعية ولا يشغل حيزاً من المكان ، لذلك كان من السهل جداً علينا أن نشكله ونعده ونجزئه كيفما نشاء . وأحياناً ما تكون هذه الأجزاء منفصلة بعضها عن بعض ، وأحياناً تربطها ببعضها البعض علاقات من نوع معين . ومثال هذه الحالة الأخيرة تفسير السلوك بأن نتيجة لعدة إرادات متصارعة فيما بينا ، وأن تصرف الكائن الإنسانى الواحد إنما تتحكم فيه عدة « كائنات نفسية داخلية » ، تظل فى شقاق ونزاع مع بعضها البعض حتى تغلب إحداها على الأخرى ، أو يحدث التوفيق بينها بشكل أو بآخر . وتستخدم مفهومات فرويد « الأنا » و « المو » و « الأنا الأعلى » بهذا المعنى . فغالباً ما ينظر إلى هذه المفهومات على أنها كائنات غير مادية تقوم فى مكان ما من الكائن الحى وتظل فى صراع مع بعضها البعض حتى يحل هذا الصراع بنصر لبعض هذه الكائنات ، وهزيمة للأخرى . وعلى هذا الأساس يتوقف مقلدار التوافق فى سلوك الكائن الحى الذى تسكنه هذه الكائنات .

هذه نماذج للتكوينات الغيبية التى يفسر بها السلوك فى كثير من الأحيان . وواضح أن هذه التكوينات وأمثالها مما لا يزال ذائعاً فى علم النفس حتى الآن ، لا يأخذ بمسلمات العلم ولا يحقق أهدافه التى سبق أن فصلناها فى الباب الأول من هذا الكتاب . ولكى نزيد هذا الكلام إيضاحاً يحسن بنا أن نختار نموذجاً معيناً من هذه المحاولات التفسيرية ، ونستعرضه بشئ من التفصيل ، ثم نحاول أن نبين إلى أى مدى يمكن أن يعتبر تفسيراً علمياً بالمعنى الذى

(١) ارجع إلى الفصل الأول .

وضعنا أسسه فيما سبق . وقد وقع اختيارنا على نظرية الغرائز لتمثل هذه المحاولات الغيبية . ذلك أنه بالرغم من أن هذه النظرية قد فقدت اليوم قيمتها تماماً من الناحية العلمية ، إلا أنه لا زال لها من التأثير على تفكير العامة ، ولا زالت لها من المكانة عند بعض المشتغلين بعلم النفس ما يجعل من الضروري أن نتال منا عناية خاصة في هذا المجال .

الغرائز كمثال للتكوينات الغيبية « النفسية » :

يتفق القائلون بالغرائز على اعتبارها قوى فطرية (غير متعلمة) تدفع الكائن الحي للسلوك ، وتوجد بشكل عام في جميع أفراد الجنس ، وقد يشترك فيها أكثر من جنس واحد كما في حالة الإنسان والحيوانات الراقية . فمن حيث تعريفها إذن : الغريزة عبارة عن « قوة دافعة » : ومن حيث طبيعتها : فهي « فطرية » أى غير متعلمة ، و « داخلية » أى موجودة في مكان ما من الكائن الحي .

أما من حيث تصنيفها فتوجد اتجاهات مختلفة : منها مثلاً ذلك الاتجاه الذى يقرر أن هناك « غريزتين » أساسيتين هما « المحافظة على الذات » و « المحافظة على النوع » . ومن أمثلة هذا الاتجاه نظريات فرويد وأدلر وغيرهما . يرى فرويد مثلاً أن « الغريزة » الأساسية هي « الغريزة » الجنسية ، ذلك أن القوة الدافعة لسلوك الفرد هي في نظره المحافظة على حياته وعلى نوعه . كذلك يرى أدلر أن « الغريزة » التى تفسر كل سلوك الإنسان هي « السيطرة » السيطرة من أجل الحياة والبقاء ... هذا الاتجاه يحاول أن يقلل من عدد الغرائز ويختصره إلى أقل عدد ممكن .

أما الاتجاه الآخر فيحاول أن يصنف تحت عنوان « الغرائز » نماذج خاصة من السلوك الذى يصدر بالنسبة لمواقف محددة . ولهذا السبب وضع العلماء الذين يتخفون هذا الاتجاه قوائم طويلة بالغرائز منها : الأكل ، وضع الأشياء فى الفم ، المسك ، الأخذ ، الصيد أو القنص ، الجمع ، المنافسة ، المقاتلة ، الغضب ، وغير ذلك من القوائم التى وصل بعضها إلى أكثر من مائة غريزة .

ولعل أقوى هذه التصنيفات أثراً فى التفكير السيكولوجى هو ذلك التصنيف الذى وضعه ماكلوجلان زعيم القائلين بنظرية الغرائز فى العصر الحديث . فقد وضع ماكلوجلان فى سنة ١٩١٠ قائمة من إحدى عشرة « غريزة » ثم زادها فى سنة ١٩٢٣ إلى أربعة عشرة « غريزة » فأصبحت قائمة « الغرائز » البشرية كالآتى : غريزة الوالدية ، غريزة المقاتلة ، غريزة الاستطلاع ، غريزة الخلاص (الهرب) غريزة البحث عن الطعام ، غريزة النفور ، غريزة الاستغاثة ، الغريزة الجنسية ، غريزة الخنوع ، غريزة التسلط (السيطرة) ، غريزة

التملك ، غريزة الحل والتركيب ، الغريزة الاجتماعية ، غريزة الضحك^(١) . ثم أضاف
ماكوجل في أواخر أيامه إلى هذه القائمة الأخيرة أربع غرائز أخرى هى البحث عن الراحة ،
والنوم ، والتنقل ، ومجموعة غرائز أخرى بسيطة كالعطس والكحة .

وهناك تقسيمات وتصنيفات أخرى عديدة للغرائز حتى لقد أحصى بعضهم مجموع ما
سمى « غريزة » فى كتب علم النفس فوجده لا يقل عن ١٤,٠٤٦ نوعاً من النشاط
الإنسانى^(٢) . ولاشك أن فى هذا التعدد وحده ما يوحى بأن مفهوم الغريزة مفهوم غامض
غير محدد وبالتالى يصعب جداً أن تقوم له على هذا النحو أى دلالة .

ومع ذلك فسوف نفترض مؤقتاً أن الأسس التى قامت عليها بعض التصنيفات - وهو
تصنيف مكوجل - « أسلم » من غيرها ، كما يدعى معظم المتشيعين لنظرية الغرائز ، ثم
نسأل بعد ذلك صاحب هذا التصنيف ما هو تعريفك للغريزة عله عندئذ يزيد من معرفتنا
« بطبيعتها » أو يضيف جديداً إلى إدراكنا لمفهومها . يجيب ماكوجل عن هذا السؤال بأن
الغريزة « استعداد عصبى نفسى يجعل صاحبه ينتبه إلى مثيرات من نوع خاص ويدركها إدراكاً
حسياً ، ويشعر بانفعال من نوع خاص عند إدراكها ، ويسلك نحوها مسلكاً خاصاً أو على
الأقل يشعر بنزعها لأن يسلك نحوها هذا المسلك »^(٣) .

ومن الواضح أن مثل هذا التعبير لا يضيف شيئاً إلى تحديد مفهوم الغريزة . فهو لم
يحدد لنا أى مثيرات محسوسة ، ولم يضع أيدينا على أشياء يمكن ملاحظتها . وكل ما فعله هو
أنه أحل كلمة استعداد محل كلمة غريزة ووصفه (أى الاستعداد أو الغريزة) بأنه « نفسى »
« عصبى » ، وبأنه « محرك » للسلوك فهو « يجعل » صاحبه ينتبه إلخ .

فما هو الاستعداد ؟ وكيف يمكن أن نلاحظه ؟ وكيف يمكن أن يحرك السلوك ؟ كل
هذه أسئلة لا تجيب عليها نظرية الغرائز إجابة علمية تتفق مع ما سبق أن حددناه من معنى
العلم وخصائص التفسير العلمى . وعلى هذا تظل تلك الكائنات الخرافية - الغرائز - غير
خاضعة للملاحظة . ولعل هذه الحقيقة نفسها هى التى جعلت النظريات التى تستخدمها
مازالت قائمة فى علم النفس حتى اليوم . فما دامت هذه الكائنات لا تخضع للملاحظة ، لذا
كان من المستحيل التحقق من صحتها كفروض تفسيرية ، من وجودها أو عدم وجودها .

McDougall, William: Outline of Psychol., New York, Scribner 1923.

(١)

Bernard, L.L.: Instinct, New York, Holt, 1924.

(٢)

McDougall, William: Outline of Psychol, New York. Scribner, 1923, p. 110.

(٣)

وبالتالى كان من الممكن أن تسند إليها من الصفات ما نشاء ، عندما يستلزم الأمر ذلك ، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان إلى أن أحداً لن يستطيع أن يثبت غير ما نقول . فأنت إذا كنت « مؤمناً » بوجود « الفرائز » كأسباب مسعولة عن السلوك فسوف يسهل عليك عندئذ أن تعزو أى ظاهرة سلوكية إلى « قوة غريزية » . ومن ذا الذى يستطيع أن يراجعك فى ذلك ما دمت تتحدث عن قوة خفية ؟! فالإنسان يعتدى لأن عنده غريزة العدوان وهو يهرب لأن عنده غريزة الهرب ويجمع بالآخرين لأن عنده غريزة القطيع ... وهكذا .. وحتى إذا ما ثبت أن الإنسان فى مكان ما من سطح الأرض لا يبدى من المظاهر السلوكية ما « يؤيد » وجود هذه الفرائز ، فإن ذلك لا يضير « المؤمنين » بالنظرية ، ولا يدعو إلى إحراجهم . فالجواب عندئذ بسيط ويتوقف على الحالة نفسها . فإذا كانت الدراسات الانثربولوجية^(١) قد أوضحت مثلاً أن بعض القبائل لا يعرف إلى العدوان سبيلاً ، أو أن البعض الآخر لا يبدى نحو أبنائه من مظاهر الأمومة (التى نعرفها فى هذه الحضارة) ما نبديه نحن ، فإن مثل هذه الدراسات لا يمحرج أصحاب نظرية الفرائز ، لأن الجواب فى هذه الحالة هو أن الغريزة موجودة وكل ما هنالك أنها كامنة ، أو أن الغريزة قد تعدلت فهى « مرنة » جداً عند الإنسان وشديدة التأثير بظروف البيئة !

فالفرائز إذن - باعتبارها تكوينات غير قابلة للملاحظة - تساعدنا طبيعتها الغيبية هذه على أن « توجد » إذا وجد ما يؤيدها من المظهر السلوكى و « تكمن » إذا اختفى ما يؤيد وجودها ، وتزداد قوة إذا قوى المظهر السلوكى وتضعف إذا ما ضعف ... وهكذا . فهذا الطفل شديد العدوان لأن غريزة العدوان عنده قوية . وذاك لا يميل إلى العدوان لأن غريزة العدوان عنده ضعيفة . والأطفال فى مرحلة معينة يميلون إلى القيام بعملية المص لأن الغريزة الجنسية تكون مركزة عند أقواهم ، وفى مرحلة أخرى يميلون إلى العبث بأعضائهم التناسلية لأن الغريزة الجنسية تتركز عندئذ حول هذه الأعضاء ، وفى مرحلة أخرى يبدون عدم اهتمام بهذه الأمور الجنسية لأن الغريزة الجنسية تكون عندئذ فى مرحلة « كمون » . وإذا ظهر أن شخصاً ما يبدى من المظاهر السلوكية ما يعتبر مميزاً لمرحلة متقدمة عن تلك التى يمر بها حسب هذه الفروض ، فلأن الغريزة الجنسية عند هذا الشخص قد « ثبتت » لديه عند هذه المرحلة المتقدمة ، ولم « تتم » كالمعتاد فى طريق التطور الطبيعى المرسوم لها^(٢) .

(١) راجع مثلاً كتب :

Margaret Mead: Sex and Temperament. The New American Library, New York. 1950.

(٢) راجع نظرية التحليل النفسى .

وهكذا يتضح أن الأمر جميعه يسر في سهولة ويسر فليس على صاحب نظرية الفرائز - بعد أن افترض وجودها - إلا أن يسند إليها أى صفة من الصفات حسب مقتضى الحال ، وهو في مأمن من الوقوع في أى تناقض ما دام هذا التكوين الفرضى غير قابل للتحقيق وما دامت ملاحظته بشكل مباشر أو وضعه تحت الحواس أمر مستحيل .

على أى ثمة مدافع عن هذا النوع من التفسيرات يقول « حقاً إننا لا نستطيع أن نلاحظ الفرائز بشكل مباشر ولكن ذلك لا يعنى أنها غير موجودة . فنحن نستطيع أن نستنتج وجودها من مظاهرها . إننا نلاحظ كلا من الحيوان والإنسان ثم نقودنا ملاحظتنا هذه إلى التسليم بوجود الفرائز . مثلنا في ذلك تماماً كمثلنا عندما نتحدث عن الكهرباء . فنحن لا نرى الكهرباء مباشرة ولكننا نرى فقط آثارها . كذلك فإن الفرائز لا تلاحظ بشكل مباشر ولكننا نستنتجها من آثارها » .

والمغالطة هنا واضحة وخطيرة . فليس هناك أى وجه شبه بين مفهوم الكهرباء ومفهوم الفريزة . فالأول يلخص لنا علاقة من مجموعتين من المتغيرات : المجموعة الأولى هي تلك الظروف والأشياء التي نرتبها بشكل معين عندما نريد أن « ننتج » أو « نولد كهرباء » والمجموعة الثانية هي « الآثار » أو النتائج المترتبة على هذه المقدمات السببية الضرورية لإحداث الكهرباء . بمعنى آخر هناك في محطة توليد الكهرباء مثلاً تلف آلاف من ملفات سلكية ... حول قالب من الحديد المطاوع ، وتقطع خطوط القوى ، ويحرك الملف تربين بخارى أو مائى ... الخ^(١) . فتكون النتيجة هي أننا نحصل من هذه العمليات أو الإجراءات ، على ظواهر معينة كالضوء أو الحرارة أو الحركة الخ . والإجراءات التي تحدث في محطة التوليد هي التي نسميها بالظروف أو المقدمات السببية . وهذه عبارة عن متغيرات مستقلة^(٢) خارجة عن الظاهرة ذاتها (التي هي الضوء أو الحرارة) ، ويعتبر وجودها مسئولاً عن حدوث هذه الظواهر . كما أنها - أى هذه المتغيرات - هي عبارة عن أشياء محسوسة وقابلة للملاحظة والتناول . وإذا تناولناها بشكل معين يترتب عليها نتائج معينة هي المتغيرات التابعة . ومفهوم الكهرباء يلخص لنا جميع هذه العمليات ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بكلا الطرفين من الظواهر أو المتغيرات . فيرتبط من ناحية بمجموعة المتغيرات التابعة ، ومن ناحية أخرى بمجموعة المتغيرات المستقلة . فعندما نقول مثلاً إن الطاقة الكهربائية المتولدة عندنا مقدارها كذا أو كذا ، فإننا نعلم بالضبط ما هي الإجراءات أو العمليات التي قمنا بها ، وكذلك ما هي الظروف التي وفرناها ، حتى نحصل على مثل هذا

(١) راجع أى كتاب في الطبيعة النظرية .

(٢) انظر ص (٢٩) .

المقدار من « الطاقة الكهربائية » . (من مرعة قطع خطوط القوى إلى عدد لفات السلك في الملف إلى شدة المجال المغناطيسى إلى غير ذلك) . ومن ناحية أخرى يمكننا أن نحدد بالضبط ما هي النتائج أو الآثار التي يمكن أن تترتب على وجود هذه الطاقة : من حركة موتور لآلة غسل الملابس مثلاً إلى تسخين مكواة كهربائية إلى غير ذلك . فمفهوم الكهرباء (الطاقة أو التيار الكهربائي) يستند إذن من ناحية إلى مجموعة من المتغيرات المستقلة ومن ناحية أخرى إلى مجموعة من المتغيرات التابعة . ويلخص لنا مفهوم الكهرباء العلاقة بين هذين النوعين من المتغيرات بطريقة تمكنا من التحكم في الظواهر (الكهربائية) في الاتجاه الذي نريده .

فهل نجد هذه الخصائص في مفهوم الغريزة ؟ من الواضح أن مفهوم الغريزة لا يستند إلى ظروف محددة تمثل مجموعة من المتغيرات المستقلة التي يمكن أن نغزو إليها السلوك . فالغريزة في التعريف « تكوين نفسى عصى ... » أو « استعداد » فإذا سألنا ما هو التكوين النفسى العصى أو ما هو الاستعداد ؟ وكيف نلاحظه ؟ كان الجواب بأن « فرض » وليس شيئاً ، وأتينا نلاحظه في السلوك . وقد رأينا أن « الفرض » العلمى هو الذى يقرر علاقة بين مجموعتين من المتغيرات كلاهما قابل للملاحظة ، بحيث يمكن إخضاع الفرض للتحقيق . فكيف يمكن إخضاع فرض الفرائز في هذه الحالة للتحقيق ؟ قد يقال في الإجابة على ذلك إننا نتحقق من وجود الفرائز بملاحظة السلوك . ولكن ما الذى نلاحظه في السلوك عندما نجد مثلاً أن الناس تتعدى أو أنها تخاف أو أنها تتجمع ؟ ما الذى نضيفه إلى الظاهرة السلوكية من حيث فهمنا لها ، عندما نقول إن الناس تتعدى لأن عندها غريزة العدوان وغريزة العدوان ملاحظة في السلوك العدواني ؟ إن التفسير في هذه الحالة لا يخرج عن الظاهرة نفسها وقد رأينا أن التفسير العلمى معناه الربط بين الظاهرة من ناحية ، وبين متغيرات وظروف أخرى خارجة عن الظاهرة من ناحية أخرى . ويعتبر وجود الثانية مسؤولاً عن حدوث الأولى . بمعنى أن الأولى توجد إذا وجدت الثانية ، وتغيب إذا غابت ، وتزيد أو تنقص إذا زادت أو نقصت . وباختصار فإننا نبحث لتفسير الظاهرة عن ظروف نستطيع أن نستنتج الظاهرة منها وليس العكس . أو بمعنى آخر فإن المقروض أن نتبأ بحدوث الظاهرة مقدماً من المتغيرات المستقلة المرتبطة بها وليس العكس كما هو الحال في نظرية الفرائز .

الفرائز إذن لا تفسر إذ أنها لا تضع أيدينا على متغيرات مستقلة مسؤولة عن حدوث الظاهرة السلوكية ، متغيرات يمكن أن نربطها بهذه الظاهرة في علاقة وظيفية معينة . والواقع أن قصور نظرية الفرائز عن تحقيق هذا الهدف أمر طبيعى يمكن أن يستنتج من مفهوم الغريزة نفسه . فإذا حللنا مفهوم الغريزة تحليلاً صحيحاً نجد أنه لا يعنى أكثر من مجرد تسمية الظاهرة

المراد تفسيرها . وهذا الأسلوب هو نوع من المغالطة المنتشرة في العلوم الاجتماعية إلى حد كبير ، والتي حان الوقت إلى أن ننبه لها ، حتى لا نظن أننا قد فسرنا في الوقت الذي يكون « تفسيرنا » فيه هو مجرد الاعتراف بجهلنا . فكل نشاط سلوكي لم يكن له تفسير واضح أو كنا نجعل أسبابه سمي غريزة ، واعتبرت هذه التسمية ذاتها مسئولة عن النشاط المراد تفسيره ١ . ولتأخذ سلوكا « كالعنوان » مثلا . إن كل ما يلاحظه أصحاب نظرية الغرائز في هذه الحالة هو أن فرداً أو أفرادا « يعتدون » على أفراد آخرين ، فيقول عندئذ « هو يعتدى » . وقد يريد صاحب نظرية الغرائز بعد ذلك أن يصف هذا الشخص الذي يعتدى فيقول : أنه « عدواني » . ثم قد يريد بعد ذلك أن يتحدث عن هذا السلوك في أحوال متعددة وبشكل مجرد فيتحدث عندئذ عن « العدوان » . ولكن صاحب نظرية الغرائز لا يقف عند هذا الحد . إنه يجعل لهذا « العدوان » ، وهو المفهوم الذي استخلصه من ملاحظاته الجيزية ، أو المعنى الذي جرده من الأمثلة العينية للسلوك العدواني ، يجعل له كياناً أو وجوداً في ذاته . ثم يقرنه بكلمة « غريزة » ويجعل منه « سبباً » للسلوك الذي جرده منه . وأخيراً يجعل لهذا « السبب » مكاناً خاصاً في الكائن الحي . مكاناً غير معروف بالطبع . مثل صاحب نظرية الغرائز في هذه الحالة كمثل الميتافيزيقي الذي كان يجعل من المعاني المجردة قوى خارقة للطبيعة ثم يحلها في الطبيعة ويجعلها مسئولة عن ظواهرها وأحداثها^(١) .

فكأن الغرائز إذن ما هي إلا تمجيد للمعاني التي تعبر عن تصنيفات معينة أو أنواع معينة للسلوك . إنها تسمية أخرى للنشاط الذي نريد أن نفسره . فعندما نقول مثلا : فلان « يأكل » لأنه « جائع » (أى بسبب غريزة الجوع) ، أو فلان يعتدى بسبب غريزة العدوان ... الخ . فإننا نبدو كما لو كنا نشير إلى أسباب . ولكننا في الواقع لا نضيف بهذا أى جديد إلى الظاهرة . فالعبرة « هو يأكل » والعبرة « هو جائع » إنما تصفان نفس الحقيقة ، وتعبيران عن نفس الوقائع الملاحظة . كذلك العبرة « هو يعتدى » و « هو عدواني » . ولا تضيف كلمة « عدواني » أو « جائع » أو غريزة العدوان أو غريزة الجوع عن الطعم (الجوع) ، لا تضيف هذه « الكلملت » جديداً إلى الظاهرة المراد تفسيرها . فما هي إلا تصنيفات لفئات مختلفة أو أنواع معينة من السلوك . والمهم هنا هو أننا عندما نعتبر هذه التصنيفات أو هذه التجريدات اللفظية أسباباً للسلوك فإننا نضل أنفسنا . إذ نظن أننا قد وجدنا الحل ، فيغض ذلك أعيننا ويقعدنا عن البحث عن الأسباب الحقيقية للسلوك . إن مثل هذا التفسير يضع حداً للبحث العلمي ولا يسمح بالاستمرار فيه ، بل يطلق الباب تماماً

(١) انظر ص ١٥ .

في سبيله ، كل ذلك دون أن ندرى أن ما حسبناه أسباباً ما هو إلا غيبيات لا وجود لها في الواقع .

والخطورة في مثل هذا التفسير أيضاً أنه لا يحقق أهداف العلم الأخرى فهو لا يسمح لنا بالتنبؤ ؛ إذ لا يضع أيدينا على ظروف مستقلة يمكن أن نعتبرها مقدمات سببية ضرورية للسلوك . وقد سبق أن رأينا أن قدرتنا على التنبؤ تزداد كلما اتضحت العلاقة بين الظاهرة من ناحية وبين أسبابها ومقدماتها السببية من ناحية أخرى . أما في حالة الفرائز ، فإن الوضع معكوس ، إننا ننتظر حتى يتم السلوك . ثم نقول إنه حدث بسبب غريزة كذا أو كذا . فإذا تم كانت الغريزة موجودة ؛ فإذا لم يتم فإن الغريزة كامنة ، وهكذا ... فظريّة الفرائز إذن لا تمكّتنا من التنبؤ بحدوث السلوك مقدماً ، وهذا التنبؤ - كما سبق أن بينا - هدف أساسي من أهداف العلم .

كذلك لا تفيدنا نظرية الفرائز من حيث القدرة على التحكم في السلوك ، وهو الهدف النهائي من أي تفسير علمي . ولكي نوضح هذه الفكرة نضرب مثلاً بسيطاً لغريزة الهجرة : فقد وجد مثلاً أن سمك السلامون يضع بيضه عند منابع المجرى المائية ، وبعد عملية الفقس تمضي الصغار السنة الأولى من عمرها في هذه الأماكن ، ثم تبدأ في السنة الثانية تهاجر إلى مصبات هذه المجرى المائية حتى تصل إلى المحيط ، وعندما يصل عمرها إلى أربع أو خمس سنوات تبدأ هذه الأسماك في الرجوع ثانية إلى المنابع التي سبق أن ولدت فيها . تفسر هذا نظرية الفرائز بأن تقول أن الأسماك تسلك على هذا النحو يدافع غريزة الهجرة . ومثل هذا التفسير بالطبع لا يفيدنا من حيث التحكم في سلوك الأسماك ذلك أننا سوف نقف مكتوفي اليدين أمام هذه الظاهرة التي نعزوها إلى شيء « طبيعي » في السمك ذاته نسميه غريزة الهجرة . وما دمنا لا نستطيع أن نضع أيدينا ، بناء على هذا التفسير ، على عوامل محددة نستطيع أن نتناولها بالتعديل والتغيير ، فسوف تظل الظاهرة (وهي الهجرة) خارجة عن نطاق تحكمنا . ولكن لندرك الآن ماذا أسفر عنه البحث العلمي من تفسير لهذه الظاهرة ؛ ذلك البحث الذي كانت وجهته بالطبع الوصول إلى عوامل أو متغيرات محددة لتفسير السلوك . ظهر من البحث أن سمك السلامون يتشر على جسمه ، تحت جلدة مباشرة ، خلايا حساسة للضوء . ففي أثناء السنة الثانية من حياته تخفى معظم الطبقة الجلدية التي تغطي هذه الخلايا ، فتعرض الخلايا للضوء مباشرة ، ويكون نتيجة ذلك ، وتكيفاً مع هذه الظروف الجديدة ، أن يتجه السمك إلى المياه العميقة حتى يخفى في هذه المياه عن الضوء الذي يؤثر عليه . ويقوده ذلك إلى مصبات الأنهار حيث يجد العمق الذي يخفيه عن الضوء مبتعداً عن مياه المنابع الضحلة ، التي تعرضه له . وعندما يصل السمك إلى سن الرابعة أو

الخامسة يتعرض لتغيرات أخرى في جسمه تجعله في حاجة إلى كمية أكبر من الأكسجين ، وعلى ذلك يتعد عن مياه المحيط التي تقل كمية الأكسجين فيها ، ويتجه إلى منابع الأنهار مرة أخرى حيث يجد مطلبه من الأكسجين . ولا شك أن مثل هذا التفسير يعطينا فرصة للتحكم في سلوك السمك إذا أردنا أن نحتفظ به سواء عند منابع الأنهار أو عند مصباتها . ذلك أننا بعد أن نعرف الظروف اللازمة لمعيشة السمك في مكان ما ، نستطيع أن نوفر هذه الظروف فتغير بذلك في سلوك السمك من حيث الهجرة .

الخلاصة إذن أن مفهوم الغريزة كمثال للمفهوم الغيبية ذات الصبغة النفسية لا يفيدنا في التفسير أو في التنبؤ أو في التحكم ، وهي أهداف العلم الثلاثة . هذا إلى جانب أنه مفهوم عقيم لا يسمح باستمرار البحث العلمي ؛ ذلك أنه لا يضع أيدينا على ظروف محددة ، ومن ثم فإنه يحكم طبيعته هذه لا يسمح بأي تحقيق علمي . والواقع أن الغرائز كما سبق أن قلنا لا تعبر إلا عن تصنيفات للسلوك من حيث أهدافه القريبة أو البعيدة تبعاً لوجهة نظر صاحب النظرية . ولعل هذا هو السبب في تعدد تقسيمات الغرائز . فكلما بعدت الغاية قل عدد الغرائز وكلما قربت زاد العدد . فقد كان فرويد مثلاً يعتبر أن الغاية الأساسية من حياة الكائن الحي هي الحصول على الراحة والاستمتاع بشكل أولى ، ولذا كانت الغريزة الأساسية في نظره هي الغريزة الجنسية . والذين كانوا يرون أن هناك غائتين بيولوجيتين أساسيتين يتجه إليهما سلوك الفرد ، هما المحافظة على الذات والمحافظة على النوع ، كانوا يقسمون الغرائز إلى غريزة المحافظة على الفرد وغريزة التكاثر أو المحافظة على النوع . والذين نظروا إلى الأهداف القريبة لسلوك الكائن الحي مثل مكولوجال كانوا يقسمون الغرائز إلى عدد أكبر ، وهكذا . ولا ضرر بالطبع كما ذكرنا من قبل من تصنيف السلوك تبعاً لأي الأهداف ؛ ولكن الخطر كل الخطر هو أن نجعل من هذه الأهداف أو من هذه التصنيفات أسباباً . وإن من الأفضل من وجهة نظر المنهج العلمي أن نقر بأننا على جهل تام بالأسباب أو الدوافع الحقيقية التي تكمن وراء عملية كعملية بناء العش عند العصفور مثلاً ، من أن نرجع هذه العملية إلى « غريزة » لا تعنى سوى الكلمة التي تدل على اسم العملية نفسها .

أمثلة أخرى للتكوينات الغيبية ذات الصبغة النفسية :

والأمثلة الأخرى لمثل هذه التكوينات الغيبية عديدة إذا كنا بصدد ما يعتبر في أغلب الأحيان أسباباً للسلوك . وسوف لا نطيل الحديث عن هذه الأمثلة ، فكل ما قيل عن الغرائز يمكن أن يقال عن هذه الأسباب الأخرى أيضاً . وقد أردنا بذكرها هنا أن نلفت النظر إلى بعض التفسيرات الشائعة التي قد تضللنا في طريقنا إلى البحث عن الأسباب الحقيقية للسلوك .

ومن هذه الأمثلة « القدرات » كعوامل مسئولة عن التحصيل أو الإنتاج العقلي . فإذا كنت مؤمناً بوجود القدرات ، فسوف يسهل عليك عندئذ أن تعزو أى تحصيل إلى وجود قدرة معينة تسمى باسم هذا النوع من التحصيل . فإذا ما نما هذا التحصيل فلأن القدرة تنمو ، وإذا ما خمد فلأن القدرة تضعف . بل حتى إذ ثبت أن هناك من الظروف البيئية ما يؤثر في هذا التحصيل بالزيادة مثلاً ، فإن ذلك لا ينقض القول بوجود القدرة ، فالقدرة كانت موجودة وإن كانت كامنة ، وكل ما فعلته البيئة هو أنها « شحنت » ما هو كامن . بل الأعجب من ذلك ما فعله البعض أحياناً من تحديد نسب مفقود لدى تأثير القدرة ومدى تأثير البيئة ، فيقول مثلاً إن القدرة أو الاستعداد الموروثة يعتبر مسئولاً عن ٧٥٪ من التحصيل وأن البيئة تؤثر بمقدار ٢٥٪ . ولا سبيل إلى تحقيق أى فرض من هذه للفروض بالطبع . ذلك أنها كما سبق أن بينا فروض غيبية لا تعبر إلا عن تصنيفات لأنواع السلوك المختلفة . فالعوامل والقدرات والذكاء وسمات الشخصية ، كل هذه لا تمثل إلا تصنيفات للسلوك لا يمكن أن نعتبرها مسئولة عنه . ولا يمكن أن نرضى بها تفسيرات علمية . فمثل هذه التكوينات لا تخضع للملاحظة المباشرة ولا نتخذ لنا متغيرات يمكن أن تكون موضوعاً للملاحظة المباشرة .

حقاً إن كثيراً من الناس يعتقدون أنه يمكنهم أن يلاحظوا « أنفسهم » أو « حالاتهم العقلية والنفسية » بشكل مباشر ، فيلاحظون ما يدور بأنفسهم مثلاً في أثناء حل المشكلات أو في غير ذلك من الأحوال . إلا أن مثل هذه الملاحظة « الداخلية » لا تمدنا بأى معلومات عن الحوادث والأحداث التي تعتبر مقدمات سببية ضرورية لحدوث الظاهرة السلوكية . بل إن ما تمدنا به هو بعض المعلومات عن مصاحبات السلوك الظاهري ، وهذه المصاحبات هي ذاتها استجابات أو سلوك في حاجة إلى تفسير ، أى أنها تتلجج وليست مقدمات سببية .

فإذا أخذنا القدرات أو الذكاء أو العوامل مثلاً ، نجد أنها ليست سوى تجريدات لنتائج مجموعة من الاختبارات التي تقيس مظاهر سلوكية معينة . فلا معنى إذن لأن نفترض وجود كيان مستقل لهذه التجريدات أو المعاني المجردة ، نسند إليها بعد ذلك صفة السببية أو صفة الفاعلية أو صفة التأثير . وبعبارة أخرى فإن العوامل أو القدرات أو الذكاء ليست أشياء وليست أحداثاً مستقلة عن الظاهرة السلوكية . وليست حتى « خواص كامنة » في « المادة » على النحو قد الذي يتصور عن « طبيعتها » . ليست العوامل أو القدرات منابع أو مصادر للسلوك ، وإنما هي تلخيص لمجموعة من العلاقات أو التداخل بين متغيرات سلوكية متنوعة . أو تلخيص لاشتراكيات بين وحدات سلوكية مختلفة . وهى بهذا المعنى لا تصيب أى قدر من « الحقيقة » أو « الواقع » أو الوجود المستقل عن هذه الوحدات أو عن هذه المتغيرات أكثر مما يصيبه أى مفهوم آخر .

والعوامل أو القدرات بهذا المعنى هي التي تعتمد على المتغيرات التي استخلصت منها وليس العكس . فالذي يحدد ظهور « العوامل » مثلاً هو الأساس المنطقي الذي اختيرت عليه المواقف التي يستجيب لها الأفراد . فتخضع العوامل في درجة عموميتها أو خصوصيتها ، أو بمعنى آخر في عددها ، لهذا التحديد السابق . إذ بقدر ما هناك من علاقات بين أنواع السلوك موضوع القياس ، بقدر ما تكون عمومية العوامل المستخلصة ، وبالعكس .

وباختصار فإن العوامل أو القدرات أو الذكاء لا تعدو كونها وصفاً ، بعضه إحصائي كمي ، وبعضه كيفي ، للصفات العامة التي تشترك فيها وحدات سلوكية مختلفة ، أو بمعنى آخر ، هي تسمية أخرى للظاهرة التي نريد أن نفسرها وليست تفسيراً لها . ومهما كان هذا الوصف دقيقاً فإن ذلك لا يضيف شيئاً إلى تفسير التنظيمات السلوكية موضوع الوصف . فإذا قلنا مثلاً « هو يعزف الموسيقى جيداً لأنه ممتاز في القدرة الموسيقية » أو « هو ممتاز في الحساب لأن عنده القدرة العددية بدرجة عالية » أو « هو ماهر في الهندسة بسبب قدرته الهندسية » ، إذا قلنا عبارات مثل هذه فإننا في الواقع نكرر في العبارة الثانية نفس المعنى الوارد في العبارة الأولى ، وإن كان ذلك بالفاظ أخرى . إذ ما الفرق بين « هو ممتاز في القدرة على الأداء الموسيقي » و « هو يؤدي الموسيقى جيداً » ؟ ! إنها نفس الحقيقة نعبّر عنها مرتين بعبارتين مختلفتين . ومع ذلك فإننا قد نظن أحياناً أن العبارة الأولى تتحدث عن سبب وأن العبارة الثانية تتحدث عن نتيجة .

ويمكن أن نطبق نفس المنطق على فكرة السمات عندما تؤخذ أحياناً على أنها أسباب للسلوك . إذ يقرر البورت مثلاً أن السمة « نظام نفس عصبي مركزي عام (خاص بالفرد) يعمل على جعل المثيرات المتعددة متساوية وظيفياً ، كما يعمل على إصدار وتوجيه أشكال متساوية من السلوك التكيفي والتعبيري »^(١) . وهذا معناه إسناد السمات إلى الشخص كما لو كانت هذه السمات أشياء أو مكونات معينة تكمن في مكان ما من الشخص ، ثم جعل هذه السمة سبباً مسؤولاً عن سلوك ذلك الشخص . والواقع أن الشخص لا يملك الخجل مثلاً ، وليس الخجل شيئاً موجوداً بداخل الفرد الذي يتصف به . وكذلك الشأن في أي سمة أخرى يمكن أن يتصف بها فرد ما . ولكن الخجل أو غيره ما هو إلا صفة مجردة يمكن أن يتصف بها سلوك شخص ما تحت ظروف معينة وفي مواقف معينة . مثلها في ذلك مثل الغرائز والقدرات . فالشخص في تلك المواقف يسلك سلوكاً نصفه نحن بأنه خجل مثلاً . فكلمة خجل إذن ما هي إلا تعبير آخر عن نفس الحقيقة ووصف للسلوك المراد تفسيره . وليس

Allport, G.W.: Personality; A Psychological Interpretation, New York, Holt, 1937 (١)

للخجل بعد ذلك ، كمنى مجرد ، أى وجود مستقل عن سلوك ذلك الشخص ، ولا يدلنا على أى متغيرات مستقلة يمكن أن نعتبرها مقدمات سببية ضرورية لذلك السلوك .

تلك هى بعض الأمثلة للتفسيرات السيكلوجية التى تستعين بتكوينات غيبية ذات صبغة نفسية ، وتجعل منها أسباباً للسلوك . وقد رأينا أنها تشترك جميعاً فى أنها لا يمكن أن تحقق أهداف العلم من فهم وتنبؤ وتحكم ، كما أنها تقف حائلاً دون إمكانية التحقيق والبحث العلمى . ولذلك لا يمكن اعتبارها تفسيرات علمية . بل على العكس يجب أن نخبر من خطر الوقوع فى مثل هذا الخطأ فى التفسير ، خطأ تحول الكلمة ، بفعل السحر ، إلى سبب . ذلك أن هذا الخطأ ينتشر دائماً مع الجهل بالأسباب الحقيقة أو عدم الاستعداد لمواجهةها .

على أن لهذا النوع من التفسيرات وجه آخر . ذلك أن السلوك أو الصفات السلوكية التى تصدق عليها هذه التكوينات ، تفسر على أنها موروثية . أى أنها تنتقل إلى الفرد عن طريق الوراثة دون أن يكون للبيئة أو للتفاعل معها دخل فى نشأة أو نمو ذلك السلوك . وسوف نتعرض لفكرة الوراثة فى الفصل التالى لنبين مدى القيمة العلمية لمثل ذلك التفسير وكذلك مدى صحته التجريبية .

الفصل الثامن

أسباب « جسمية داخلية »

لقد اعتبر الجسم وأحواله وعملياته الداخلية ، سواء كانت واقعية تجريبية أم خيالية غيبية ، اعتباراً أسباباً للسلوك في كثير من الأحيان ، وفسر السلوك على أساس وجود عمليات أو تكوينات فسيولوجية وعلى الأخص عصبية . ولم يكن هذا النوع من التفسيرات من صنع الفسيولوجى الحديث أو عالم النفس الحديث فحسب ، بل كان أيضاً من عمل الفسيولوجى القديم ، وكذلك من تقاليد رجل الشارع .

ويلجأ رجل الشارع إلى الجهاز العصبى أو غيره كثيراً ، باعتباره سبباً مباشراً للسلوك أو باعتباره المصدر الذى يجد فيه تفسير الظاهرة السلوكية . وفي اللغة أمثلة كثيرة توضح ذلك . فهناك مئات التعبيرات التى تتضمن وجود هذه الصلة السببية بين الجهاز العصبى أو غيره من ناحية ، وبين السلوك من ناحية أخرى . فبعد ليلة مؤرقة مثلاً يقرر بعضهم أنه كان على وشك الانفجار بسبب « أعصابه التعبة » . أو يقرر البعض الآخر مثلاً أن زوجة المتهم كانت على وشك « الانهيار العصبى » بعد جلسة طويلة من المحاكمة . أو أن فلاناً لم يستخدم « مخه » فى التصرف فى الموقف القلائى الذى لم يحسن - فى رأيه - التصرف فيه . أو أنه لاحظ أن صديقه هذا « أعصابه » اليوم « متوترة » لكثرة سوررات غضبه وعدم قدرته على الاستقرار . أو أن تقرر عن أحدهم أن « دمه فاير » عندما يغضب بسرعة . أو أن « دمه بارد » عندما يكون هادئاً ، وهكذا .

تلك وغيرها من العبارات تمثل لنا كيف أن « المخ » أو « الأعصاب » أو « الدم » قد تتخذ أحياناً أسباباً يفسر بها السلوك ، ولو أن رجل الشارع بالطبع لم يقيم فى أى من هذه الأحوال بعملية ملاحظة مباشرة للجهاز العصبى أو للمخ أو للدم ، يمكن أن يستند إليها لكى يقوم بمثل هذا التفسير . ولكنها الحاجة إلى إعطاء سند مادى محسوس ، إلى ما قد يبدو بدون هذا السند تفسيراً سطحيّاً ، هى التى تدفع رجل الشارع إلى القيام بهذا النوع من التفسيرات للظواهر السلوكية . ويبدو أن الذى يشجع رجل الشارع على اللجوء إلى مثل هذه

التفسيرات هو النظريات العلمية التي تسود في وقت من الأوقات . على أن النظريات العلمية سواء قديمها أو حديثها ، فيما يتعلق بهذه الناحية ، لم تذهب بعيداً عما ذهب إليه رجل الشارع . ذلك أن القيمة العلمية للمفاهيم أو الأسباب التي استخدمتها هذه النظريات في التفسير ، لا تزيد كثيراً عن القيمة العلمية للمحاولات التفسيرية التي رأينا أمثلة لها في العبارات السابقة .

وتنقسم التفسيرات التي تقوم على أساس افتراض وجود أسباب جسمية داخلية ، فسيولوجية أو عصبية أو غيرها ، تنقسم هذه التفسيرات إلى نوعين : النوع الأول هو الذي الذي يعلل السلوك أو يفسره بعمليات فسيولوجية يمكن ملاحظتها تجريبياً . والنوع الثاني هو الذي الذي يفترض وجود تكوينات ذات صبغة فسيولوجية أو بيولوجية لا يمكن التحقق منها تجريبياً .

والنوع الأول يمثل محاولات علم وظائف الأعضاء وعلم الأعصاب في تفسير السلوك عن طريق اكتشاف العمليات المباشرة التي تتم في الجهاز العصبي أو في غيره من الأجهزة الجسمية . مما يقترن وقوعه مع حدوث استجابات معينة ، أو أنواع معينة من السلوك . ومن أمثلة هذه المحاولات ، محاولة تفسير رؤية الألوان بأنها نتيجة لنشاط المخروطات الموجودة في شبكية العين ، وأن الإحساس بالأبيض والأسود ناتج عن نشاط العصبين الموجودة في شبكية العين ، والتي تنبثها التغيرات الكيميائية الناشئة عن وقوع الضوء على المادة في العين المسماة بأرجواني البصر . ومن هذه المحاولات كذلك محاولة تفسير الدافع إلى الطعام بأنه ناتج عن تقلصات تحدث في المعدة . ومحاولة تفسير التعب أو ضياع القابلية للاستجابة العضلية ، بأنه ناتج عن التجمع السريع لمواد الفضلات عند نقطة الاتصال بين العصب والعضلة على وجه الأنخص . فالألياف العضلية كخلايا الجسم جميعها ، تستطيع أداء عملها بواسطة احتراق وقود خاص تقوم بصنعه من الطعام الذي يصلها عن طريق الدم . فإذا جرى النشاط العضلي على نحو مسرف ، كما يحدث من التبييه الكهربائي المتصل بعضلة ضفدع عن طريق العصب الحركي المصاحب ، فاقت سرعة الانقسام الذي يقع في ذرات الوقود نتيجة للنشاط ، سرعة احتراقها بواسطة اكسجين الدم ، فتتجمع المواد السامة الناتجة عن هذا الاحتراق الجزئي على العضلة ، وتلوث اتصالها بالجهاز العصبي المركزي . وإن هذا النظام الذي يعد بمثابة « المزيج العازل » هو الذي يؤدي إلى الفصل بين المنبه والاستجابة في طريق تحول « التيار الحسي » إلى « تيار حركي »^(١) .

(١) انظر أي كتاب في علم النفس الفسيولوجي كالجزء الخامس بعلم النفس الفسيولوجي في كتاب ميلادين علم النفس تأليف جيلفورد - ترجمة بإشراف يوسف مراد - دار المعارف بمصر ١٩٥٦ .

هذه أمثلة من محاولة تفسير السلوك بناء على ما يصاحبه من عمليات فسيولوجية واقعية تجريبية . والواقع أن معلوماتنا حتى الآن عن هذه العمليات محدودة جداً بحيث لا تتعدى دائرة الحواس والأفعال المنعكسة . على أن هنا التحديد ليس هو المشكلة . فسوف يأتي اليوم الذي يستطيع فيه علم وظائف الأعضاء ، وخاصة فيما يتعلق بالجهاز العصبي ، أن يعرف على وجه التحديد الأحوال والعمليات العصبية التي تسبق مباشرة استجابة مثل الاستجابة اللفظية « أشكرك » مثلاً ، أو غيرها أو غيرها من الاستجابات . فلقد أصبح في متناول العلم الآن الكثير من المعلومات المباشرة عن العمليات الفسيولوجية ، وخاصة التغيرات الكيميائية والكهربائية التي تحدث في الجهاز العصبي . ويمكننا أن نتصور أنه بتقديم العلم سوف يصبح تحديد هذه التغيرات الفسيولوجية التي تسبق أو تصاحب السلوك ، في إمكان العالم بدرجة أكبر وأدق بكثير جداً ما هي عليه الآن . ولكن المشكلة في أن مثل هذه التفسيرات الفسيولوجية تعتمد على نوع من الدور . فالعمليات الفسيولوجية التي تسبق السلوك مباشرة تعتمد هي الأخرى على عمليات تسبقها ، وهذه على ثالثة وهكذا ، حتى نصل إلى أحداث أو عمليات تقع خارج الكائن الحي بأجمعه أى تحدث في البيئة المحيطة به . فإذا فسرنا مثلاً البحث عن الطعام عن طريق العمليات الفسيولوجية التي تحدث في المعدة فإننا يمكن أن نسأل بعد ذلك « وما الذي يسبب هذه التقلصات ؟ » . وهنا لابد لنا من أن نبحث عن عمليات تحدث خارج الكائن الحي ، وهي الحرمان من الطعام ، وغير ذلك من العمليات التي لا تتم في دائرة الكائن الحي كله . وإذا كان من الملاحظ أن زيادة إفراز الغدة الدرقية ، يكون مصحوباً بعدم الاستقرار وسرعة التبيح وغير ذلك من المظاهر السلوكية ، فإنه يمكن أن نسأل بعد ذلك « وما الذي يؤدي إلى زيادة إفراز الغدة الدرقية ؟ » ولا نستطيع أن نجد إجابة شافية إلا في العمليات والأحداث التي يتعرض لها الكائن الحي ، والتي تحدث خارجه ، سواء في حاضره أو في ماضيه . فالتسلسل إذن في الأحداث الفسيولوجية التي تسبق السلوك مباشرة لابد وأن يؤدي بنا في النهاية إلى خارج الكائن الحي إذا أردنا أن نصل إلى المتغيرات المستقلة التي يمكن أن تعتبر بحق مسئولة عن السلوك .

وإلى جانب ذلك فإن هذه التفسيرات الفسيولوجية إنما تمدنا بأحوال تحدث بداخل الجسم . وسواء كانت هذه العمليات عبارة عن تغيرات كيميائية أم عمليات بيولوجية أم تغيرات كهربائية ، فإنها لا تكون في أغلب الأحيان في متناول الملاحظة أو الملاحظة في اللحظة التي نريد فيها أن نحصل عليها لكي نتنبأ بسلوك معين . والأصعب من ذلك هو أنه لا يمكننا أن نقوم بأي تغيير أو تعديل مباشر في الجهاز العصبي مثلاً عندما يكون هدفنا هو التحكم في ذلك السلوك . ولتأخذ مثلاً سلوكاً كشرب كوب من الماء . هذا المثال وإن كان لا يمثل فعلاً هاماً في حياة الفرد إلا أنه يصلح كمثال لتوضيح ما نريد أن نقول .

فلنفرض مثلاً أننا أحضرنا شخصاً إلى حجرة ووضعنا له كوباً من الماء على مرأى منه . فهل يشرب هذا الشخص الكوب أم لا يشربه ؟ والسؤال هنا يتعلق بقدرتنا على التنبؤ عن السلوك . ثم هل يمكننا أن نجعله يشربه أم لا ؟ . والإجابة على هذا السؤال تتوقف على قدرتنا على التحكم في هذا السلوك .

إن الفسيولوجى الذى يعتمد في تفسيره للسلوك على عمليات جسمية داخلية لا بد له ، كى يجيب على السؤال الأول ، من الحصول على معلومات تتعلق بمدى تركيز المحاليل في الجسم . ففى بعض الحالات يصل التركيز إلى درجة معينة بحيث يؤثر ذلك عن طريق ميكنازم معين على الجهاز العصبي ، الذى يجعل بدوره عملية الشرب أكثر احتياجاً في الوقوع . وهو يجيب على السؤال الثانى بأننا إذا أردنا أن نتحكم في سلوك ذلك الشخص ونجعله يشرب الماء ، أو على وجه أصح أن نجعل شرب الماء أكثر احتياجاً ، فما علينا إلا أن نجعل المحاليل في جسمه أكثر تركيزاً : ولاشك أن المعلومات التى يطلبها الفسيولوجى قد تساعدنا على التنبؤ فعلاً . ولكن الحصول عليها في أغلب الأحيان يكون عسيراً وأحياناً يكون مستحيلاً . ذلك أنه يلزمنا عندئذ أن نأخذ عينه من دم ذلك الشخص ، ونجرى عليه في العمل كشفاً دقيقاً ، وذلك لكى نعرف إلى أى يحتاج إلى كميات أخرى من الماء . وواضح أن مثل هذا الإجراء نستطيع أن نوفره على أنفسنا في أحوال كثيرة جداً ، إذا ما حصلنا على بعض المعلومات الأخرى الخاصة بالظروف التى تعرض لها هذا الشخص في تاريخه القريب . وسنوضح هذه النقطة الأخيرة في مكان آخر فيما بعد . ولكن المهم هنا هو أن مثل هذه المعلومات الفسيولوجية ليست هى أقرب حل للمشكلة كما سبق أن قلنا ، بل أحياناً أيضاً ، تكون مستحيلة .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى هدف التحكم نجد أيضاً أن من المتعذر إن لم يكن مستحيلاً ، إجراء تغيير مباشر في الجهاز العصبي ، بحيث يحدث التأثير المطلوب في السلوك . والأسهل من ذلك أن نتخذ إجراءات من نوع آخر ، إذا أردنا من ذلك الشخص أن يقوم بعملية الشرب ، لإجراءات تلخص في تعريضه لظروف ، نعرف نحن بملاحظتنا الخارجية ، أنها ترتبط ارتباطاً وظيفياً بسلوك الشرب . وبذلك نكون في غنى عن المعلومات الخاصة بالعمليات الفسيولوجية التى تسبق السلوك مباشرة ، إذا ما أردنا إحداث تغيير ما في سلوك الأفراد . وسوف نتناول هذه النقطة الأخيرة بالإيضاح فيما بعد .

الوضع إذن بالنسبة للعمليات الفسيولوجية من حيث مكانها في نظرية شاملة لتفسير السلوك ، يتلخص في نقطتين هامتين : الأولى هى أن هذه العمليات لا تشكل « الأسباب » التى يجب أن نبحث عنها إذا كنا نريد أن نفهم السلوك تفسيراً مفيداً ، بل إنها تشكل فقط

حلقة من سلسلة الأحداث الطبيعية المسفولة عن السلوك . النقطة الثانية أن هذه الحلقة محدودة الأهمية من حيث تحقيق الأهداف العملية لعلم السلوك . ونحن نؤكد هنا هذه الحقيقة مرة أخرى لأن الشائع في بعض الأوساط التي تعنى بدراسة السلوك ، هو أن علم السلوك لا يجب أن يتوقع لنفسه نمواً مفيداً ، إلا على أساس من دراسة الجسم دراسة عصبية فسيولوجية . أو بمعنى آخر أن علم السلوك لا يمكن أن يقوم إلا على أساس من فرع المعرفة الذي يسمى بالفسيولوجيا العصبية Neurophysiology . ولقد قامت بناء على هذا التوجيه دراسات عديدة لمعرفة تفاصيل الديناميات العصبية للأحداث التي تسبق السلوك مباشرة . وقامت أبحاث لا تحصى في هذا السبيل . ومع ذلك فمن المسلم به أننا ، حتى الآن ، لم نصل بعد إلى المرحلة التي يمكننا عندها أن نقول إننا قد قربنا من اجتياز المهوة الساحقة بين الفعل السلوكي والفعل العصبي . أو بمعنى آخر فإن الفجوة التي تفصل بين ما نعرفه الآن من العمليات التشريحية والعصبية الدقيقة ، وبين ما تلزمنا معرفته من هذه المعلومات للوصول إلى تفسير مفيد للسلوك الكلي . نقول : إن الفجوة التي تفصل بين هاتين المرحلتين لا تزال من الاتساع بحيث يستحيل عبورها في الوقت الحاضر .

والمشكلة هنا هي أن أنصار المذهب الفسيولوجي قد يطلبون منا الانتظار حتى تنمو معرفتنا عن العمليات الفسيولوجية العصبية نمواً كاملاً ، فيحدث الربط بين هذه العمليات من ناحية وبين السلوك الكلي من ناحية أخرى ، وألا نحاول أن نقيم علماً للسلوك قبل أن تتم هذه المرحلة . حقاً إن معرفتنا الكاملة بإحدى حلقات السلسلة السببية للسلوك سوف يزيد من دقة تفسيرنا لهذه الظاهرة . ولكن حتى مع هذا ، فإن نمو علم السلوك لا يتوقف على تلك المرحلة . بل على العكس قد يعتبر اعتمادنا على تلك المرحلة تعطيلاً لعلم السلوك ، كما سبق أن بينا .

ولتصور مثلاً أن جاليليو ونيوتن قد أجلا صياغة القوانين الميكانيكية للأجسام الطبيعية ، حتى تم دراسة النواة وجزئيات النواة ، فما الذي كنا نتوقعه من نمو علم الطبيعة ؟ إن الموقف بالنسبة للعلوم الاجتماعية مماثل تماماً لهذا الموقف الذي واجهته العلوم الطبيعية . فإما أن ينتظر علماء العلوم الاجتماعية حتى تحل المشكلات المتعلقة بالعمليات الفسيولوجية ، وإما أن يسبوا في طريقهم نحو اكتشاف القوانين التي تربط بين السلوك في صورته الكلية ، وبين الأحداث والمواقف والمثيرات الطبيعية الخارجية ، وخاصة ما كان يتصل منها بتاريخ الحي . فلو أن جاليليو ونيوتن قد ساروا على هذا النحو في علم الطبيعة ، فدرسوا الحركات الكبيرة للأجسام الطبيعية ، لاستمر العالم ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً دون أن يستفيد من نظرية ، ظلت طوال هذه المدة ، أقرب وأصدق تعبير عن العلاقات الطبيعية ، في مستوى

الملاحظات الممكنة في ذلك الوقت . بل أكثر من هذا يمكننا أن نقول بكل تأكيد إنه لولا أن نظرية نيوتن قد وضعت في الوقت الذي وضعت فيه ، لما كان هناك اليوم اينشتين أو بلانك . ولما كانت هناك اليوم نظرية نسبية أو كوانتم بالمرّة . ذلك أن وضع نيوتن لنظريته قد ساعد دون شك على سر العلم الطبيعي في خطوات ناجحة ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى وصل إلى هذه المرحلة التي هو عليها الآن .

والخلاصة أن العمليات الفسيولوجية التي تسبق السلوك مباشرة لا تكون سوى حلقة من سلسلة الأحداث الطبيعية المسؤولة عن السلوك ، ولا تفهم إلا في ضوء هذه الأحداث . وأن معلوماتنا عن هذه الحلقة حتى الآن ضعيفة جداً ومحدودة للغاية . كما أن الفائدة العملية من استخدام هذه الحلقة في تفسير السلوك الآن معدومة . بل وحتى في المستقبل البعيد جداً عندما يتم اكتشاف أسرار هذه الحلقة فإن الوضع المنهجي لما لا يجعل منها أسباباً أو متغيرات مستقلة مسؤولة عن حدوث الظاهرة السلوكية ، بل مجرد متغيرات مصاحبة قد تزيد معرفتنا بها من فهمنا لهذه الظاهرة ، بتغيرات هي نفسها إلى تفسير عن طريق متغيرات أخرى مكانها في خروج الكائن الحي وليس في داخله .

تفسيرات غيبية ذات صبغة فسيولوجية :

أما النوع الثاني من التفسيرات التي تقوم على أساس وجود أسباب « جسمية داخلية » فهي تلك التي تفترض وجود تكوينات ذات صبغة فسيولوجية لا يمكن التحقق منها تجريبياً . أو بمعنى أصح ، تكوينات غيبية ذات صبغة فسيولوجية . وهناك أمثلة عديدة لهذه التكوينات ، منها نظرية ثورنديك ، مثلاً ، في تفسير التعلم عن طريق افتراض حدوث تقوية في الوصلات العصبية ، أى في أماكن اتصال أطراف الخلايا العصبية بعضها ببعض . فهو يفسر الارتباط الذي يحدث بين موقف واستجابة (التعلم) تفسيراً فسيولوجياً ، فيقول : إن هذا الارتباط يقابله ارتباط بين النورونات المستقبلية (الخلايا العصبية الخاصة بنقل المثيرات الآتية من أعضاء الحس) بالنورونات المصدرة (الخلايا العصبية الخاصة بنقل المثيرات إلى أعضاء الحركة) . وكلما قويت هذه الارتباطات العصبية كلما سهل مرور التيار العصبي . ومعنى ذلك سهولة صدور الاستجابة بالنسبة لمثير معين^(١) .

ومن أمثلة هذه التفسيرات أيضاً تفسير بافلوف لعملية التعلم - تكوين الأفعال المنعكسة الشرطية وحدث الكف الشرطي - عن طريق افتراض وجود حالات مثيرة

Thorndike, E.L.: Educational Psychology, 1913.

Excitatory states في حالة حدوث التعلم وحالات كافة Inhibitory states في حالة وجود الكف^(١).

كذلك فرض هل لحدوث تفاعل بين التيارات العصبية الواردة في لحظة ما ، لتفسير عملية الإدراك ، أى إدراك المثير بشكل مختلف عما هو عليه « في الواقع » ، يعتبر من الفروض التي تعتمد على تكوينات « فسيولوجية عيية »^(٢).

وفترض كيلر لتفسير عملية الإدراك ، وجود عمليات فسيولوجية (داخلية) تتلخص في حدوث تنظيم في مجالات المخ تقابل التنظيم الذى يحدث في المجال الإدراكي (الخارجى) . فما يدركه الشخص أو ما يسلكه في موقف ما ، تقابله « أحداث » فسيولوجية معينة في الجهاز العصبي ، مما يوحى - عند كيلر - بفرض وجود تشاكل أو توازى أو تماثل (بين ما يحدث من سلوك ظاهري وما يحدث من تغير فسيولوجي داخلي) . وقد سمى كيلر هذا الفرض بفرض التماثل . Isomorphism والفروض بالطبع أن تلك الأحداث الداخلية لم تكشف اكتشاف تجريبياً ولكنها مجرد تكوين فرضي لا يمكن التحقق منه^(٣).

كذلك نظرية الأثر للجشتالت في تفسير عملية التذكر تعتبر مثلاً واضحاً من أمثلة التفسيرات الغيبية ذات الصبغة الفسيولوجية . فهم يفسرون عملية التذكر عن طريق افتراض أن ما يفعله ، أو ما يقوم به الفرد ، من سلوك في موقف جديد يترك أثراً في الجهاز العصبي . وأن هذه الآثار قد تتداخل وتشابك فتؤثر في بعضها البعض . كما أنها تؤثر أيضاً على الخبرات الراحنة فتجعل حدوثها يتم بطريقة مختلفة عما كانت عليه في المرات السابقة^(٤).

كل تلك التفسيرات السابقة وهى : تقوية الوصلات العصبية عند ثورنديك ، والحالات الكافة والحالات المثيرة عند بافلوف ، والتفاعل بين التيارات العصبية عند هل ، والتماثل والأثر عند الجشتالت ، وغيرها وغيرها من الأمثلة التي تزخر بها كتب علم النفس ، إنما تمثل في الواقع محاولات غيبية في تفسير السلوك . ذلك أنها لا تضع أيدينا على متغيرات محددة قابلة للملاحظة ، يمكن التحقق منها تجريبياً . وقد سبق أن بينا أن التفسير العلمى هو

Pavlov, I.P.: Selected Works, 1955

(١)

Hull, C.L.: Principles of Behavior, Appleton Century Crofts, New York, 1943.

(٢)

المسلم الثاني ص ٤٧ .

Boring, E.G.: A History of Experimental Psychology, Appleton Century Crofts, New York. 1950

(٣)

(٤) نفس المرجع .

محاولة الربط بين متغيرات قابلة للملاحظة ؛ طرف من هذه المتغيرات هو الظاهرة نفسها المراد تفسيرها ، والطرف الآخر هو الأسباب التي نفترض أنها تحدد حدوث هذه الظاهرة. أما محاولة الربط نفسها فهي محاولة إقامة علاقة وظيفية بين هذين النوعين من المتغيرات بحيث نستطيع بعد ذلك أن نحقق أهداف العلم الأخرى من تنبؤ وتحكم .

أما وأن نعر هذه الأسباب « المزعومة » على الملاحظة ، ويستحيل إخضاعها للتجريب ، فإن معنى ذلك أننا نكون قد أدخلنا بأول شرط من شروط الفرض العلمي ، وهو شرط قابليته للتحقيق . وعلى ذلك فإن مثل هذه التفسيرات لا يمكن اعتبارها تفسيرات علمية بأي حال من الأحوال.. ذلك أننا إذا سألنا ثورنديك مثلاً كيف تقوى الوصلات أو تضعف؟ وبأي مقياس يمكن أن نقيس درجة هذه القوة أو هذا الضعف، وإذا سألنا هل كيف يحدث ذلك التفاعل وكيف يمكن أن نلاحظه، وكذلك إذا سألنا بافلوف كيف نلاحظ هذه الحالات الكافة والحالات المثيرة وسألنا الجشتالت عن معنى ذلك التماثل ، فإن واحداً منهم لا يستطيع أن يبين إجابة شافية، ذلك أن جميع تلك المفاهيم بحكم طبيعتها ليست سوى غيبيات لا تخضع للملاحظة أو القياس . وبالتالي فإن هذه المفاهيم لا تستطيع أن تحقق لنا أى هدف من الأهداف العملية للعلم ، وهى أهداف التنبؤ والضبط وفتح الآفاق الجديدة للبحث . فإذا أردنا بناء على مفهوم ثورنديك في تفسير عملية التعلم مثلاً ، أن نتنبأ بمدى تعلم فرد ما عادة معينة ، فإنه يجب علينا عندئذ أن نقيس درجة « قوة » الوصلات العصبية المسئولة عن تعلم هذه العادة .. كذلك إذا أردنا أن نتحكم في عملية التعلم هذه فما علينا إلا أن نخترع طريقة ما « تقوى » بها هذه الوصلات ... ولا يمكن أن يخفى على أحد مدى خرافة مثل هذه الإجراءات إذ أن المفهوم نفسه مجرد خرافة .. وأخيراً فإن المسألة لا تقف فقط عند هذا الحد ، بل تتعداها إلى خطورة أهد . ذلك أن مثل هذه المفاهيم التفسيرية لا تساعد بالمرّة على نمو البحث العلمي بل على العكس فإنها تعطله وتحد منه . فنحن عندما نضع تفسيراً من هذا النوع إنما نخدع أنفسنا في أننا قد وصلنا فعلاً إلى التفسير العلمي المطلوب فنهلاً نفساً ونقر عينا ، دون أن نعلم أننا لم نفعل شيئاً أكثر من تقديم ألفاظ ضخمة لا تنطوي على أى مدلولات تجريبية . ولأنك أن في ذلك إغلاقاً لباب البحث العلمي ، إذ أنه لا يعطى الفرصة لأى طالب للمعرفة أن يستقصى وأن يجرب وأن يفكر تفكيراً أكثر فائدة وأكثر نضجاً . ويزيد من خطورة مثل هذه التفسيرات أن لها تلك الصبغة الفسيولوجية التي تجعلها تنال الاحترام التقليدي الذي يسبغ على مفاهيم العلوم الطبيعية في العادة .

والآن وقد استعرضنا بعض الأمثلة لتوعى التفسيرات التي تتضمن افتراض وجود أسباب جسمية « داخلية » ، ينبغى علينا أن نتناول مثالين للمفاهيم الشائعة من نفس النوع ، ونستعرضها بالتفصيل . وقد اخترنا لهذا الغرض مفهومى الوراثة والنضج .

مفهوم الوراثة في تفسير السلوك :

رأينا في الفصل السادس كيف أننا قد نظن في بعض الأحيان أننا استطعنا أن نفسر بعض تصرفاتنا عن طريق إرجاعها إلى عوامل جسمية ظاهرية كالأبعاد الخارجية للجسم أو الملامح أو غير ذلك . ولاشك أننا عندما نظن أننا قد نجحنا في تفسير بعض أنواع السلوك بإرجاعها إلى عوامل جسمية ظاهرية فإن ذلك قد يشجعنا على الرجوع إلى عوامل جسمية خفية ، عندما يعز علينا في بعض الحالات الأخرى الرجوع إلى العوامل الجسمية الظاهرة . وبعبارة أخرى فإننا عندما نجد أن بعض أنواع السلوك المراد تفسيره لا يندرج بسهولة تحت العوامل الجسمية الظاهرة ، وعندما يكون مبدؤنا أن الجسم هو العامل المحدد للسلوك ، فإننا نجد من المفرد عندئذ أن نلجأ إلى عوامل جسمية من نوع آخر ، عوامل جسمية خفية . ذلك أن الاتجاه غير العلمى سواء كان خرافياً أو ميتافيزيقياً لا يجد صعوبة كبيرة ، كما رأينا ، في إسناد الظواهر إلى عوامل تلخص جهل الإنسان بالأسباب الحقيقية . ويبدو هذا الاتجاه في تفسير السلوك - أى اللجوء إلى أسباب جسمية خفية - يبدو واضحاً في تعبيراتنا اليومية عندما نقول مثلاً : « إن فلاناً قد خلق هكذا » ، بمعنى أنه يستعصى علينا أن نجد سبباً واضحاً ظاهراً لسلوكه أو تصرفه . أو عندما نقول مثلاً : « أن فلاناً هذا لا يستطيع أن يقلع عن تصرفه هذا لأنه في « طبعه » أو في « دمه » أو « الناس طبائع » ، أو غير ذلك من التعبيرات التي تعنى جميعاً أن الناس في بعض الأحيان « يرثون » سلوكهم .

ونحن لا نريد أن ننكر أهمية « الوراثة » في تحديد السلوك . فالسلوك يتطلب كائناً يسلك . وهذا الكائن يتميز بتركيب عضوى يشبه ذلك الذى كان عليه أجداده . أى يتحدد هذا التكوين بعملية « وراثية » . ولاشك أن لهذا التكوين العضوى أهمية كبرى في الفروق التي نشاهدها بين سلوك الكائنات العضوية المختلفة . إلا أن هذا المفهوم للوراثة وأهميتها في تحديد السلوك ليس هو المقصود عندما يتحدث رجل الشارع عن الوراثة وأثرها في السلوك ، فيقول مثلاً ، « إن هذا الطفل حساس بطبعه » فقد « خلق » هكذا . أو « إن هذا الرجل مجرم بالفطرة » لأن « الإجرام في دمه » وهكذا . ولقد سبق أن رأينا كذلك كيف أن مفهوم الغريزة ، الذى لا يزال منتشرأ في التفكير السيكلوجى ، يتضمن وجود سلوك كله وراثى . ويتضمن هذا المفهوم أيضاً تقسيم السلوك إلى « غرائز » بمعنى سلوك « وراثى » أو « فطرى » ، في مقابل « عادات » بمعنى سلوك « مكتسب » .

وفكرة الوراثة بهذا المعنى لا تتفق أولاً والشواهد التجريبية . وهى بهذا المعنى لا تعبر إلا عن جهلنا بالأسباب الحقيقية للسلوك : فقد اتضح بناء على العديد من المشاهدات التى جمعت عن سلوك الأفراد والجماعات ، أن ما كان يعتقد أنه « طبيعى » فى الفرد أو الجماعة ، هو فى الواقع محصلة ظروف « بيئية » معينة هى التى تحير مسؤولة عنه . فقد أوضحت « مارجرىت ميد » مثلاً ، ضمن دراسات انثربولوجية عديدة قامت بها هى وغيرها ، أن الخصائص السلوكية للرجال والنساء ليست فى الواقع نتيجة لاختلاف الجنس ، بل هى انعكاس لأثر الثقافة التى يعيش فيها الفرد . فإن ما كنا نتصور أنه عام عند جميع الشعوب فيما يتعلق بالفروق بين الجنسين فى الشخصية ، وجد أنه ليس كذلك . بل وجد أنه خاص بثقافات معينة فقط . فقد وجدت مارجرىت من دراستها لثلاث قبائل بدائية^(١) ، أن إحدى هذه القبائل وهى قبيلة أرايش Arapesh يسلك فيها الرجال والنساء السلوك الذى نتوقعه نحن من النساء . أى أن فىهم رقة ، ويميلون إلى اللطف والهدوء . أما القبيلة الثانية وهى منداجامور MondagAamor فالرجال والنساء فيها يسلكون كالرجال عندنا أى أن فىهم خشونة . والقبيلة الثالثة تشامبولى Chamboly يسلك فيها الرجال سلوكاً كذلك الذى نتوقعه من النساء عندنا . فقد وجد أنهم يصنفون شعرهم ويتحلون بالخلى ويلهبون للتسوق . كما وجد عندهم دهاء وخبث ، بينما وجد أن النساء أكثر نشاطاً وأن القيادة لمن وأنهن لا يترين . والخلاصة أنه بالمقارنة بين هذه القبائل الثلاث ، وجد أن السلوك لا يتحدد بناء على الجنس أو السن بل يتحدد بناء على عوامل أخرى . عوامل تختلف من ثقافة إلى ثقافة ، وليس من جنس إلى جنس أو من سن إلى سن . فالذى كان يحير « غريزياً » أو « طبيعياً » أو « موروثاً » أو « فطرياً » بالنسبة للجنس الواحد ، وجد من هذه الدراسات أنه ليس كذلك . فليس من الطبيعى - كما كان يعتقد - أن الرجال مسيطرون ، وليس من الطبيعى أن الرجال خشنون ، وليس من الطبيعى أن النساء رقيقات ، وليس من الطبيعى أنهن خائعات أو خاضعات ، وليس من الطبيعى أن لكل من الجنسين نوعاً معيناً محدد من الأعمال أو من الأدوار الاجتماعية ، أو من الطباع أو من المركز الاجتماعى أو الدينى أو غير ذلك . بل إن كل ذلك يحدده نوع الثقافة التى يعيش فيها الفرد ونوع المجتمع الذى يترى فيه .

وإننا لنلاحظ هذه الحقيقة أيضاً بشكل قوى إذا قارنا بين رجل من أمريكا مثلاً ورجل من صعيد مصر . فكثير من الأعمال التى يقوم بها الأول وكذلك من الصفات التى تظهر فى

Margaret Mead. Sex and Temperament, Mentor Books New York, 1950.

(١)

سلوكه ، قد يعتبرها الثانى من صميم خصائص السيدات . فالرجل فى أمريكا مثلاً قد يساعد زوجته فى المنزل ، وقد يترك لها الكلمة فى بعض الأمور ، وقد يقوم برعاية الصغار من أطفاله وتغذيتهم وتنظيفهم وغير ذلك ، مما قد يستنكف منه الرجل فى صعيد مصر كل الاستكاف ، بل وقد يعتبره عملاً شائناً . وفى القصص والتمثيلات صور عديدة للمفارقات التى تنشأ عن زيارة رجل من الصعيد للقاهرة مثلاً ، ونزوله ضيفاً على أقاربه من المثقفين الذين قد يكون فى سلوكهم مثل هذه الصفات .

ولا يتطابق هذا الكلام على الفروق بين الجنسين فقط ، بل هناك كثير جداً من الصفات الأخرى التى كان يظن أنها غريزية فى السلوك ، ولم يعثر لها الانثروبولوجيون على أثر فى بعض القبائل البدائية . ففى الدراسة سالفه الذكر ، وجدت مارجرى ميد أن صفات كاثيات الذات أو الملكية أو التنافس أو العدوان ، كل هذه لا وجود لها فى سلوك قبيلة الأرايش ، ويحل محلها التعاون وإنكار الذات والمسألة وعدم الرغبة فى التملك . فهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع الرجل الذى يتصف بالعنف مثلاً ، كما أن الواحد منهم يقضى تسعة أعشار وقته فى تنفيذ خطط الآخرين وفى التفكير للمجموع . ومن النادر جداً أن تجد واحداً منهم يقترح فكرة خاصة به . كذلك فإن الحرب غير معروفة بين الأرايش .

ويؤيد مثل هذه الحقائق نوع آخر من الدراسة قد يختلف فى المنهج ولكنه يصل إلى نفس النتيجة ، وهى أن الشخصية والسلوك الاجتماعى ، لا يتحدد بناء على ما يسمى « بالوراثة » . ويقوم هذا النوع من الدراسة على المقارنة بين التوائم . ولهذا النوع أهميته الخاصة فى مشكلة الوراثة وعلاقتها بالسلوك . ذلك أنه فى حالة التوائم المتطابقة تكون « الوراثة » لكل من الفردين متشابهة تماماً ، حيث أنهما ينموان من بويضة مخصبة واحدة . فيقال إنهما يحصلان بذلك على مجموعتين متكافئتين من « المورثات » . ويترتب على ذلك أن أى اختلاف بين التوائم المتطابقة يكون من فعل العوامل البيئية الخارجية ، وليس من فعل « الوراثة » . وقد درست حالات كثيرة من هذا النوع^(١) ، ويكفى هنا أن نذكر حالة توأمين على سبيل المثال .

والتوأمين هما مابل Mable ومارى Mary وكانتا فى التاسعة والعشرين من عمرهما وقت الدراسة . وقد انفصلتا من سن خمسة شهور ورباهما أقاربهما . عاشت مابل فى جهة ريفية فى إحدى المزارع ، وعاشت مارى فى مدينة صغيرة تعمل كاتبة فى الصباح وتدرس

Newman, Freeman and Holzinger: Twins. A Study of Heredity and Environment, (١)
Chicago, Univ. of Chicago Press, 1937.

الموسيقى في المساء . حصلت مابل على تعليم أولي بمدرسة ريفية ، وحصلت ماري على دراسة كاملة حتى المستوى العالي بمدرسة ممتازة بالمدينة . وفي فترة الاختبار وجد اختلاف شاسع بين التوأمين في القدرات العقلية وفي السمات الانفعالية، بل وحتى في الصفات الجسمية . فقد وصفت مابل بأنها قوية مفتولة وفي صحة تامة ، بينما كانت ماري نحيفة رقيقة وفي حالة ضعيفة . وقد وجد فرق واضح في الذكاء في صالح ماري فقد كانت نسبة ذكائها بمقياس ستانفورد بينيه ١٠٦ في مقابل ٨٩ لتوأماتها . كما وجد اختلاف أكبر في بعض الاختبارات الأخرى . أما في سمات الشخصية وخصائص السلوك الاجتماعي فكان الاختلاف كبيراً كما أظهرته الاختبارات وبمجرد الملاحظة . فقد كانت مابل الريفية تميل إلى البلادة وإلى الاستقرار الانفعالي ، على العكس من ماري التي كان يبدو عليها عدم الاستقرار الانفعالي بشكل واضح ، وكانت تعلق لأتفه الأسباب وكانت شخصيتها تقريباً شخصية عصائية . كذلك كانت مابل أكثر عدوانية وأقل مخلوقاً وأكثر حصانة ضد الكلمات والأفكار المؤلمة ، وكانت تمشي بخطوات ثابتة أقرب إلى خطو الرجال ، على العكس من ماري التي كانت تمشي بخطوات مثقلة نسائية . وعلى العموم أظهر الإثنان فرقاً شاسعاً من حيث شخصيتهما بوجه عام^(١) .

هذه الدراسة وأمثالها تبين بوضوح أن السلوك لا يورث ، وإلا كانت التوائم تصبح متماثلة في السلوك مهما اختلفت بيئاتهم . وتذهب دراسات أخرى إلى أبعد من ذلك دقة فتعدنا بمدى الفروق البيئية للتوأمين المنفصلين ، وما يقابلها من فروق في الاتجاهات السلوكية المختلفة^(٢) .

وتسمى حالات الأطفال الذين وجدوا وهم يعيشون في عزلة عن البشر أو على اتصال بالحيوانات فقط ، فرصة بالغة الأهمية للتعرف على أثر « الوراثة » على سلوك الفرد . وقد وصفت حالات هؤلاء الأطفال المتوحشين منذ العصور التاريخية المبكرة ، كما اشتهرت بعض حالات منها في العصر الحديث ، ذكرها زينج^(٣) في بحث مفصل له يحتوي على حوالى

(١) نفس المرجع ١٨٧ - ١٩٥ .

(٢) Gardner and Newman: Mental and Physical Tests of Identical Twins Reared Apart, J. Hered., 1940, 31, 119-126 Cited in: Anastasi and Foli: Differential Psychology, New York, Macmillan, 1949.

ويستطيع القارئ أن يجد المزيد من هذه الأبحاث مذكوراً في هذا المرجع الأخير في الفصل الحادي

عشر .

Zingg R.M.: Feral Man and Extreme Cases of Isolation, Amer. J. Psychol., 1940, 63, 487-517.

(٣)

أربعين حالة . وفي هذا البحث يصف زينج حالات لأطفال متوحشين يبدو أنهم هجروا أو هاموا على وجوههم ليعيشوا في الأدغال معتمدين في أغلب الأمر على مجهوداتهم الذاتية . وكذلك حالات نشئت بواسطة بعض الحيوانات كالذئب والدب والعنزة والخنزير والحمل والملاشية والفهد . كذلك تضمنت هذه الحالات أولئك الأطفال الذين عزلوا عن الاتصال بالإنسان وعاشوا تحت ظروف لا تسمح لهم بأكثر من الحياة .

وقد انتهى زينج في تلخيصه لهذه الحالات إلى أن هؤلاء الأطفال كانوا كلهم بلا استثناء يكماً ويسمرون على أربع . أى أن حتى عمليات الكلام والمشى تحتاج منا إلى أن نتعلمها وليست محددة بما نرثه فقط كما كنا نظن . فهي تتأثر بالظروف المحيطة بنا وبالعوادات التي تكونها إلى حد كبير . كذلك تعدلت عند هؤلاء الأطفال حواس الشم والسمع والبصر ، خاصة الإبصار الليلي ، فأصبحت في مثل حدة هذه الحواس عند الحيوان . أما عادات تناول الطعام فكانت تختلف اختلافاً واضحاً عن تلك الموجودة لدى الإنسان . فاللحم النيء كان هو الطعام المعتاد لدى الأطفال الذين نشأوا بواسطة الحيوانات آكلة اللحوم ، بينما وجد الأطفال الذين يعيشون في الأدغال معتمدين في معظم غذائهم على لحاء الشجر وجذور النباتات والحشائش والأعشاب والأوراق . وكانت طريقة تناول الطعام أيضاً مماثلة لتلك الموجودة لدى الحيوانات السفلى ؛ يتضمن ذلك شم الطعام قبل تناوله والنزول بالقم إلى موضع الطعام وما إلى ذلك .

أما من حيث الانفعال وخصائص السلوك الاجتماعي ، فلم يكن هناك تشابه بين هؤلاء الأطفال وبين الأطفال المتحضرين . فلم يلاحظ عليهم مثلاً سلوك البكاء أو الضحك . أما التغيرات عن الاهتمام الجنسي وسلوكه فكانت إما متقدمة تماماً ، وإما موجودة فقط في صورة نشاط عام منتشر غير موجه . كذلك لم يلاحظ عليهم الشعور بالخجل من العرى . ولم يستدل على وجود « الشعور بالنوع » أو الشعور الجماعي (ما يسميه ماكلوجلال الشعور بالقطيع ، وما كان يعزوه إلى « غريزة القطيع ») عند هؤلاء الأطفال ، بل لوحظ عليهم - على العكس - أنهم يتحاشون بنى الإنسان ويظهرون تفضيلهم لصحبة الحيوانات .

وإذا انتقلنا إلى حالة الوظائف العقلية نجد هؤلاء الأطفال قد وصفوا بأنهم تعوزهم القدرة تماماً على الانتباه إلا بالنسبة لأهداف حاجاتهم . فهم يتنبهون مثلاً إلى الصوت الذي تبعه المجوزة أثناء كسرها أو أى طعام آخر مفضل عندهم ، ولكنهم لا يتنبهون إلى صوت الإنسان أو حتى إلى أعلى الأصوات كانهجارات الأسلحة النارية وغير ذلك مما لم تعلمهم خبرتهم الماضية أنه يعنهم في شيء .

وبالتالى كان هؤلاء الأطفال عاجزين عن القيام بجميع العمليات العقلية التي تتضمن

الانتباه كالتذكر والحكم والاستدلال والتقليد (الذى كان يحتر عن ماكوجال سلوكاً فطرياً) . هنا بالإضافة إلى أنهم كانوا محلودين في تفكيرهم ؛ حتى ذلك التفكير الذى يتعلق بالحاجات المباشرة ، حتى أن بعضهم لم ينجح أبداً في فتح باب من الأبواب أو يتسلق مقعناً للحصول على طعام رفع عن المستوى الذى يمكن أن تصل إليه يده .

وباختصار فقد كان نمو هؤلاء الأطفال ناقصاً أو مختلفاً على الأقل عما هو عليه عند نظائريهم العاديين ، وذلك في كل صور النمو السلوكى ، بما في ذلك السلوك الحسى والحركى والعقلى والانفعالى والاجتماعى . ولاشك أن هذه الأمثلة للأطفال المتوحشين توضح لنا الاعتماد الوثيق للسلوك الإنسانى على البيئة التى ينشأ فيها الكائن ونوع المواقف التى يتعرض لها . فإذا حرم طفل من الاتصالات الإنسانية الطبيعية ، فإن سلوكه سوف يتجه إلى التكيف تبعاً للظروف المحيطة به ، وسوف يظهر الفرق الشاسع بين النمو العادى والنمو غير العادى ، مما يدل على أن كثيراً جداً مما كنا نعتقد أنه وراثى في السلوك ليس هو في الحقيقة كذلك . أو بعبارة أخرى فإن السلوك لا يتحدد بناء على تكوين داخلى فحسب ، حتى في أبسط صورته وأكثرها أولية كما سبق أن رأينا .

ويؤيد هذه الحقيقة أيضاً الملاحظات التى أجريت على أولئك الذين ولدوا مكفوفين ثم أبصروا في سن متأخرة نتيجة لعملية جراحية . فقد اتضح أن هؤلاء لا يستطيعون إدراك الفرق بين المربع والمثلث والدائرة . وكذلك الفرق بين المسطح والمجسم بمجرد إبطاره . وأن التمييز بين هذه المبركات المختلفة يحتاج منهم إلى فترة تدريب طويلة قبل أن يمكنهم تحصيله^(١) . وقد كان الجشتالت يعتبرون أن عملية التمييز بين الأشكال عملية أولية وأن السلوك الإدراكى في هذه الحالة سلوك يحدده التكوين الفسيولوجى الموروث وحده للفرد الإنسانى .

ولا ينطبق هذا الكلام - أى أن السلوك حتى في أبسط صورته وأكثرها أولية ، لا يتحدد بناء على تكوين داخلى موروث فقط ولكن على ظروف خاصة أيضاً، نقول لا ينطبق هذا الكلام على الإنسان فحسب ، بل على الحيوان أيضاً . فقد وجد من التجارب التى أجريت على الخراف ، أن أفراد الخراف التى تنشأ في عزلة عن بقية أفراد جنسها لا تبدى أى مظهر من مظاهر الميل إلى الوجود مع القطيع ، وهو السلوك الذى كان يقال إنه غريزى أو فطرى عند الخراف . وبالإضافة إلى ذلك فإنها تفضل مصاحبة المجرى الذى يقوم على إطعامها

Hebb, R.C.: The Organization of Behavior, New York, John Wiley and Sons Inc., (١)
1949.

وتربيتها بل أكثر من ذلك فإنها إذا وضعت مع القطيع فإنها تتركه وتهم على وجهها وحيدة منفردة^(١). كذلك في تجربة على ذكور الحمام التي نشأت بمعزل عن الأفراد الآخرين من نفس النوع لوحظ عدد من الانحرافات الجنسية ؛ فإن بعضها لينحى للمختبر ويسجع له كما تفعل الحمام الذكورة العادية لأفراد نوعها . كما بدت أنها تفرد اهتماماً خاصاً ليد المختبر التي لامستها أثناء الإطعام . بل وحاول واحد منها فعلاً أن يزاول العملية الجنسية بينما هو يتناول طعامه على هذه اليد . كذلك أظهرت الحمام الأنثى التي نشأت بمعزل عن الذكور انحرافات سلوكية مماثلة . فإذا لطفها المختبر وداعب ريش رأسها وعنقها أظهرت العلامات السلوكية المميزة للتزاوج . وحتى وضع البيض أمكن إحداثه في حالات كثيرة بهذه الطريقة . كذلك أمكن تكوين عادة الجنسية المثلية لدى عدد كبير من الحالات التي نشأت فيها أنثيان من الحمام معاً . وفي هذه الحالات قامت الطيور بأداء التزاوج كل قبل الآخر وتبع ذلك وضع للبيض من جانب كل من الطائرين^(٢) .

وقد يقوى الاعتقاد بأن السلوك موروث ما يشاهد في كثير من الأحيان من تشابه بين سلوك الآباء وسلوك الأبناء أو بين سلوك الأفراد من أعضاء الأسرة الواحدة . فغالباً ما تنسب هذه التشابهات العائلية دون جدال إلى « عملية الوراثة » .

فيوصف الطفل مثلاً بأنه يملك قدرة أبيه على العمل أو موهبة عمه الموسيقية أو أنه على شاكلة جده في عناده ، أو قد ينسب نجاح الطفل الناجح في أسرة عظيمة إلى أنه عريق الأصل ، وإذا كان محاضراً مفوهاً فقد يرجع ذلك إلى أنه ينحدر من سلالة ممتازة في هذه الناحية ... وهكذا . وباختصار فقد يدعى أن مخاوف الآباء وهواياتهم وتعصباتهم ومعاييرهم الجمالية أو الخلقية ومهاراتهم الميكانيكية وما شابه ذلك ، قد « ترثها ذريتهم » . وليس هذا مقصوداً على التفكير عند الرجل العادى ، بل إن هناك كثيراً من الأبحاث العلمية الواضحة الدقيقة عن التشابه العائلي ، قد افترضت نفس هذا التضليل المنطقي في تفسيراتها ، وقد اعتمدت هذه الأبحاث على دراسة السلالات أو التسلسل الأسرى ، وتتبع الأفراد المختلفين في الأسرة الواحدة ، كما اعتمدت كذلك على دراسة الارتباط بين أفراد أسرة معينة (بين الآباء والأبناء أو بين الإخوة بعضهم وبعض) في أداء معين كاختبارات الذكاء أو غيرها .

ومن أهم الدراسات التي قامت على تتبع سلالات الأسر ، دراسة أسرة « الجوكس »

(١) Liddel, H.S.: The Conditioned Reflexes. In Moss, F.A. (Ed.): Comparative Psychology, N.Y. Prentice-Hall, 1934.

(٢) Graig, W.: Male Doves Reared in Isolation, J. Anim. Behav., 1914, 4, 121-133.

وأسرة « الكاليكاك » . وقد استرعت الأولى أنظار الجهات الرسمية في أثناء القيام بدراسة لسجون ولاية نيويورك سنة ١٨٧٤ ، عندما وجد ستة أشخاص كلهم أقارب بالدم في السجن في مقاطعة واحدة . فكانت هذه النتيجة بداية لبحث كامل عن أقارب آخرين يعيشون في المقاطعة . وأدى البحث أخيراً إلى سيرة شملت سبعة أجيال وتضمنت ٥٤٠ فرداً كلهم أقارب بالدم ، و ١٦٩ أقارب بالزواج أو الزواج غير الشرعى . وقد أسفرت الدراسة أخيراً عن الكشف عن حالات متعددة من التسول والجرائم والردائل والمرض وما إلى ذلك ، حتى خيل إن مجموع التكاليف التى سببتها هذه العائلة للولاية هى مليون ونصف مليون من الدولارات خلال ٧٥ عاماً .

أما الأسرة الثانية وهى أسرة الكاليكاك فأهميتها ترجع إلى أنها تشتمل على فرعين أحدهما سوى والآخر متدهور . وقد تتبع أثر هذه الأسرة إلى أيام الثورة الأمريكية . ويتلخص تلويح الأسرة في أن « مارتن كاليكاك » كان شاباً في الحادية والعشرين من عمره من أسرة طيبة . وقد كانت له علاقة جنسية مع فتاة ضعيفة العقل تشغل في حانة ، وأنتج منها الفرع المتدهور للأسرة . ثم تزوج بعد ذلك في سن الثالثة والعشرين من سيدة متفوقة ذهنياً ومن مستواه الاجتماعى وأنتج أسرة سوية لمع كثير من أفرادها .

وتتخذ هاتان الدراستان وغيرهما من الدراسات المشابهة حجة لتدعيم الرأى القائل بأن السلوك موروث . ففى الأسرة الأولى مثلاً كان الجد الأصلى هو « ماكس » الذى وصف بأنه صياد سكير بهيمى وزير نساء وكسول . وعلى ذلك عزيت الأمثلة الأخرى من الانحرافات فى الأسرة إلى الوراثة المتحدرة من ذلك الأصل . أما الأسرة الثانية فقد اعتبرت دراسة تجريبية لمقارنة فرعين من نفس الأصل أحدهما سوى والآخر مصاب أو بمعنى آخر اعتبر فرعاً الأسرة كمجموعتين متكافئتين من جميع الوجوه ما عدا وجه واحد هو جانب الوراثة . فوراة المجموعة الأولى سليمة (إذ الزوجة الثانية كانت متفوقة ذهنياً) أما وراثة المجموعة الثانية فكانت مصابة ومتدهورة (إذ الزوجة الأولى كانت ضعيفة العقل) . وبذلك عزى التدهور الذى أصاب هذا الفرع إلى « العقلية المصابة والدم الفاسد » الذى تدخل فى عائلة سوية « ذات دم نقى » .

وواضح أن إستناد التشابه بين سلوك الآباء وسلوك الأبناء فى هذه الأسر إلى عامل « الوراثة » هو تفسير ساذج إلى حد بعيد . إذ أنه لا يقوم أولاً على ملاحظة دقيقة أو على

(١) انظر كتاب Anastasi and Foli: Differential Psychology. السابق الذكر الفصل العاشر .

استقصاء شامل لجميع الظروف التي يمكن أن تكون مؤثرة على سلوك أفراد هذه السلالات فمن المعروف أن بيئة السلالة الواحدة تعتبر متشابهة إلى حد كبير ، إذا ما ظلت مهتهم وحالتهم الاجتماعية الاقتصادية في المستوى الذي كانت عليه أصلاً .

وقد لوحظ فعلاً أن سلالة أسرة الجوكسي كانت متشابهة في هذه المتغيرات ، أي المهنة والحالة الاقتصادية الاجتماعية ، أو باختصار في المركز الاجتماعي . كذلك لوحظ أن بيئة كل من المجموعتين اللتين تتنالا ذرية الفرعين من مارتن كاليكك لم تكن متعادلة بأي حال من الأحوال . فليس مجرد انحلال الفرعين من أصل مشترك معناه تعادل البيئة ، بل الحقيقة أن الدلائل جميعها تشير إلى أن أفراد كل من الفرعين ، قد تروى في ظروف مختلفة كل الاختلاف . بل إن مجرد موقف المجتمع من أفراد الأسر المتدهورة ومن أبنائهم ، وهم الموقف التقليدي في مجتمع طبقي حيث يشعر أبناء هذه الطبقات أنهم طريدو المجتمع ، تقول إن مجرد هذا الظرف يجعلنا نتوقع أن يكون هناك اختلاف شديد بين بيئة الفرعين ، وتشابه شديد في بيئة الفرع الواحد من هذه الأسرة . ويمكن تطبيق هذا على جميع الدراسات من هذا النوع الذي يدرس سلالات معينة ، سواء أكانت متدهورة أم عريقة . ففرض التشابه بين أفراد السلالة إذن ليس دليلاً على « الوراثة » ، خاصة وأن مثل هذه الدراسات لم يقدّم على أساس تحديد دقيق للصفات المزعم وراثتها في سلوك الأفراد ، ولا على أساس قياس دقيق لمثل هذه الصفات التي يزعم أنها متشابهة . بل كانت المعلومات المستقاة في هذه الدراسات معلومات عامة جداً ، كما أنها لم تكن في الغالب مستقاة من مصادر موثوقة بها . ويبدو أن أغلب الباحثين كان لا يهتمهم إلا أن الحالة « تسري في العائلة » . فنسبة ذكاء المتوفين من زمن طويل من عائلة كاليكك مثلاً كانت تقرر بواسطة ذكريات الجيران المتقدمين في العمر ، وهكذا .

على أن أهم نواحي النقد التي يمكن أن توجه إلى فرض الوراثة في مثل هذه الدراسات ، هو ذلك النقد المستمد من نظرية الوراثة ذاتها ؛ ذلك هو : كيف نفسر حالات مثل التسول والجريمة وسوء الخلق والصراع والضعف العقلي - وهي صفات يقال إنها جميعاً كانت متوفرة في الفرع السيئ لأسرة كاليكك ، وغير متوفرة في الفرع الحسن - كيف نفسر هذه الصفات مثلاً على أنها جميعاً مظاهر لنفس المورث المتحى ؟ والمعروف في نظرية الوراثة أن المورث يحمل صفة واحدة (وكانت الصفة التي تميز الفتاة التي تزوجها كاليكك هي الضعف العقلي) . والخلاصة إذن أن فرض انتقال سمات مثل هذه العائلات بواسطة « الوراثة » هو فرض ساذج ، ليس فقط لما يتفااض عنه مثل هذا الفرض من وقائع مشاهدة ، أعنى ما يوجد بين هذه العائلات من تشابه في الظروف البيئية ، بل أيضاً لما يتضمنه هذا

الفرض من مخالفة لأسس النظرية نفسها ، وكذلك للأسس المنهجية العلمية السليمة ، كما سيتضح بشكل أكبر فيما بعد .

وقد يأتي أصحاب نظرية الوراثة بدراسات من نوع آخر ليؤيدوا وجهة نظرهم ، وهي الدراسات التي سبق أن أشرنا إليها ، والتي تقوم على أساس الارتباط بين أفراد الأسرة الواحدة ، والوالدين والإخوة ، في الأداء بأنواعه المختلفة . على أن استعمال معاملات الارتباط ، على الرغم من أنه أكثر دقة ، إلا أنه لا يقلل من الصعوبات الأساسية المتصلة بكل المقارنات العائلية ، كما أنه لا يتفادى المشكلات المنهجية التي يصادفها أى تفسير للسلوك يقوم على أساس « الوراثة » .

وبخلاصة الأبحاث التي تقوم على أساس إيجاد معاملات الارتباط ، أن التشابه بين الآباء والأبناء أو بين الإخوة بعضهم وبعض ، كما توضحه معاملات الارتباط بينهم في صفة كالذكاء مثلا ، أكبر من التشابه بين الأفراد الذين لا توجد صلة قرابة بينهم . وتعزو هذه الأبحاث وجود هذا الفرق إلى عامل « الوراثة » . على أن مناقشة هذا الفرض يقتضى منا أن ننظر قليلا في تفاصيل هذه الأبحاث .

كانت أوسع الدراسات هي تلك التي قام بها كونراد وجونز^(١) على مجموعة عائلية تتضمن ٩٧٧ شخصا بين سن ٣٠ ، ٦٠ . وكان الأفراد أمريكيي المولد ، ولا يتكلمون سوى الإنجليزية في بيوتهم . وكانت الاختلافات الاجتماعية الاقتصادية في هذه المجموعة ضئيلة . وكان معامل الارتباط بين الآباء والأبناء في العينة كلها ٤٩٪ في الذكاء . وقد اعترف كونراد وجونز بأن النتائج تتفق بدرجة متسوية مع الفرض البيئي البحث أو مع التأثير البيئي والوراثي معاً . أى أنهما أدخلتا عامل الوراثة في تفسير نتائجها على أنه أحد الاحتمالات . وقبل أن نناقش نتائج هذا البحث أو غيره مما يشبهه يجب أن نلاحظ ما يأتي :

١ - أن معامل الارتباط بين الآباء والأبناء في هذا البحث يختلف باختلاف طبيعة الاختبار . فمعامل الارتباط في الاختبارات اللغوية أعلى منه في الاختبارات العملية . وواضح أن التشابه بين خبرات الآباء وخبرات الأبناء اللغوية أكبر منه في الخبرات العملية التي تتكون منها الأجزاء الأخرى للاختبارات ؛ وهي حقيقة يمكن أن يعزى إليها التشابه العائلي بدرجة أكبر في الاختبارات اللغوية .

Courad, H.S. and Jones, H.E.: A Second Study of Familial Resemblance in Intelligence, 39th Yearbook, Nat. Soc. Stud. Educ., 1940, Part II, 97-141.

(١)

٢ - أن درجة التجانس في المحيط العائلي في الجماعة كانت كبيرة ، فالعينة كانت متجانسة من حيث الوسط الاجتماعي الاقتصادي إلى حد كبير . وهذه حقيقة لا يمكن إغفالها كما رأينا في تفسير النتائج .

٣ - كان الارتباط بين الآباء والأبناء في اختبارات الشخصية أقل منه في اختبارات الذكاء بمتوسط ٢٥ ، تقريباً .

٤ - إن التشابه بين أفراد العائلة إلى جانب ذلك ، قد يكون مرجعه إلى « تزواج الأشباه » فالناس عادة يميلون إلى أن يختاروا أقرانهم من بين أولئك الذين يشبهونهم في الخلفية الاجتماعية والذكاء وما إلى ذلك .

وقد ينير لنا الطريق أكثر من ذلك تلك البحوث التي أجريت على الإخوة . ولقد كانت الدراسات التي قامت على التشابه بين الإخوة أكثر عدداً . وهناك أكثر من اثنتي عشرة دراسة لعينات كبيرة الحجم . وقد أكدت جميعها وجود معامل ارتباط يقرب من ٥٠ ، بين الإخوة الأشقاء في اختبارات الذكاء^(١) . ومنها تلك الدراسة التي قام بها كونراد وجونز سالفة الذكر . وكما كان الحال في الارتباط بين الآباء والأبناء في اختبارات الشخصية ، كذلك كانت معاملات الارتباط بين الإخوة منخفضة فيها بوجه عام عنها في اختبارات الذكاء . وفيما يتعلق بنوع الاختبار أيضاً ، كان هناك ميل عام إلى الارتفاع في معامل الارتباط بين الإخوة - كما كان بين الآباء والأبناء - كلما كان نوع الاختبار لغوياً .

ولقد أشار البعض إلى أن معامل الارتباط الذي وجد بين الإخوة في المجتمع العام (وهو ٠,٥ تقريباً) يشبه جداً الارتباط المتوقع لسمة يحددها « عامل وراثي مركب » . وقبل أن نتحدث في قيمة مثل هذا التفسير ، يجدر بنا أن نتناول الفرض الآخر الذي يمكن أن نفسر على أساسه الارتباط في هذه الحالة ، وهو في فرض التشابه في البيئة ، وإلى أي مدى يمكن أن نتحقق من صحة هذا الفرض .

فسواء فيما يتعلق بالارتباط بين الآباء والأبناء ، أو فيما يتعلق بالارتباط بين الإخوة ، فقد اتضحت عدة عوامل : منها التشابه أو التجانس في البيئة أو الحالة الاجتماعية الاقتصادية للأفراد ، ومنها أن التباين على الاختبارات العملية في الذكاء ، كل ذلك يقوى الاحتمال بأن العوامل البيئية - سواء كانت معروفة محددة أم غير معروفة - هي التي تعتبر مسؤولة عن هذا الارتباط . وإذا كان هذا الفرض صحيحاً . فإنه يلزم عن ذلك أننا إذا ساوينا بين مجموعة

(١) Anastasi and Poli مرجع سابق ، الفصل العاشر

من الإخوة وبين مجموعة أخرى من غير الأخوة من حيث العوامل الاقتصادية الاجتماعية .
فإننا نتوقع أن نجد أن الارتباط بين غير الأخوة قد يصل إلى نفس الدرجة التي وصل إليها
الارتباط بين الأخوة .

وقد قام « سيمز »^(١) ببحث يؤكد صحة هذا الفرض . وكان البحث عن أطفال من
المرحلة الخامسة إلى الحادية عشرة . وقد وجد الباحث ٢٠٣ زوجاً من الإخوة في هذه
المراحل ، فوضع كل طفل مع أخيه وزواجه أيضاً مع طفل آخر من غير أقربائه في نفس
سنة ، ونفس مستواه الاقتصادي الاجتماعي ، ويذهب إلى نفس المدرسة . وقد كان معامل
الارتباط بين درجات اختبار ذكاء هؤلاء الأطفال غير الأقارب ٣٥ ، أى أقل بقليل من
معاملات الارتباط التي وجدت بين الأشقاء في نفس الدراسة . فإذا كانت قد تمت معادلة
المحيط المنزلي للأطفال غير الأقرباء بدقة أكثر وعلى أساس عدد أكبر من الخصائص ، لأصبح
معامل الارتباط بين درجات ذكائهم أعلى مما وصل إليه . وفي ذلك تأكيد لفرض تساوى
الظروف البيئية ، كعامل مستول عن الارتباط العالي بين الأشقاء أو الآباء والأبناء .

ومن ناحية أخرى فإننا نتوقع أيضاً ، إذا كان فرض البيئة فرضاً صحيحاً لتفسير التشابه
بين الأشقاء ، أن تغير البيئة بالنسبة للتوائم ، الذين تساوت عندهم فرص الوراثة تساوياً تاماً ،
يؤثر في نسبة ذكائهم ، وفي صفاتهم السلوكية الأخرى وقد سبق أن أوردنا التجارب
والبحوث التي تدل على صحة هذا الفرض ، وإن كان التأثير قد حدث في بعض الصفات
أكثر مما حدث في صفات أخرى ، مما دعا بعض الباحثين إلى الحديث عن « وراثة » تلعب
دوراً في نواح ، كالذكاء مثلاً ، أكبر من الدور الذى تلعبه في النواحي الأخرى .

على أن أكبر محك لفرض الوراثة (أو البيئة) هو ذلك الذى نستمد منه تغير البيئة
بالنسبة للأفراد أنفسهم وملاحظة ، ما يمكن أن يترتب على ذلك من تغير في الصفات السلوكية
التي يقال إنها « موروثه » . والواقع أن هناك ثلاثة أنواع من المحاولات في هذا السبيل . النوع
الأول : هو تلك الدراسات التي أجريت على الأطفال الممهلين الذين قيس ذكاؤهم عقب
الحصول عليهم مباشرة وهم في حالة إهمال شديد ، ثم قيس مرة ثانية بعد العناية بهم وتدريبهم
تدريباً تعليمياً خاصاً . والنوع الثانى : هو تلك الدراسات التي أجريت على الأطفال المتبنون
حيث قيس ذكاء بعض الأطفال المتبنون قبل التبنى وبعده ، وحيث قورن ذكاء البعض الآخر

(١) Sims, V.M.: The Influence of Blood Relationship and Common Environment on Measured Intelligence, J. Educ. Psychol., 1931, 22. 56-65.

ما كان يتوقع أن يصلوا إليه على أساس ذكاء الآباء . أما النوع الثالث من الدراسات فهو ذلك الذى أجرى لمعرفة أثر التعليم المدرسى فى الذكاء . وقد دلت هذه الدراسات جميعاً على حدوث تغير واضح فى السلوك نتيجة لتغير البيئة . وقد اهتمت هذه الأبحاث على وجه الخصوص بالتغير الذى يمكن أن يحدث فى الذكاء باعتبار أنه من النواحي التى تار حولها جدل شديد من حيث إمكانية التغير ، فوجد أن التغير فى الذكاء يمكن ، بتغير البيئة ، أن يحدث فى حدود أربعين درجة^(١) . قد أكد أهمية « الوراثة » ، باعتبار أن التغير الذى حدث قد حدث فى حدود معينة .

واضح إذن أن هناك تغير فى السلوك يترتب على تغير البيئة . ولكن من الواضح أيضاً أن التغير الذى لوحظ فى هذه البحوث كان محدوداً . أى أن التغير حدث ، ولكن فى حدود . وقد حذا هذا ببعض الباحثين عند تفسيرهم للنتائج التى توصلت إليها هذه الأبحاث أن يؤكد أهمية « الوراثة » ، باعتبار أنها تحدد شكل السلوك بدرجة أكبر مما تفعله البيئة فى بعض الأحيان . بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فقرروا على سبيل التعميم ، أن كل صفة وكل نشاط يرجع إلى العاملين معاً : البيئة إلى الوراثة . وأصبحت المشكلة عندهم تنحصر فى القدر النسبى الذى تساهم به العوامل الوراثية والعوامل البيئية فى سلوك الفرد . فالبعض يقول مثلاً : إن ٧٥٪ من الذكاء تحدده الوراثة ، ولكن للبيئة أن تعمل فى حدود ٢٥٪ فقط . والبعض الآخر قد يحدد نسبة مختلفة ، وهكذا ... وقد قيل أيضاً إن الشخصية^(١) تتحدد بعوامل وراثية ، وأن القدرات تتحدد بعوامل وراثية ، وغير ذلك من أنواع السلوك الأخرى .

ولكن سواء كان البعض يرى أن دور الوراثة فى تحديد السلوك دور كلى ، أم يرى أنه دور جزئى ، فإن وجهة نظرنا من المشكلة لا يختلف . ذلك أن المشكلة هنا مشكلة منهجية تتعلق بنوع التفسير الذى يفترض الوراثة كعامل من العوامل التى تحدد السلوك ، ومدى قيمة مثل ذلك التفسير ، ومدى تحقيقه للشروط التى سبق أن وضعناها للتفسير العلمى . وليست المسألة هنا مسألة مساومة ، حتى ولو وصل الأمر إلى حصر الدور الذى يمكن أن يسند إلى الوراثة فى أضيق حدود ممكنة .

(١) للاطلاع على تفاصيل هذه الأبحاث انظر كتاب : Anastasi and Foli: Differential Psychology. السابق الذكر فى الفصول ٥ ، ٨ ، ١١ وكذلك كتاب ميادين علم النفس : تأليف جيلفورد وترجمة يوسف مراد وآخرون ، الجزء الثانى ، الفصل الرابع عشر ، دار المعارف ١٩٥٦ .
(١) راجع نظرية شلدون فى الأنماط مثلاً أو البورت فى السمات أو غيرهما من نظريات الوراثة فى الشخصية .

إن كثيراً جداً من أشكال السلوك الذى كان يفسر على أساس أنه « وراثى » أو « فطرى » أو « غريزى » ، قد اتضح تجريبياً ، كما سبق أن رأينا أنه ليس فى الواقع كذلك . حقاً إن أثر البيئة ، كما حددتها هذه البحوث ، كان محدوداً . وكانت حدود التأثير متفاوتة تبعاً لنوع الظاهرة السلوكية موضوع البحث من ناحية ، وتبعاً لنوع الظروف البيئية المؤثرة من ناحية أخرى . ولكن هل معنى هذا أن حل المشكلة هو أن السلوك تحدده البيئة والوراثة معاً ينسب متفاوتة ؟ ما معنى هذا الكلام ؟ وما الذى يقصد هنا بكلمة وراثة ؟ وكيف يحدث أثر هذه الوراثة ، وما هى العلاقة الوظيفية بين ما نسميه بالوراثة وبين الظاهرة السلوكية ؟ كل هذه أسئلة لا بد من الإجابة عليها قبل أن نقم فرض الوراثة هنا إقحاماً على تفسيرنا للسلوك ؛ حتى ذلك السلوك الذى نجد أن من الصعب علينا تغييره أو تعديله باستخدام الظروف البيئية المعروفة لدينا فى الوقت الحاضر^(١) .

ولنتذكر أولاً أن العلم لا يعترف بأساس ما لم تكن عبارة عن وقائع أو ظروف أو أحداث تمكن ملاحظتها . ولا يعترف بتفسيرات ما لم تهدف إلى زيادة قدرتنا على التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه . وقد يقال إن الوراثة هى ما نشاهده من تشابه بين سلوك الآباء وسلوك الآباء . ولكن حتى عندما نلاحظ أن هناك تشابهاً بين سلوك الآباء وسلوك الآباء ، فإن هذه هى الظاهرة نفسها التى نريد أن نفسرها وليست السبب . وقد تبعت بعض الأبحاث المتعلقة « بوراثة » الذكاء أو القدرات الخاصة أو الجنون الخ ، قد تبعت بعض هذه الأبحاث على الاعتقاد بأن السلوك نفسه هو الذى يورث . بل قد لا تخلو بعض الكتابات السيكلوجية من ادعاء ذلك صراحة . ولاشك أن هذه الادعاءات واضحة السذاجة ولا تحتاج منا إلى مناقشة ، ذلك أنه لا يمكن أن يتصور كيف يمكن أن ينتقل الأداء أو السلوك الذى يصنر من الأب أو من الجد إلى الجنين فيخترنه فى مكان ما ، لكى يجتر منه ما يجتر فى مراحل معينة من عمره .

على أن بعضهم قد يكون أكثر تحفظاً فيدعى أن الذى « يورث » ليس هو السلوك ولكنه « استعداد » للسلوك . فالاستعدادات أو « الإمكانيات » أو ما شابه ذلك من الماهيات الغامضة هى التى « تنتقل بالوراثة » ، أما السلوك الفعلى فيتحدد بناء على التفاعل الذى يتم بين هذه الاستعدادات من ناحية ، وبين البيئة التى يعيش فيها الفرد من ناحية

(١) لقد زادت هذه المعرفة فى العشر سنوات الأخيرة - كما سيوضح فيما بعد - زيادة جعلت أى تعديل - من الناحية النظرية على الأقل - يمكن استحداثه فى النتائج الوراثى الأصل ، وذلك بفضل ما يسمى بالهندسة الوراثية (انظر : عبد المحسن صالح : التنبؤ العلمى ومستقبل الإنسان . العدد ٤٨ لسنة ١٩٨١ سلسلة عالم المعرفة - الكويت) .

أخرى . فالبينة أو الظروف البيئية هي التي « تقدر » هذه الاستعدادات وتخرجها من حيز « الإمكان » أو من حيز « الكمون » إلى حيز « الفعل » . وقد تظل هذه الاستعدادات كامنة حتى تجد ما يخرجها ، وقد تبقى كامنة إذا لم تجد الظروف المناسبة . فالملوهبة الموسيقية والاستعداد الرياضي والميول الإجرامية ... وغيرها من الخصائص السلوكية قد تفسر ، بناء على الاتجاه السابق الذكر ، بأنها عبارة عن استعدادات وراثية تخرج إلى حيز القدرة الفعلية (أو السلوك الفعلي) نتيجة لاحتكاك الفرد بظروف بيئية معينة . تلك هي النظرة التي تفسر نسبة معينة من السلوك بإرجاعها إلى الوراثة أو الاستعداد الوراثي ، ونسبة أخرى منه بإرجاعها إلى البيئة .

فإذا سألنا هؤلاء ما هو الاستعداد ، وكيف يتنقل بالوراثة ؟ لم نحظ بجواب شاف . والجواب الشاف في الإطار العلمي الذي تفكر في حدوده هنا هو - كما سبق أن أوضحنا - ذلك الجواب الذي يمكننا من أن نحدد شروطاً أو ظروفًا أو أحداثاً معينة قابلة للملاحظة . وكلمة استعداد لا تضيف شيئاً في هذا الاتجاه . مثلها في ذلك مثل الغريزة وغيرها من المفاهيم الغيبية التي سبق أن تعرضنا لها . وقد يقال هنا أيضاً - كما قيل في حالة الغريزة - حقاً أننا لا نستطيع أن نلاحظ الاستعداد الوراثي لملاحظة مباشرة ، ولكن هذا لا يعنى أنه غير موجود . فالاستعداد الوراثي ليس شيئاً ولكنه « فرض » نستخلصه من الشواهد الملاحظة . وقد سبق أن رأينا مدى عقم مثل هذا الكلام من الناحية العلمية ، عندما فندنا مثل هذه الحجة عند أصحاب نظرية الغرائز . فالمفروض في الفرض العلمي أنه يستند من ناحية إلى الظاهرة أو مجموعة الظواهر التي يحاول تفسيرها ، ويستند من ناحية أخرى إلى مجموعة من الظروف أو الشروط أو المتغيرات المستقلة التي يعتبرها مسؤولة عن حدوث الظاهرة . فإذا طبقنا هذا الكلام على مفهوم « الاستعداد الوراثي » نجد أنه لا يمثل فرضاً بهذا المعنى . ذلك أنه لا يستند إلى مجموعة من الظواهر تمثل المتغيرات المستقلة أو المقدمات السببية المسؤولة عن حدوث الظاهرة موضوع التفسير . إنه لا يمثل سوى جهلنا بالعوامل أو الأسباب الحقيقية المسؤولة عن السلوك .

ولكى تزيد الأمر إيضاحاً نتبع منطق الذين يقولون بوراثة الظواهر السيكلوجية كالذكاء والقدرات الخاصة والسمات وغير ذلك . إن كل ما يلاحظه هؤلاء هو أن الأفراد يختلفون عن بعضهم البعض من حيث الأداء ، وذلك في المجالات المختلفة التي يمكن أن يظهر فيها السلوك . فبعضهم يتفوق على البعض الآخر (تبعاً لمعيار معين) في الأداء الموسيقي مثلاً ، أو في معالجة الأمور الهندسية أو في الفهم بوجه عام ، أو في استخدام اللغة ، أو في غير ذلك من المجالات المتعددة التي يمكن أن يظهر فيها السلوك . ويمكن أن تظهر هذه الفروق في أي بعد من الأبعاد التي يقاس السلوك من زاويتها كبعد الشدة أو بعد السرعة أو بعد

الدقة أو غير ذلك . وقد يريد صاحب نظرية الوراثة أن يصف الأفراد من هذه الناحية ، أى من ناحية اختلافهم عن بعضهم البعض . فرتبهم فى فئات يتميز سلوك كل فئة منها بخصائص معينة ، ثم يعطى كل فئة صفة ، فيقول هذا عبقري مثلاً ، وذلك عادى . وهكذا ... إذا أراد أن يصف الفرد من حيث اختلافه عن الآخرين فى القدرة على التعلم أو الفهم العام . أو يقول هذا مضطرب وهذا متوافق إذا أراد أن يصف الفرد من حيث اختلافه عن الآخرين فى التوافق ... وهكذا . ثم قد يريد صاحب نظرية الوراثة أن يتحدث بعد ذلك عن الخاصية ذاتها ، أو مجموعة الخصائص التي يتميز بها سلوك فئة عن سلوك الفئات الأخرى ، فيتحدث عن العبقرية والاضطراب النفسى أو العقل والقدرة الموسيقية والقدرة الهندسية والذكاء وغير ذلك . وأخيراً عندما يريد صاحب نظرية الوراثة فى السلوك أن يفسر وجود هذه الخصائص أو ثبوها فى سلوك الأفراد ، وتعز على ملاحظته الأسباب الحقيقية التي تؤدى إلى ذلك ، فإنه يجعل من هذه الخصائص ذاتها (وهى المعانى المجردة التي استخلصها من الأمثلة العينية للسلوك) يجعل منها قوى أو أسباباً تحدد السلوك نفسه الذى استخلصها منه ، وتنتقل من الأب إلى ذريته . ثم يجعل لهذه القوى مكاناً على كروموسومات الخلية الحية ، ويسمىها « استعدادات وراثية » . فالاستعداد الوراثى للاضطراب النفسى هو السبب فى الاضطراب النفسى والاستعداد الوراثى للذكاء هو السبب فى الذكاء ، والاستعداد الوراثى للموسيقى هو السبب فى القدرة الموسيقية والاستعداد الوراثى للإجرام هو السبب فى الميل الإجرامية وهكذا . ولكن ما معنى هذا ؟ ما هو الاستعداد ؟ وكيف ينتقل من فرد إلى آخر ؟ وكيف يحدد السلوك ؟ كل هذه أسئلة لا جواب عليها . والسبب واضح ؛ ذلك أن كلمة « استعداد وراثى » ليست سوى تسمية جديدة للظاهرة التي اقترنت بها . ليست سوى لفظ آخر علق على الخصائص السلوكية التي يدعى تفسيرها . ولذلك كله فهو لا يصلح كتفسير علمى ؛ ذلك أنه لا يضع أيدينا على متغيرات مستقلة مسئولة عن الظاهرة ، بل هو لا يعبر إلا عن جهلنا بمثل هذه المتغيرات .

فنحن عندما نقول إذن بوراثة المهبة الموسيقية أو الاستعداد الرياضى أو الميل الإجرامية ، فإننا نضل أنفسنا تضليلاً تاماً دون أن ندري . ذلك أن كلمة الوراثة هنا لا تضيف شيئاً إلى الظاهرة المراد تفسيرها . بل كل ما تعبر عنه هو مجرد غيبيات لا وجود لها فى الواقع . فمن المؤكد ألا يتوقع أحداً أن تنتقل الخصائص السلوكية - وهى معان مجردة - أن تنتقل بطريقة غامضة خلال « مورثات » ، تعتقد نظرية الوراثة نفسها (فى البيولوجيا) أنها أجسام كيميائية نوعية تعمل ، عن طريق تفاعلات متعاقبة مع مواد أخرى فى البيئة ، على نمو الأبنية التي تكون الإنسان . ولا تتوقع نظرية الوراثة (فى البيولوجيا) أن تجدد فى هذه الأجسام « قوى دافعة » أو « استعدادات » أو « محلدات » أو أية ماهيات وهمة أخرى .

فالأبنية الجسمية تتصف بخصائص بنائية ، كالوظائف البيولوجية أو التفاعلات الكيميائية . ولكن هذه الخصائص البنائية شيء والخصائص السلوكية شيء آخر . وفي اعتقادنا أن الكثير من الخلط والجدل في أبحاث الوراثة والبيئة في علم النفس ، نشأ من الفشل في التمييز بين الخصائص السلوكية والخصائص البنائية . فالخصائص السلوكية لا تلاحظ إلا في السلوك ومن التخريف افتراض وجودها في الأبنية الجسمية والعكس بالعكس . وإن مثل من يفترض وجود الذكاء في الخلية الحية ، كمثل من يريد أن يشاهد التكاثر أو التفاعل الكيميائي في حل مسألة هندسية أو في عدوان شخصي على آخر .

ويرتكب الذين يفترضون توريث الصفات السلوكية مغالطة من نوع آخر . فأحياناً ما تكون الصفة التي يفترض وراثتها هي نفسها غامضة وغير محددة حتى في أذهاننا نحن . ومرة أخرى نضرب مثلاً بالذكاء . ما الذي يعنيه بالضبط علماء السلوك بكلمة « ذكاء » ؟ لقد صممت اختبارات الذكاء أولاً للتنبؤ بالتحصيل المدرسي ، وهي لا تزال تفعل ذلك حتى اليوم . ولقد كان هذا هو المنطلق الذي استقيناه منه في البداية مفهوم الذكاء . على أن اختبارات الذكاء لا تستطيع أن تتنبأ لنا بما يمكن أن يصل إليه الشخص في الحياة الواقعية من حيث العمل والدخل^(١) . وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد أن الأداء في اختبارات الذكاء يمكن أن يتأثر بعوامل موقفية كاللدافع ، والقلق ، والثقافة والإلفة بمواقف الاختبار^(٢) ، وغير ذلك . كذلك وجد أن الأداء على اختبارات الذكاء يتأثر إلى حد كبير بتحيزات الباحثين . فعند تطبيق اختبارات الذكاء على أطفال الفئات المحرومة الذين يوصفون عادة بالحرمان اللغوي وبافتقار يهتم إلى ما يثير .. إلخ ، وجد أن أداءهم تحسن كثيراً إذا ما ذهب المختبر إلى منازلهم وتحدث معهم عن موضوعا مهمة بالنسبة لهم ، عما إذا تعرضوا لمواقف الاختبار التقليدية ، حيث يكون أداءهم عندئذ متخلفاً بشكل واضح .

ومن الدراسات التي أجريت في مجال قياس الذكاء في الثقافات المختلفة ، وجد أنه لا الخبرات المتضمنة في الاختبارات هي الأساس الذي يقام عليه الحكم على التميز أو المتفوق أو الكفاء في هذه الثقافات ، ولا الإجابات النموذجية لأسئلة الاختبار (حسب تقدير واضعيه) تعتبر كذلك في نظر المستخبرين من هذه الثقافات . فكثير من أنواع المهارات التي لا نعتبرها مهمة ما ، قد يكون لها وظيفة هامة جداً في بعض الثقافات الأخرى . ففي إحدى القبائل

(١) Jenkins, C. Smith, M., Acland, H., Bane, M. J., Cohen, D., Ginits, H., Heyns B., and Michelson, S. (1972). Inequality: A Reassessment of the Effect of Family and Schooling in America. New York, Basic Books.

(٢) Zigler, Abelson and Seitz. Child Development. 1973, 44, 294-303.

البداية وتسمى بولوات آتول (Pulawat Atoll) مثلاً ، وجد نظام دقيق ومعقد يساعد على الملاحة لمسافات طويلة وتستخدم فيه العلاقات بين الرياح والتيارات البحرية في التوجيه . ولا يعتمد هذا النظام على أى تعليم تقليدى أو أى تكنولوجيا عصرية ، بل على مجرد دقة الملاحظة والتطبيق العملى للمهارات اليومية المعقدة . ولقد تساءل الباحث^(١) : هل يستطيع ملاحو « بولوات » أن يتفوقوا فى اختبارات الذكاء الأمريكية وهل يستطيع الفرد الأمريكى العادى أن يتعلم نظام الملاحة فى « البولوات » . إن البحث لم يسفر عن إجابة إيجابية فى الشطر الأول من السؤال على الأقل .

ويفترض علماء النفس أن تصنيف الأشياء بناء على وضعها فى فئات (أطعمة ، أدوات ، وما إلى ذلك) يعتبر درجة أكثر تقدماً من تصنيف الأشياء بناء على الطريقة التى توجد بها مع بعضها البعض (طبق وفنجان مثلاً) . ولكن عندما طلب من مجموعة أفراد من قبيلة كيبيل (Kepelle) أن يصنفوا مجموعة من الأشياء تشتمل على مأكولات وأدوات منزلية وملابس وما إلى ذلك ، أصروا على تجميعها فى فئات كل منها يشتمل شيئين اثنين يربط أحدهما بالآخر الوظيفية وليس صفة مجردة . السكين مع البرتقال مثلاً والبطاطس مع الفأس وهكذا^(٢) . وعندما كان يسأل المفحوص ما هى فكرته وراء هذا التصنيف كان يجيب بأن السكين تقطع البرتقال . وعندما كان المجرب يسأله كيف يصنف الغبى هذه الأشياء ، كان المفحوص يضعها فى فئات بالصورة التى نعتبر نحن أنها أكثر تقدماً من ناحية النمو المعرفى .

وباختصار فإن التجارب والأبحاث التى أجريت على اختبارات الذكاء تؤكد أن الاختبارات قد قامت على نظرية ضيقة جداً لمفهوم التفوق أو مفهوم الكفاءة ، وأن الأداء عليها يتأثر بعوامل موقفية وثقافية متعددة . فما نعتبره نحن ذكاء لا يعتبره غيرنا ذكاء والأداء الذى نظن أنه نتيجة لعمليات معرفية معينة هو فى الواقع نتيجة لعوامل أخرى (ولو بشكل جزئى) . فبأى من هذه المعانى إذن تسجل صفة الذكاء على الجينيات كصفة وراثية ؟ الذكاء بمعنى القدرة على النجاح فى الدراسة أم الذكاء بمعنى القدرة على النجاح فى الحياة ؟ الذكاء باعتباره محصلة عمليات معرفية معينة أم باعتباره محصلة عوامل انفعالية وثقافية ؟ الذكاء باعتباره قدرة على التفكير المجرد أو استخدام الرموز اللغوية أم باعتباره قدرة على التفكير الوظيفى واستخدام المؤشرات الواقعية التجريبية ؟ . وما يقال عن الذكاء يمكن أن ينطبق على أى مفهوم سلوكى آخر إذا ما أردنا أن نفسره عن طريق الوراثة .

Gladwin, T. East is a big bird: Navigation and Logic in Pulawat Atoll. Cambrige: (١)
Harbard University Press 1970.

Click, J. Cognitive Development in Cross-Cultural Prespective. In Review of Child (٢)
Development Research (Vol.4) Chicago: University of Chicago Press, 1975.

إن البعض لكى يتدارك التناقض الواضح فى مثل هذا الوضع لمشكلة الوراثة فى السلوك يضع المشكلة وضعا آخر بأن يقول : أن الوراثة تعمل عن طريق التكوين البيولوجى للفرد . ذلك أن الوراثة ، وإن كانت لا تؤثر فى نمو السلوك مباشرة ، إلا أنها تؤثر فيه بطريق غير مباشر ، خلال التجهيز البنائى للفرد . وعلى ذلك يبرز أماننا الآن سؤالان هما : أولاً ما هو الدور الذى تلعبه الخصائص البنائية فى نمو السلوك ؟ وثانياً ما هو الدور الذى تلعبه الوراثة فى الخصائص البنائية ؟

أما عن السؤال الأول ، فإن السلوك يتطلب كائناً يسلك . وهذا الكائن يتميز بتركيب عضوى أو بتجهيز بنائى معين ، يشبه ذلك الذى كان عليه أجداده . والخصائص البنائية بهذا المعنى هامة جداً فى تحديد سلوك الكائن الحى . وترجع أهميتها فى هذا الصدد إلى ما تضعه من قيود على السلوك . فالقطة لا تستطيع الطيران لأنها لا تملك أجنحة . والطفل ذو الغدة الدرقية الناقصة بطيء الحركة بليدها . كما أن نمو أنماط معينة للسلوك يتطلب سابق وجود للأعضاء المختصة والجهاز العصبى الإنسانى ، وهكذا .

فوجود خصائص بنائية معينة يعتبر بحق شرطاً ضرورياً لحدوث أى نمط نوعى سلوكى . على أن هذه القضية لابد أن تردف بقضية أخرى ، وهى أن هذا الشرط غير كاف . وبمعنى آخر فإن وجود مستلزمات بنائية معينة لا يؤكد فى حد ذاته ظهور أى نمط نوعى للسلوك . كما أن غياب نمط معلوم للسلوك لا يتضمن بالضرورة وجود نقص بنائى معين . كذلك فإن الاختلافات السلوكية لا تعنى بالضرورة اختلافات بنائية مقابلة . بل يمكن أن نقول أنه باستثناء الأفراد ذوى النقص البنائى المرضى ، فإن التجهيز البنائى لمعظم الأشخاص يبلغ حداً يسمح فى الغالب بنمو سلوكى غير محدود التنوع . وباختصار فإن التكوين البنائى لا تظهر أهميته كشرط من شروط السلوك إلا فى حالات النقص المرضى الكبير مثل النقص الغدى ، والشروط الخفية المرضية . والتركيب الكيميائى المرضى للدم وما إلى ذلك . وسوف نتطرق إلى هذه النقطة مرة أخرى فى مكان لاحق .

أما عن السؤال الثانى فإذا فرض أن هناك شرطاً بنائياً مرتبطاً بخاصية سلوكية معلومة ، فما معنى أن نعزو هذا الشرط البنائى إلى عوامل « وراثية » ؟ ذلك أنه قد يقال مثلاً أن هذا الشرط البنائى أو ذاك هو نتيجة لعوامل « وراثية » ، وحيث أنه يؤثر فى السلوك ، لذا يمكن اعتبار أن « الوراثة » تؤثر فى السلوك على هذا النحو بشكل غير مباشر . ولكى نوضح هذا الكلام نصرب مثلاً بالضعف العقلى . فإذا اتضح مثلاً أن نقصاً سلوكياً معيناً ، وليكن النقص المتمثل فى الضعف العقلى يرتبط بشرط مخفى معين ، فإن هذا الشرط بدوره قد يفسر على أنه نتيجة لوجود عيب « بموروثات » معينة . فيقال مثلاً أن عيباً موروثاً قد

يعوق المخ عن أن ينمو نمواً طبيعياً بحيث ينشأ عن ذلك صورة من صور الضعف العقلي . فما معنى هذا الكلام ؟ أنه وإن كانت الإجابة على هذا السؤال سوف تقودنا إلى الكلام عن الوراثة في مجال الظواهر البيولوجية إلا أننا مع ذلك لا نعتبر هنا خروجاً عن الموضوع ، ما دمنا قد رأينا كيف يتحدد نمو السلوك جزئياً على الأقل ، بناء على التكوين البيولوجي للكائن الحي .

حقائق بيولوجية في الوراثة :

توصلت الأبحاث في العلوم البيولوجية إلى أن هناك نوعين من الخلايا في الجسم - الخلايا الجسمية (Somatic Cells) والخلايا الجرثومية (Germ Cells) . وتشمل الخلايا الجسمية جميع الخلايا في الجسم ما عدا تلك المنتجة أو الجرثومية (أى خلية الحيوان المنوي و خلية البويضة) . وتتحكم الخلايا الجسمية في تكوين الجسم للعظام والعضلات والأعضاء . وكل من هذين النوعين من الخلايا يحتوي على « كروموزومات » ، وهى تركيبات أشبه بالخيوط توصف بأنها ناقلة للوراثة . ويوجد نفس العدد ونفس النوع من الكروموزومات لدى جميع أفراد النوع من الكائنات العضوية . فلدى أفراد الإنسان مثلاً تحتوي الخلية الجسمية على ٢٣ زوجاً من الكروموزومات (انظر الشكل رقم ١) ويصطف كل زوج معاً بالرغم من أن كلاً منهما تحمل رسائل وراثية مختلفة .

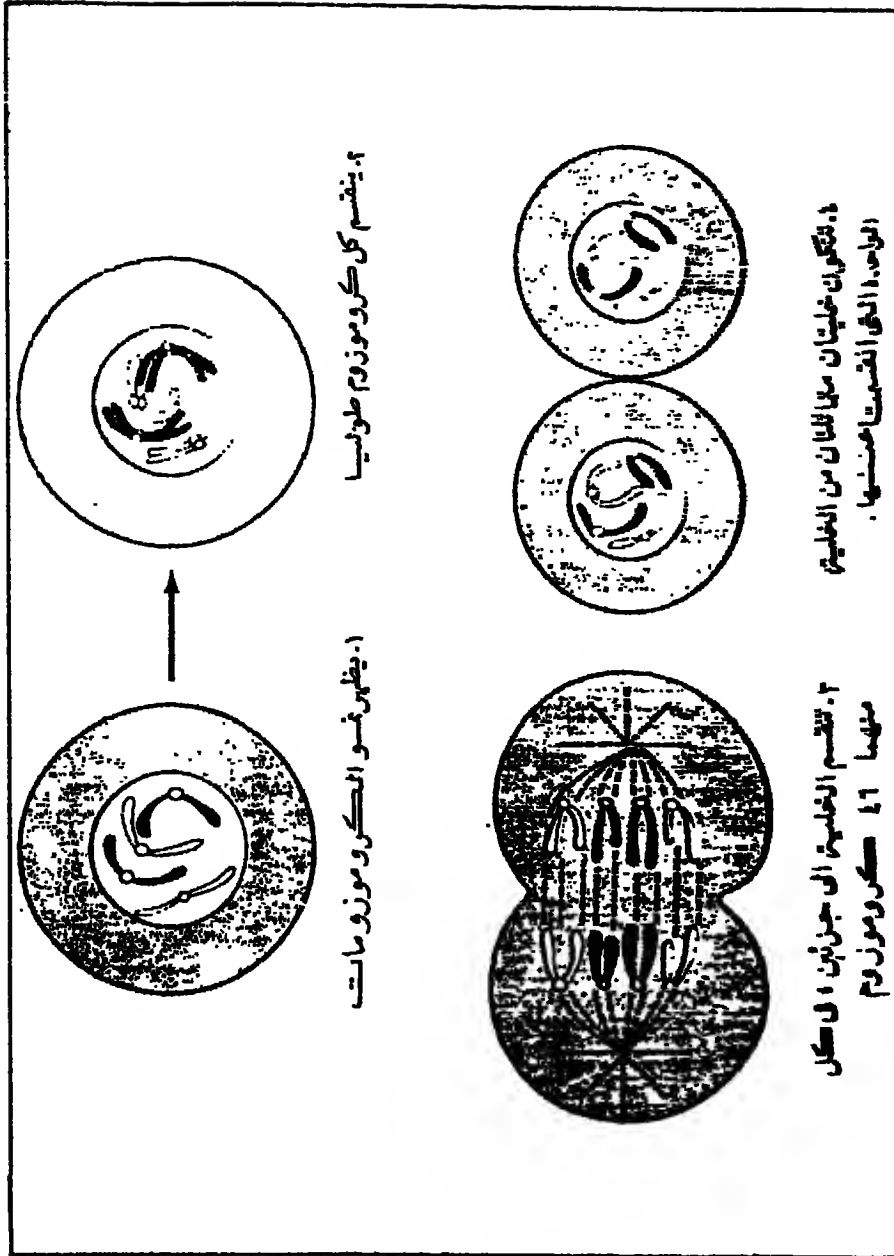
ويتكون كل كروموزوم بدوره من مجموعة من « الجينات » أو الموروثات وهى أصغر وحدات الوراثة . ويقدر العلماء أن حوالى ٤٤٠٠٠ (أربعة وأربعين ألفاً) من هذه الجينات ينتظم بشكل خرزات على كل زوج من الكروموزومات ، مما يعنى أن العدد الكلى للجينات قد يصل إلى المليون موزعة على الثلاثة والعشرين زوجاً من الكروموزومات .

ويختلف كل جين عن الآخر ، ولكل منها « رسالة » . ومن مجموع هذه الرسائل تتكون الشفرة الوراثية الكلية للفرد . أما الذى يحتوي على هذه الرسالة فهو التركيب الكيميائى للجين . وبعض هذه الجينات عامة في جميع أفراد النوع الإنسانى . وتضمن هذه الجينات العامة أن يغطى جسم الإنسان الجلد بدلاً من الفراء مثلاً ، وأن تنمو لديه رتبان وليس خياشيم ويدان وليس مخالب وعمود فقرى يجعله يستطيع أن يمشى وقوفاً وهكذا . ولكن بعض الجينات الأخرى تختص بتحديد الخصائص الفردية مثل لون الجلد والعينين والشعر ، والقابلية للإصابة بأمراض معينة وغير ذلك من الخصائص العضوية . وعلى ذلك فإن الجينات في الإنسان تحمل نوعين من الرسائل أحدهما يجعل من الفرد إنسانياً وليس كائناً آخر والنوع الآخر يجعل منه فرداً متميزاً .

وتتكون الجينات والكرموزومات من مركب كيميائي يعرف باسم حمض ديوكسيريونوكلايد (Deoxyribonucleic acid) ويختصر بالأحرف (DNA). وهذا الحمض هو الحامل الكيميائي للشفرة الوراثية إلى جميع الخلايا في الجسم. وبالرغم من أن العلماء قد عرفوا بوجود الـ (DNA) في خلايا الجسم منذ مدة طويلة (حوالي ١٠٠ سنة تقريباً) إلا أنه في سنة ١٩٥٣ فقط توصل عالمان هما ج. د. واطسن وف. ه. كريك (J.D. Watson & F.H. Crick) إلى اقتراح نموذج لتركيب ذلك الحمض فقد توصلوا إلى أنه عبارة عن جزيء ضخم مركب من خمس عناصر كيميائية هي: الكربون والأيدروجين والأوكسجين والنيتروجين والفوسفور ويمكن لكل جزيء من الـ (DNA) أن يتشكل في آلاف من التشكيلات الممكنة وتسبب التشكيلات المختلفة للـ (DNA) الاختلافات الموجودة بين الجينات. فتوجه تشكيلات مختلفة منه خلايا معينة لكي تصبح عظاماً وأخرى لكي تكون أعضاء وهكذا. والمعروف لدى البيولوجيين أن الـ (DNA) يقوم بذلك عن طريق حامض نووي آخر هو حامض ريونوكلايد ويرمز إليه بالأحرف (RNA) وعلى عكس الـ (DNA) فإن الـ (RNA) يمكنه أن يطوف بحرية بين الخلايا ويوجه بناء البروتينات المختلفة. وعلى ذلك فإن الـ (RNA) يعمل كرسول من قبل الـ (DNA) من نواة الخلية إلى باقي الخلية.

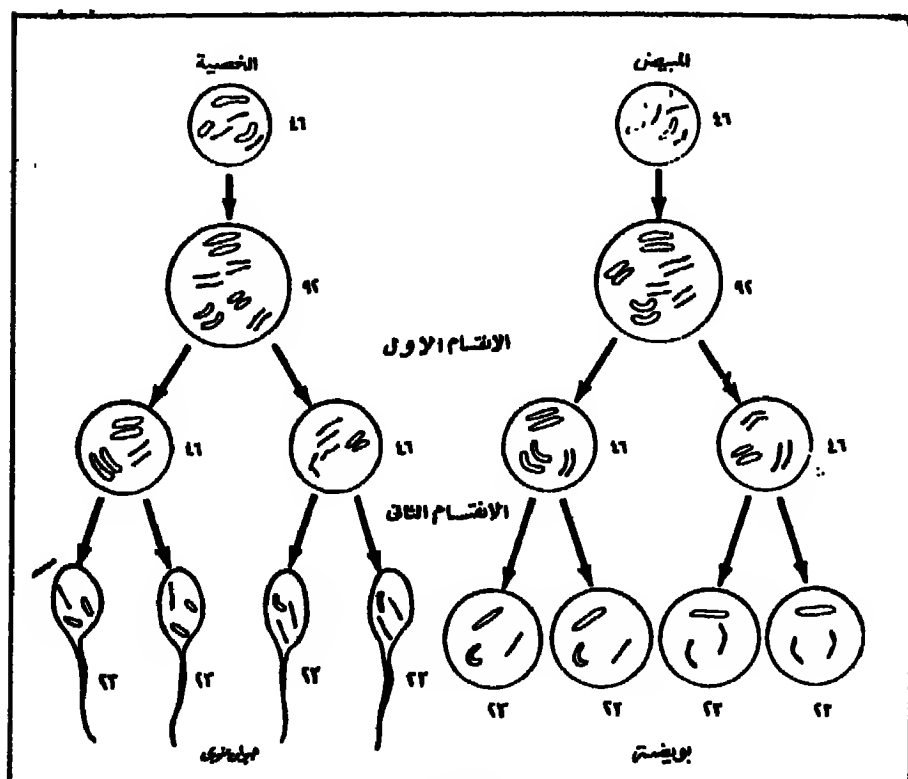
وفي مسار النمو تنقسم الخلايا الجسمية في عملية تعرف بالانقسام الخلوي. وكما ذكرنا فإن كل خلية في جسم الإنسان لها نفس المحتوى الوراثي كأي خلية أخرى، والسبب في ذلك هو أنه في أثناء انقسام الخلايا فإن كل جين يقوم بصنع نسخة من نفسه. ذلك أن الكروموزومات الستة والأربعين في كل خلية تنمو ثم تنقسم طولياً لكي يصبح مجموعها مضاعفاً أي ٩٢ كروموزوماً. ثم يتحرك نصف هذا العدد إلى أحد قضبي الخلية والنصف الآخر المماثل له تماماً إلى القطب المقابل. وعندئذ تعيد الخلية تنظيم نفسها بأن تنقسم إلى جزأين في كل منهما العدد الطبيعي لكروموزومات وهو ٤٦ كروموزوماً. وبذلك تكون كل خلية من هاتين الخليتين الجديدتين عبارة عن صورة طبق الأصل من الخلية الأم التي انقسمتا منها. (انظر الشكل ٢) .

أما الخلايا الجرثومية فهي شبيهة بالخلايا الجسمية في التركيب الكيميائي الأساسي، إلا أنها تتميز بأنها تكون فقط الخلايا المنتجة للجسم، وهي الحيوان المنوي عند الرجل والبويضة عند المرأة. وتحتوي كل خلية جرثومية على ٢٣ كروموزوماً فقط. أي نصف عدد الكروموزومات الموجودة في الخلايا الأخرى في الجسم. وعندما يتحد الحيوان المنوي مع البويضة، فإن الكائن الناتج يصبح حاصلاً على العدد الصحيح من الكروموزومات وهو ٤٦ كروموزوماً.



الشكل (٧)
انقسام الخلية

وتتكاثر الخلايا الجرثومية عن طريق الانقسام مرتين لا مرة واحدة كما هو الحال في الخلايا الجسمية ، وذلك لكي تنتج الخلية الواحدة أربع خلايا ويشتمل كل منها على ٢٣ كروموزوماً . (انظر الشكل ٣) ويحتوي كل حيوان منوي أو بويضة ناتجة عن ذلك الانقسام على نصف العدد الكلي لجينات الأب أو الأم . وحيث أن كل كائن انساني عند الإخصاب يرث ٢٣ كروموزوماً من كل من الأب والأم وحيث أن كل كروموزوم يحتوي على آلاف الجينات التي يمكن أن يعاد تصنيفها بطريقة عشوائية عند اتحاد الخليتين الجرثوميتين ، لذلك فإن عدد التشكيلات المحتملة التي يمكن أن تتخذها الجينات في هذا الوضع الجديد قد يصل إلى ملايين الملايين . أضف إلى ذلك أنه في حالة الجماع فإن الذي يدخل الرحم من الحيوانات المنوية عدد يتراوح بين ٥٠ إلى ٥٠٠ مليون وجميعها يختلف وراثياً . والمعروف أن واحداً فقط من هذه الحيوانات هو الذي يخصب البويضة . وعلى ذلك يمكن القول أن عدد التشكيلات الممكنة للجينات التي يرث الطفل تشكياً من بينها عن أبويه المباشرين يصبح خارج نطاق قدرة أى عقل بشرى على التصور .



الشكل (٣)

انقسام الخلية الجرثومية . لاحظ أن الخلايا الأربعة (سواء في حالة البويضة أم الحيوان المنوي) التي تنتج في النهاية عن عملية الانقسام هذه ، تحتوي كل منها على ٢٣ كروموزوماً فقط .

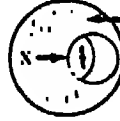
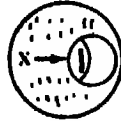
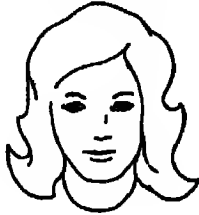
والذى يحدث عند الاخصاب هو أن كل كروموزوم من الكروموزومات الثلاثة والعشرين الواردة من الأب يجد الكروموزوم المناسب له من بين العدد نفسه الموجود في البويضة ، ومن بين الثلاثة والعشرين زوجاً من الكروموزومات الناتجة من هذا التزاوج يوجد اثنان وعشرون زوجاً تختص بتحديد الوراثة في جميع النواحي ما عدا ناحية الذكورة والأنوثة . أما الزوج المتبقى فهو الذى يحدد ما سيكون عليه المولود من حيث الجنس . وفي هذه المجموعة المكونة من اثنين وعشرين زوجاً من الكروموزومات تتزاوج معاً الجينات التى تؤثر في نفس الصفة ، مثل لون العينين أو لون الشعر ... الخ .

وغالباً ما يكون أحد هذه الجينات « مسيطراً » والآخر « متيحياً » . ومعنى ذلك ، كما قد توحى التسمية ذاتها ، أن يتغلب أحد هذه الجينات على الآخر ويصبح هو الذى يحدد خصائص الفرد في هذه الناحية . مثلاً إذا كان أحد الأبوين ذا عينين سوداوين والآخر ذا عينين زرقاوين ، عندئذ قد يتغلب الجين الحامل لصفة السواد في العينين على الجين الآخر المقابل له الحامل لصفة الزرقة في العينين وتكون النتيجة أن يكتسب المولود اللون الأسود بالنسبة لعينه وليس اللون الأزرق . وهكذا .

كذلك أوضحت البحوث البيولوجية أن نوعين من الكروموزومات يمكن أن يظهرهما في الزوج الثالث والعشرين من الكروموزومات الموجودة لدى الإنسان : نوع على شكل (X) ونوع على شكل (Y) . وهذه هي الكروموزومات التى تحدد الجنس أى التى تحدد ما إذا كان الفرد سيكون ذكراً أو أنثى . فإذا كان كلا فردى هذا الزوج من الكروموزومات على شكل (X) كان المولود أنثى أما إذا كان أحدهما على شكل (X) والآخر على شكل (Y) كان المولود ذكراً . والذى يحدث هو أن البويضة تشتمل دائماً على كروموزومات على شكل (X) أما الحيوانات المنوية فإن نصفها يحتوى على كروموزوم واحد في شكل (X) ونصفها الآخر يحتوى على كروموزوم واحد في شكل (Y) فإذا لقحت البويضة بحيوان منوى من النوع الأول أى من النوع الذى يحتوى على كروموزوم في شكل (X) كان المولود أنثى أما إذا لقحت بحيوان منوى من النوع الثانى أى من النوع الذى يحتوى على كروموزوم في شكل (Y) كان المولود ذكراً . (انظر الشكل ٤) .

ولا تحدد الكروموزومات من نوع (Y,X) جنس المولود فقط بل تحدد أيضاً الوراثة المرتبطة بالجنس . وذلك أن عدداً من العيوب الوراثية في الذكور تسببها الجينات المتتاحة على الكروموزوم (X) . فقد تسبب مثل هذه الجينات المتتاحة مثلاً العمى اللوني والهموفيليا (عدم قسرة الدم على التجلط) والصلع . ففى النسل من الإناث قد تغطى الصفات المتتاحة على الكروموزوم (X) الوارد من الأم جينات للصفات السائدة على الكروموزوم (X) الوارد

بويضات الإناث تحمل دائماً كروموزوم الجنس من نوع X

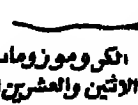


الكروموزومات
بوتيرة لا تتغير أبداً

حيوانات الارب من نوعين



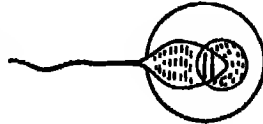
واحد يحمل
كروموزوم X
والآخر يحمل
كروموزوم Y



واحد يحمل
كروموزوم X

والآخر يحمل
كروموزوم Y

إذا لقح حيوان منوي
يحمل X ببويضة

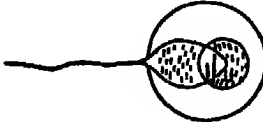


XX اتحاد
استحاد

النتيجة بنت



إذا لقح حيوان منوي
يحمل Y ببويضة



XY اتحاد
استحاد

النتيجة ولد



شكل (4)

ويبين كيف يتحدد جنس الجنين

من الأب . أما في حالة الذكور فلأن الكروموزوم (Y) أقصر من الكروموزوم (X) ، لذلك فقد لا نجد الجينات المتنحية على الكروموزوم (X) الوارد في الأم ما يقابلها في الكروموزوم (Y) . ولذلك يظهر أثر الجينات المتنحية . وإذا كانت الإناث هي التي تحمل الجينات المتنحية في مثل هذه الحالات لذلك فإنها غالباً ما تكون حاملة لهذه الشروط ولكن نادراً ما تصاب بها .

وقوت العيوب البنيوية التي يمكن أن يكون لها تأثير في النمو مستقبلاً بعدة طرق . فبعضها - كما سبق أن رأينا - ينتج عن وجود جينات متنحية على الكروموزوم (X) . وبعضها ينتج عن تزاوج الجينات المتنحية عن الاثنين والعشرين زوجاً من الكروموزومات التي لا علاقة لها بالجنس ، مثل وراثته بياض الشعر والبشرة . والبعض الآخر ينتج عن غياب كروموزوم بأكمله أو غياب جزء من كروموزوم أو عن زيادة كروموزوم عن العدد الطبيعي . وهكذا .

ولكل نوع من هذه الأنواع من الخلل الوراثي نتائج سيكلوجية وطبية مختلفة بالنسبة للأفراد الذين يتأثرون بها وكذلك بالنسبة لبريهم . وتنتج هذه النتائج في مدى خطورتها ابتداءً من العمى اللوني حتى الاضطراب الذي قد يتسبب في الاجهاض أو الموت بعد الولادة . ومن الممكن تصنيف العيوب الوراثية من حيث النتائج التي تترتب عليها إلى أربعة أنواع :

- ١ - عيوب وراثية شديدة تسبب الوفاة المبكرة .
- ٢ - عيوب وراثية مزمنة مع بقاء فرصة الحياة .
- ٣ - عيوب وراثية يمكن علاجها دون منع تكرارها في نوبات عنيفة .
- ٤ - عيوب وراثية قابلة للشفاء مع تحسين الأعراض^(١) .

ويمثل النوع الأول مرض تاي - ساكس (Tay-Saks) وهو عبارة عن اضطراب أيضي يتسبب في ايجاد مواد تتراكم في المخ وتسبب بدورها فساد أنسجة الجهاز العصبي والمخ . ويترتب على ذلك تخلف عقلي وحركي ، إلى جانب العمى والتشنجات ثم موت الطفل في سن الثالثة أو الرابعة^(٢) .

وينتج مرض تاي - ساكس هذا عن وجود جينين متنحيين ، وعلى ذلك فإن كان كلا

(١) Read, E. W. Genetic anomalies in development in F.D. Horowitz (ed.) Review of child development research (Vol.4) Chicago. University of Chicago Press 1975.

(٢) Read المرجع السابق ذكره .

الأبوين حاملاً لهذه الصفة المتسحية فإن فرصهم في احجاب أطفال بهذا المرض هى بنسبة ٢٥٪ .

ويمثل النوع الثانى من العيوب الوراثية مرض داوڤ . (Down's Syndrome) أو المغولية (Mongolism) وهو خلل وراثى^(١) يؤدى إلى عيوب مزمنة فى القلب والعينين والمهيكل العظمى . ويقع متوسط نسبة ذكاء الأطفال الذين يولدون بهذه الزملة من الأعراض الوراثية بين ٢٥ - ٤٥ ، والشائع أن هؤلاء الأطفال يموتون صغراً غالباً بالتهاب رئوى أو بأمراض القلب ، وقد تطيل المضادات الحيوية وكذلك إجراء عملية فى القلب حياة الأطفال من هذا النوع ، ولكن التخلف العقلى المصاحب لهذه الأمراض لم يعرف له علاج بعد .

ويمثل النوع الثالث من العيوب الوراثية مرض أنيميا الخلية المنجلية (أى التى تتخذ شكل المنجل) . وهو أحد أمراض الدم العاتية المزمنة الذى يحدث فى شكل أزمات تتغير فيها أشكال الكرات الحمراء بحيث تعوق تدفق الدم إلى الشعيرات الدموية ، محدثة بذلك آلاماً مبرحة وموتاً للأنسجة ، إذا لم تعالج الأزمة فوراً . ويظهر هذا المرض فى أغلب الأحيان عند أولئك الذين كان أجدادهم قد جاءوا من أقاليم أفريقيا التى انتشرت فيها الملاريا . وقد يفسر نمو هذه الخاصية الوراثية لذلك على أساس أنه رد فعل وقائى ضد شكل معين من أشكال الملاريا . وبمعنى آخر فإن الخاصية الوراثية هنا قد تفسر على أنها هى نفسها نتيجة لعوامل بيئية . وكما هو الحال فى الأطفال المصابين بسيولة الدم (الهيموفيليا) أو بالسكرى أو بأى أمراض وراثية أخرى تستلزم وصع بعض القيود على نشاطهم وغذائهم ، فإن هذا المرض أيضاً قد يكون له نتائج سيكولوجية خاصة ، ذلك أن الأطفال المصابين بأى من هذه الأمراض أو آباءهم قد يصبحون شديدي القلق أو زائدى الحماية . كذلك قد ينمو لديهم فى مرحلة المراهقة نوع من الثورة على مرضهم بأن يمارسوا نشاطاً أو رياضة عنيفة ، ويتمسوا القرص للمشاجرة أو يتغاضوا عن القيود المفروضة عليهم فى التغذية ، وما إلى ذلك .

ويمثل النوع الرابع من العيوب الوراثية ذلك المرض المسمى فينيلوكيتونوريا (Phenylketonuria) أو باختصار (P.K.U.) ، وهو عبارة عن خلل أيضى . وإذا لم يعالج هذا الخلل فإنه يتسبب فى إحداث التخلف العقلى وعدم الاستقرار والنشاط الزائد . أما إذا شخصت الحالة فى وقت مبكر (بعد الولادة مباشرة) فإنه يمكن عندئذ أن نوضع بعض القيود على تغذية الطفل لفترة معينة من طفولته وبذلك يمكن تلافى حدوث التخلف العقلى .

(١) ينتج عن وجود كروموزوم اضافى ينضم إلى الزوج رقم (٢١) فيصبح هناك ثلاثة كروموزومات بدلا من اثنين (انظر الشكل ١) .

ذلك أن الأطفال المصابين بهذا المرض لا يستطيعون هضم بعض المواد البروتينية ، وبذلك يصبح لبن الأم ساماً بدلاً من أن يكون مغذياً وتترسب هذه السموم في خلايا المخ وبالتدرج يحدث التخلف العقلي وأعراض أخرى كما سبق ذكره . ومما يذكر أنه قد أصبح إجراء روتينياً في بعض الولايات المتحدة أن يختبر جميع الأطفال بعد ولادتهم مباشرة للكشف عن هذا المرض وبهذا الإجراء أمكن تفادي الكثير من حالات التخلف العقلي التي كان يمكن أن تترتب على وجوده إذا لم يخضع لهذا النوع من الضبط .

هذه هي أهم الحقائق المتعلقة بالوراثة من الناحية البيولوجية ومن هذا العرض يتضح أن الوراثة لم تعد ذلك المفهوم الغيبي الذي ينسب إليه التأثير في صفات سلوكية بشكل مباشر ، (وكأنه مجرد مشجب نعلق عليه جهلنا بالعوامل الحقيقية المسؤولة عن هذا التأثير) ، والمستقل تماماً عن الظروف البيئية وكأن به قوة ذاتية تأتي من لا شيء وتؤثر بلا حدود .

أما أن الوراثة لا تؤثر في السلوك بشكل مباشر فقد اتضح من العرض السابق أن عيوباً بنائية معينة (أو أمراضاً معينة) هي التي يترتب عليها بشكل مباشر أو غير مباشر نمو صفة مثل التخلف العقلي أو بعض الصفات السلوكية الأخرى . وفي هذا إيضاح للسؤال الذي كنا قد طرحناه سابقاً .

وأما أن الخلل الوراثي أو العوامل الوراثية المسؤولة عن مثل تلك العيوب أو غيرها هي عوامل مستقلة تماماً عن البيئة ، فمنذ أن تم عزل الحامض النووي (DNA) الموجود في كل خلية حية والمسؤول عن تخزين ونقل الصفات الوراثية ، قبل مائة سنة تقريباً ، وأبحاث الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الدقيقة لا تنى عن محاولة الكشف عن أسرار هذه المادة سواء بالبحث في تركيبها أو في طريقة عملها .

والهدف الأخير من هذه الأبحاث ، التي تقوم بشكل نشط الآن ، هو بالطبع محاولة السيطرة على العوامل الوراثية والتأثير فيها وليس مجرد وصف للآثار المترتبة عليها ؛ وهذا هو الهدف النهائي للعلم في أي مجال .

الهندسة الوراثية والتحكم في الوراثة :

وعلم الوراثة في البيولوجيا في طريقه الآن إلى تحقيق هذا الهدف . والواقع أنه كان قد أمكن بالفعل في السابق ، إحداث تغيرات في وراثة الكائنات الحية . وهذه إذا لم تكن بنفس الدقة التي تتحقق بها حالياً ، إلا أن دلالاتها كانت كبيرة جداً بالنسبة لإعادة صياغة مفاهيم كل من الوراثة والبيئة بطريقة تساعد كثيراً على حل المشاكل القائمة . فقد يحدث أحياناً مثلاً

أن تنمو سيقان مزودجة لحشرة الاميلستوما (ذباب الفاكهة) ، بمعنى أن بعض وصلات منها في بعض الحالات ، وكلها في البعض الآخر ، يزدوج . وقد أمكن لإزالة هذه الخاصية تحت شروط معينة . فحينما توضح الحشرات التي هذه هي وراثتها في درجة حرارة دافئة دفناً كافياً ، فإن الساق أو العضلة الإضافية لا تنمو . وإذا انشعت سلالات متعاقبة تحت مثل هذه الشروط فإنها ستحصل في النهاية على المظهر الطبيعي . أما إذا ترك بعض من ذريتها لتنمو في درجات حرارة أبرد فإن النقص سوف يعود للظهور^(١) .

ويمدنا الانتاج التجريبي للكائنات المشوهة بمثال آخر من أمثلة تأثير البيئة على الخصائص الوراثية للكائن الحي . فقد أمكن توليد أنواع عديدة من السمك المشوه باستعمال مؤثرات كيميائية أو آلية منوعة ، أو بمنع أو إبطال النمو صناعياً في سن مبكرة بواسطة درجة حرارة منخفضة أو نقص الاوكسجين أو بالأشعة فوق البنفسجية . ومن ذلك توليد نوع من السمك ذى عين واحدة عندما تضاف مادة كلوريد المغنسيوم إلى ماء البحر . ويقول ستوكارد^(٢) تعليقاً على هذه التجارب ، « ولو كان ماء البحر العادى ، التكوين الذى يؤدي إلى نمو سمك بعين واحدة وقام بحرب بتنمية بويضات السمك في محلول بنفس تكوين ماء البحر الحالى ، لوجد الأسماك تنمو بعينين بدلاً من العين ، ولبدت هذه السلالات ذات العينين أمام هذا الباحث الافتراضى كائنات مشوهة » .

وباختصار إذن يمكن القول بأن التجارب التى استعملت فيها أنواع مختلفة من الأشعاع أو أنواع مختلفة من الكيمياء أو تغيير معين للظروف الطبيعية للكائن الحي ، قد برهنت على قابلية التكوين الوراثى للتعديل بحيث لا يظهر أثر هذا التعديل فقط في الذرية المباشرة ، ولكنه ينتقل أيضاً إلى سلالات مستقبلية . ولعل هذه التجارب يمكن أن تكون بمثابة إيضاح للعلاقة بين البيئة والوراثة . ذلك أن ثمة تعديلات في التكوين الوراثى يمكن أن تتم تحت ظروف بيئية معينة .

ولا نستمد شواهدنا على ذلك فقط من الحقل التجريبي ، بل أيضاً من الظروف الطبيعية التى يعيش فيها الكائن الحي . فقد وجد أن ضغوطاً بيئية معينة يتعرض لها الكائن العضوى في فترة من فترات نموه قد تؤثر في خصائصه الوراثية . ويتساوى في ذلك الكائن الحي البشرى مع غيره من الكائنات العضوية .

(١) المرجع السابق الذكر (Anastasi & Foff) .

Stockard, C.R. The Physical Basis of Personality

(٢)

فقد وجد بالفعل أن هناك تغييرات يمكن إدراكها في الكروموزومات تنتج من تغيير ظروف الحياة بالنسبة لحشرة الدروسوفلا . فلقد حدث في أثناء الحرب العالمية الثانية أن تحطمت المراكز الصناعية في بعض الجهات فغير ذلك من ظروف الحياة الطبيعية فوجدت حشود الدروسوفلا نفسها تحيا في ظل ظروف قاسية قد تفوق قسوة الشتاء في المناطق الريفية . وكان من المهم جداً دراسة تأثير التغيرات في ظروف الحياة التي أوجدتها الحرب على نموذج تركيب النواة في خلايا الحشود التي تعيش في المدينة . ولما فحصت هذه الحشود وجد فعلاً أن هناك تغيراً واضحاً في نموذج تركيب النواة عند هذه الحشرة . كما ثبت أن هناك بالفعل ظروفاً طبيعية محددة هي التي أدت إلى حدوث هذا التغير فيما كان يظن أنه لا يتغير بفعل هذه الظروف . وقد سبق أن أشرنا أيضاً إلى تفسير وراثته مرض الخلايا المنجلية كنتيجة لضغوط بيئية معينة أدت إلى تغيير في الصفات الوراثية .

أما الآن فلم يعد التحكم في الوراثة خاضعاً للصدفة أو مقصوراً على تلك العوامل البيئية ذات التأثير العلم غير المحدد على النحو الذي رأينا . بل لقد قطعت أبحاث الميكروبيولوجيا أشواطاً بعيدة في سبيل التعرف على آليات انتقال الصفات الوراثية بشكل أدق ؛ والتأثير عليها فيما يعرف بالهندسة الوراثية . ولقد كان أحد الاكتشافات الهامة في هذا المجال هو تطوير الوسائل والأساليب التقنية التي تستخدم في قطع شريط الـ DNA ثم إعادة وصله . فمن طريق بعض الانزيمات المتخصصة أمكن قطع جزيئات الـ DNA التي تتصل ببعضها فيما يشبه الخيط الطويل ، إلى أجزاء ثم وصل هذه الأجزاء بأجزاء من شريط الـ DNA متعلق بكائن آخر ، وإدخال هذا التركيب الجديد في كائن مضيف بحيث يمكن أن يقوم هذا التركيب الجديد بتكرار نفسه على نحو طبيعي تماماً ، أي كما يفعل حامض الـ DNA في وضعه الطبيعي . وهكذا أصبح في مقدور الإنسان لأول مرة في التاريخ أن يسيطر على عملية الوراثة والتطور ذلك أن إعادة تركيب حامض الـ DNA على هذا النحو يسمح بتخليق كائنات لها خصائص وراثية جديدة

هذه القدرة الجديدة المباشرة على البرامج الوراثية للكائنات بما في ذلك الإنسان ، أصبح لها من الإمكانيات الضخمة إيجاباً وسلباً ما أثار العديد من ردود الفعل عند السلطات ما جعلها تصدر من التشريعات التي تنظم أبحاث الهندسة الوراثية حتى لا تتمخض عن إنتاج كوارث بالنسبة للإنسان . ذلك أن هذه القدرة في السيطرة على الوراثة لها دلالتها من الناحيتين العلمية والعملية . فكما أنها يمكن أن تستخدم - كما حدث بالفعل - في أغراض طبية وإنسانية كتخليق كائنات تستطيع أن تقضي على الأمراض المستعصية كالسرطان مثلاً ، كذلك فإنها يمكن أن تتمخض عن إنتاج كائنات تسبب في إحداث كوارث تقضي على البشرية^(١) .

(١) عبد المحسن صالح - نفس المرجع .

وليس في هذا الكلام إنكار للدور البيولوجي للكروموزومات وتأثيرها في نمو خلايا الكائن ، ولكن معناه أننا لا نستطيع أن نتكلم عن خصائص بنائية معينة على أنها محددة بتكوين وراثي أو بمادة وراثية بشكل مستقل عن جسم الكائن الحي وظروف حياته . وإنما نستطيع أن نقول أنه لو خضعت البيئة التي تنمو فيها الكائنات ، العضوية لتغير ثابت للدرجة ما ، في مرحلة معينة من مراحل نمو هذه الكائنات ، فإن مجموعة أخرى من الخصائص الوراثية ستظهر باعتبارها عادية النمو . فمظاهر التشابه في النمو يمكن إرجاعها إلى التعرض المشترك لبيئة تكون متماثلة في أساسها . وبمعنى آخر فإن الوراثة هي خاصة الجسم الحي في تطلب ظروف معينة لحياته ونموه ، وفي الاستجابة بطريقة معينة للظروف المتباينة .

إن لكل جسم حي خاصة هامة هي إنتاج كائنات مماثلة ، وعندما يجد الكائن في البيئة المحيطة به الظروف المتلائمة مع وراثته فإن نموه يسير بنفس الطريقة التي سار بها في الأجيال السابقة . ولكن من ناحية أخرى فإنه إذا لم تجد الكائنات الظروف التي تتطلبها ، وتجب على تمثيل بيئة لا تتفق وطبيعتها بدرجة أو بأخرى عندئذ تعاني الكائنات أو أجزاء من أجسامها بعض الاختلاف عن الجيل السابق .

والمهم في ذلك كله أن مفهوم الوراثة قد تحدد الآن بحيث أصبحت العوامل الوراثية عبارة عن تكرينات كيميائية عضوية شديدة التعقيد ولكنها ليست مستقلة تماماً ، لا في تكوينها ولا في طريقة عملها ، عن الظروف البيئية للكائن الحي .

الفصل التاسع الاستجابات والأهداف كأسباب للسلوك

السلوك نفسه كعلة للسلوك :

من الحقائق المعروفة ، أن السلوك الإنساني يختلف باختلاف الأفراد ، حتى ولو ظل الموقف الذى يستجيبون له ثابتاً ، أو كانت الظروف البيئية الموضوعية التى يسلكون إزاءها هى بالنسبة للجميع . وقد دعى ذلك بعض علماء النفس إلى أن يقرروا أن مثل هذه الظروف البيئية الموضوعية ، لا تصلح أن تكون أساساً يمكن الاعتماد عليه عندما نريد أن نفسر الظاهرة السلوكية . ويرفض هؤلاء البعض الاعتراف بمثل هذه المتغيرات الموضوعية حتى باعتبارها جزءاً من مجموعة الظروف السببية التى يمكن أن تشمل إلى جانب ذلك متغيرات أخرى فى صورة تكوينات فرضية أو غير ذلك . وبعبارة أخرى فإن هؤلاء العلماء يرون أن تفسير السلوك باعتباره متغيراً من فرد إلى آخر على هذا النحو - مع بقاء الموقف الموضوعى ثابتاً - لا يتأتى بالرجوع إلى الموقف الموضوعى ، بل بالرجوع إلى الفرد نفسه وما يراه فى الموقف ، أى بالرجوع إلى الموقف السيكلوجى وليس إلى الموقف الموضوعى .

وفى هذا الصدد يشير ليفين فى كتابه « النظرية الديناميكية فى الشخصية »^(١) إلى ما يصفه بفشل الكتاب الألمان مثل لوب Loeb وبتلى Bettel وغيرهم من الموضوعيين ، فى أن يصوغوا تفسيراً نظرياً كافياً للسلوك باعتمادهم على الموقف الموضوعى ، أى باعتمادهم على الموقف الطبيعى كما تصفه قياسات العالم الطبيعى ، وعلى الموقف الاجتماعى كما يصفه عالم الاجتماع . ويصر ليفين على أنه يلزم دائماً وصف الموقف كما يراه ، أو كما يدركه الفرد . أو وصف ما يعنيه الموقف بالنسبة للفرد ، لا وصف الموقف « فى ذاته » . وفيما يلى نص ما ورد فى كتاب ليفين .

« عندما نريد أن ندرس المشكلات المتعلقة بديناميات السلوك يجب أن نبدأ من البيئة السيكلوجية الحقيقية للطفل . ولكى نصف البيئة السيكلوجية للطفل لا يجوز أن يكون أساسنا هو القوى والعلاقات الاجتماعية الموضوعية ، أى كما يصفها عالم الاجتماع أو المشرع .

Lewin, K.: Dynamic Theory of Personality, New York, McGraw-Hill, 1935.

(١)

بل يجب أن نتخذ أساساً لنا في الوصف ، الحقائق الاجتماعية كما تؤثر في الفرد نفسه المعنى بالدراسة . وإن من الخصائص المثيرة لنظرية المجال في علم النفس - في رأيي - هو أنها تحتم وصف المجال الذي يؤثر في الفرد ، لا وصفاً موضوعياً عن طريق ذكر خصائصه وأبعاده الطبيعية ، بل وصفه كما يتأثر به الفرد نفسه ، أو على النحو الذي يدرسه ذلك الفرد ، وفي الوقت الذي يدرسه فيه ^(١) .

ويلخص المعنى المتضمن في عبارة ليفين السابقة ، موقف الجشتالت عموماً ، ذلك أن جماعة الجشتالت لا يخرجون عن هذا المعنى عندما يفسرون السلوك بافتراض وجود عوامل أو متغيرات تتصل بعملية الإدراك . فيستخدم كوفكا Koffka ^(٢) مثلاً في تفسيره للسلوك مفهوم « البيئة السلوكية » ^(٣) . وكذلك مفهوم « المجال السيكلوجي » الذي يضم المفهوم السابق ومفهوم المجال الفسيولوجي معاً . ويستخدم كيلر في تفسيره للسلوك مفهوم المجال الفينومينولوجي ، كما يستخدم أيضاً مفهوم مجالات المخ ... وهكذا . وقد يختلف ليفين عن الجشتالت ممثلين في كوفكا وكيلر ، من حيث أن الأخيرين يستخدمان مفهومات فسيولوجية في تحديد الخصائص التي يتميز بها المجال المحدد للسلوك ، في حين أن الأول لا يستخدم مثل هذه المفهومات . إلا أن المنهج الذي يصف كلاهما على أساسه المجالات المحددة للسلوك ، سواء أكانت هذه المجالات هي « مجالات المخ » أم « المجال السلوكي » أم « الحيز الحيوي » ، لا يختلف في جوهره من حالة إلى أخرى . ذلك أن الجميع يصفون المجال المحدد للسلوك وصفاً فينومينولوجياً يعتمد إلى حد كبير على عملية تأمل ذاتي باطنى . فالنظريات المجالية عموماً ، سواء منها نظرية الجشتالت أم نظرية ليفين أم نظرية سنيج وكومز Snugg & Combs ^(٤) أم نظرية روجرز Rogers ^(٥) تعتبر الإدراك - إدراك الفرد للموقف أو للمجال الطبيعي - عملية سابقة لكافة أنواع النشاط السلوكي ، ومحددة له في الوقت نفسه . فالإدراك في نظر هذه النظريات جميعاً ، هو الذي يحتوى على العوامل المحددة للسلوك ، أو هو الذي يتضمن محددات أو أسباب السلوك . فإذا أردنا أن نفسر السلوك إذن ، فلنرجع إلى الإدراك وإلى الإدراك فحسب ، لنرى كيف يتأثر الفرد

(١) نفس المرجع ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٢١٧ .

(٢) Koffka, K.: Principles of Gestalt Psychol., New York, Harcourt Brace, 1935.

(٣) Behavioral Environment.

(٤) Snugg, D. and Vombs, A.W.: Individual Behavior, Harper and Brothers, New York, 1949.

(٥) Rogers, C.: Client-Centered Therapy, Houghton Mifflin Co., New York, 1951.

بالموقف . ومن هنا ، أى ابتداء من عليه الإدراك هذه ، نستطيع أن نقرر لماذا تحدث هذه الاستجابة الكلية أو تلك .

ولقد أقام ليفين نظرية بأكملها على هذا الأساس . فافترض ما سماه بالمجال الحيوى (السيكلوجى) أو الحيز النفسى ، وأخذ ينظر إلى محددات السلوك على اعتبار أنها أحداث أو شبه أحداث تتم فى داخل هذا المجال . وبالرغم من أن المجال الحيوى تكوين فرضى ذا صبغة سيكلوجية ويفتقر إلى الأبعاد الطبيعية ، إلا أن ليفين قد تحدث عما يوجد فى « داخل » هذا المجال . فافترض أنه يشمل كلا من الفرد وبيئته ، كما أنه ميز فى كل منهما أحداثاً وقوى ، هى فى رأيه المحددات الأساسية للسلوك . وقد افترض ليفين أن هذه الأحداث وهذه القوى المحددة للسلوك تتحرك من مكان إلى آخر داخل هذا المجال السيكلوجى . واستعان ليان شدة هذه الحركة واتجاهاتها ، ببعض المفاهيم الرياضية والميكانيكية ، على نحو أشبه بما يحدث فى العلوم الطبيعية . ويصحح أن نعرض هنا بشئ من التفصيل لهذه المعانى جميعاً حتى تتضح قيمة مثل هذه التفسيرات .

يرى ليفين أن البيئة فى المجال الحيوى تشمل خبرات الفرد المختلفة وآلامه وأمانيه ورغباته ومدى حريته فى المجال ولغة قومه وأصدقائه وأسرته وأماكن لموه ، ثم قيم الجماعة التى يعيش فيها وإمكاناته الاقتصادية ، وأخيراً ما يصادفه من عقبات تحول دون تحقيق أهدافه ورغباته . ويختلف الأفراد بعضهم عن بعض من حيث مكونات المجال الحيوى والقوى المختلفة المؤثرة فيه . إذ أنه من الصعب ، بل من المتعذر ، أن يتفق اثنان فى بيئتهما وفيما اكتسباه من خبرات نتيجة احتكاكهما بالوسط المحيط بهما وتفاعلهما معه . ومعنى ذلك أن المجال الحيوى لكل من تلميذين يجلسان أحدهما إلى جوار الآخر فى الفصل ، يختلف كل منهما عن الآخر تماماً . فالفرد الذى يجلس إلى مكتبه يرسم خطته للغد ، يتحرك فى عالم يختلف تماماً عن المكان الذى يجلس فيه . ذلك أن المجال الحيوى هو المكان الذى يعيش فيه « نفسياً » ، أى المجال الذى يتركه هو شخصياً . وهو قد يتفق من نواح كثيرة مع العالم المحيط به فى عالم الأشياء والأشخاص والأفكار ، ولكنه لا يصبح عالمه الخاص إلا بعد أن يحوره ويخرجه على طريقته .

أما الفرد وهو الجزء الرئيسى الثانى فى المجال الحيوى فله تكوينه الخاص . ويمثله ليفين بمنطقة متحركة فى داخل المجال ، كما أنه يقسمه إلى جزئين : الجزء الخارجى ويمثل منطقة الحس والحركة ، والجزء المركزى ويمثل منطقة الشخصية الداخلية . ويمثل الجميع بدائرة تقع فى دائرة أوسع هى دائرة المجال الحيوى . والمساحة الواقعة بين الدائرتين هى الجزء الذى يمثل البيئة فى هذا المجال ..

ويعتبر ليفين أن السلوك محصلة للنشاط « النفسى » الذى يتم فى داخل هذا المجال . ذلك النشاط الذى ينظر إليه ليفين على أنه أحداث تتحرك من نقطة إلى أخرى داخل المجال . فالفرد مثلاً ينتج نحو الهدف أو الأهداف التى تتميز بجاذبية إيجابية^(١) بالنسبة له ، ويتعد عن الأهداف ذات الجاذبية السلبية . وقد تموقعه عن الوصول إلى هذه الأهداف عوائق^(٢) . ويتوقف مقدار تنقله على هذه العوائق والاستمرار فى الحركة ، أو توقفه أو تغيير اتجاهه ، يتوقف ذلك كله على مدى الجاذبية التى للهدف ومدى التوتر الذى يتعرض له الفرد نتيجة لوجود الحاجة إلى الحصول على هذا الهدف ، ومدى القوة أو الضعف الذى تكون عليه هذه العوائق ، ومدى الجاذبية التى قد تكون لأهداف أخرى موجودة فى المجال السيكلوجى ، كما يحدد جميعه المحور^(٣) الذى تسير فيه الحركة أخيراً ، حتى يعاد الاتزان أو التعادل مرة ثانية فى المجال الحيوى .

وهكذا يسير ليفين فى نظريته مستخدماً العبارات الرياضية والميكانيكية المختلفة ، ومستعيناً بالرسوم والأشكال ، لتوضيح ما يمكن أن يحدث فى المجال السيكلوجى أو الحيوى ، كما لو كان يتحدث عن مجال طبيعى وعن حركة وأحداث واقعية .

ولكى تستطيع أن توضح موقف النظريات المجالية عموماً يمكننا أن تستعين بالرسم التوضيحي الآتى :

م (المتغيرات المتعلقة بالثير) و (المتغيرات الوسيطة) س (المتغيرات المتعلقة بالاستجابة)



وبين هذا الرسم أنواعاً ثلاثة من المتغيرات : النوع الأول هو ذلك الذى يخلق بالأحداث أو المثيرات الخارجية ، سواء أكانت هذه الأحداث أو المتغيرات تقع فى حاضر الفرد ، أو قد مر بها فى ماضيه . وهذا النوع من المتغيرات هو ما يعنيه ليفين بالمجال الطبيعى أو البيئة الطبيعية . أما النوع الثانى من المتغيرات فهو ذلك الذى يتعلق بالتكوينات الفرضية التى يستعين بها علماء النفس فى تفسير السلوك بالإضافة لمتغيرات النوع الأول - وقد دعى إلى استخدام مثل هذه المتغيرات ، كما سبق أو أوضحنا ، أن الموقف المثير قد يكون واحداً ، ومع ذلك يختلف السلوك من فرد إلى آخر . أما النوع الثالث من المتغيرات فهو السلوك نفسه المراد تفسيره .

Positive valence

(١)

Barriers

(٢)

Vector

(٣)

وقد أسقطت النظريات المجالية من اعتبارها كلية المتغيرات من النوع الأول وقصرت محددات السلوك على متغيرات النوع الثاني . فاستخدم ليفين مثلاً مفهوم حيز الحياة أو المجال الحيوى ، واستخدم غيره المجال الإدراكى وغير ذلك مما سبق وأوضحناه جميعاً ، ليعبروا عن إدراك الفرد لبيئته (بما فى ذلك ذاته) . ثم ضمنوا هذا الإدراك جميع الحقائق التى يمكن أن تعتبر مستقلة عن السلوك ، أو بمعنى آخر ، فإنهم قصروا محددات السلوك فى عملية الإدراك ، وهى متغير وسيط أو تكوين فرضى لا صلة له فى نظرهم بمتغيرات النوع الأول .

ولكى نعرف الآن ما هى قيمة مثل هذا التفسير ، يجب أن توضح النقاط الآتية : أولاً ، أن النظريات المجالية قد اعتبرت الإدراك عملية مستقلة منفصلة عن السلوك الظاهرى ثانياً أنها اعتبرت أيضاً أن العملية الإدراكية مستقلة ومنفصلة عن التاريخ الماضى للكائن الحى ، أى ما تعرض له من أحداث ومواقف ، سواء فى بيئته الطبيعية أم فى بيئته الاجتماعية . وسوف نناقش الآن هذين المسلمين اللذين اعتمد عليهما المنهج المجالى الفينومينولوجى فى تفسير السلوك ، نرى إلى أى حد يمكن أن نعتمد على هذا المنهج فى تحقيق أهداف العلم من تفسير وتنبؤ وضبط للظاهرة السلوكية .

إن اعتبار الإدراك عملية منفصلة عن السلوك الظاهرى ، قد أدى بالنظريات المجالية إلى أن تعامله معاملة غيبية ، بمعنى أنها جعلت من العملية الإدراكية « قوة داخلية » ، أو « شيئاً يحدث فى العقل » ، وأحياناً فى « المخ » . وقد رأينا كيف أن الحديث عن « قوى نفسية داخلية » أو « قوى جسمية داخلية » ، مجردة عن السلوك ، وموجودة فى مكان ما من الكائن الحى ، إنما هو حديث خرافة أشبه بالتفكير الميتافيزيقى أو الخرافى ، وليس بالتفكير العلمى . والوضع الحقيقى للإدراك هو أنه ليس شيئاً يحدث « فى النفس » أو « حالة نفسية » ولكنه استجابة ، أو بمعنى أصح ، هو أحد وجوه السلوك الكلى الذى يصدر عن الكائن الحى بالنسبة لموقف معين فى أثناء تفاعله مع البيئة التى يعيش فيها . والإدراك لا يصبح له أى معنى كظاهرة سيكلوجية إلا إذا أعطيناه هذا المعنى السلوكى الذى يجعل منه متغيراً قابلاً للملاحظة والتجريب ، وموضوعاً قابلاً للدراسة العلمية . وفى هذه الحالة فإن الإدراك يترجم بما يصدر عن الكائن الحى من تمييز يتضح فى استجاباته المختلفة للمواقف المختلفة ، أو فى تسمياته اللفظية بالنسبة لهذه المواقف .

فإذا كان هذا هو التحديد الإجرائى للإدراك كان معنى ذلك أن المجاليين يفسرون السلوك بنوع من الاستجابات هى الاستجابات الإدراكية . أى كأنهم يقولون ضمناً إن السلوك هو محصلة للسلوك . ويظهر هذا بشكل أوضح عندما نختبر الوسائل التى استخدمها ليفين وتلاميذه فى البحث ، أى المناهج التى كانوا يعتمدون عليها فى تحديد خصائص المجال

وتركيه . ذلك أنهم كانوا يعتمدون على الاستبطان الذى يقوم به الأفراد موضوع التجارب ، أو على استبطانهم هم ، أى المحجرين ، أنفسهم . وإذا اعتبرنا أن هذه الاستبطانات تعطينا استجابة لفظية يصف بها الفرد - سواء كان ذلك الفرد هو المفحوص أو المحرب نفسه - الطريقة التى يدرك بها الموقف الموضوعى ، وإذا كان المجاليون يعتبرون أن الطريقة التى يدرك بها الفرد موقفاً ما ، هى التى تحدد سلوكه إزاء هذا الموقف ، كان معنى ذلك أن نظرية ليفين وأصحابه من المجاليين تسعى إلى الكشف عن العلاقة بين نوعين من المتغيرات : النوع الأول هو السلوك الظاهرى ، والنوع الثانى هو السلوك الإدراكى ، كما يظهر فى استجابات الأفراد اللفظية ، التى يصفوا بها إدراكاتهم . وبمعنى آخر نحاول النظرية أن تقيم علاقة بين نوعين من الاستجابات : الاستجابات الإدراكية من ناحية ، والاستجابات الحركية أو الظاهرية من ناحية أخرى .

على أن اعتماد المجاليين على الاستبطان كوسيلة وحيدة للحصول على الحقائق المتعلقة بالظاهرة السيكلوجية ، هو فى ذاته مجال لنقد شديد . ذلك أن الاستبطان عملية ذاتية ، وخاصة إذا كان من يقوم به هو المحرب نفسه ، كما كان يحدث فى كثير من الأحيان ، وكذلك إذا كان ما يقيفنا عن طريقه هو مجرد كلام مجازى لا يسمح لنا بالتحقق من صدق ما يقال أو كذبه^(١) . أما أن المجاليين قد اعتمدوا على الاستبطان والذاتية إلى أبعد الحدود فهذا ما يقرره سنيج وكومز^(٢) بقولهما : « إن الذى يحدد السلوك هو المجال الفينومينولوجى للفرد ، وهو (أى المجال) ليس قابلاً للملاحظة المباشرة من ناحية أى فرد خارجى . وعلى ذلك فإن التنبؤ بالسلوك يتضمن خطوتين : ١ - فهم المجال الفينومينولوجى للفرد عن طريق الاستنتاج أو عن طريق إعادة تركيب ذلك المجال . ٢ - العمل على تصور هذا المجال أو إسقاطه مستقبلاً . أما العملية الأولى فتتمثل فى سؤالنا . ما الذى جعله يفعل هذا ؟ أو أى الظروف هى التى تدفعنى إلى أن أفعل هذا ؟ وأغلب كلام ليفين (فى تفسير السلوك) هو من هذا النوع » .

والواقع أن نظرية ليفين قد قامت فعلاً على مثل هذا التفكير الناقى فليفين قد أقام نظريته فى الحيز الحيوى على أساس تصورات ذاتية . ولنا فقد جاء كلامه سواء فى الناحية التوبولوجية أم فى الناحية الديناميكية ، كلاماً مجازياً لا يعتمد إلا على الاستعارات والتشبيهات دون تحديد موضوعى لمتغيرات واقعية . وقد يساعد مثل هذا الكلام على توضيح فكرة معينة ، ولكنه لا يؤدى بالمرّة إلى تحقيق أى هدف علمى . ذلك أن مثل هذا الكلام لا

(١) انظر ص ٤٩ وما يلىها ، فقرة مسلم الحسية .

(٢) Snygg & Combs مرجع سابق ص ٤١٣ .

يضيف أى جديد بالنسبة لمعرفتنا عن الأسباب الحقيقية للظاهرة السلوكية ، كما أنه لا يضع أيدينا على متغيرات محددة يمكن التحقق منها أو تناولها بطريقة تساعدنا على التنبؤ أو الضبط أو التجريب . فقد استعار ليفين من العلوم الطبيعية والرياضية مفاهيم الطاقة والمحور والتوتر والجاذبية والمكان والمنطقة وما إلى ذلك ، واستخدمها في ميدان الظواهر السيكولوجية بطريقة غير مفيدة . ذلك أننا إذا سألنا مثلاً كيف نقيس درجة التوتر أو مقدار الطاقة أو جاذبية الهدف في المجال ، وكيف نلاحظها مقدماً ، أى قبل أن يحدث السلوك ، حتى يمكننا أن نتنبأ بما سيحدث ، فإننا لا نستطيع أن نحظى بجواب في هذا السبيل . فالجاذبية تعنى في الطبيعة غير ما تعنيه في علم النفس وكذلك الطاقة والتوتر وغيرها من المفاهيم . وما كان استخدامها في علم النفس إلا على سبيل الاستعارة والمجاز . ويلخص برجمان هذا التقيد بوضوح فيسأل : « ما هي القيمة التنبؤية للاصطلاح المجازي (البيئة السيكولوجية) ؟ أليست مهمة العلم هي تحديد العوامل الموضوعية التي تقع في كل من ماضى الكائن الحي وحاضره حتى يتسنى لنا أن نفرس لماذا يختلف السلوك من حالة إلى أخرى ، وحتى يتسنى لنا أن نتنبأ به مقدماً بدلاً من أن نسنده بطريقة وصفية وبعد وقوعه ، إلى اختلاف في البيئة السيكولوجية » (١) ؟

ومع ذلك فسوف نتغاضى مؤقتاً عن أخطاءه الناتجة في نظرية المجالين بوجه عام وليفنين بوجه خاص ، وذلك بأن نضع مشكلة الإدراك في وضعها الصحيح ، فنعتبر أن الإدراك استجابة يمكن تحديدها موضوعياً ، وليس « عملية عقلية داخلية » ذات صبغة ذاتية . يبقى في هذه الحالة أن نسأل : وما الذى يحدد هذه الاستجابة الإدراكية ؟ لقد سبق أن بينا أن اعتبار الإدراك مسؤولاً عن السلوك معناه في هذه الحالة أننا نحاول تفسير السلوك بالسلوك . وإذا كان الأمر كذلك فإننا ندخل أنفسنا في « دور » مؤكد . إذ لا بد عندئذ أن نجد حلاً لمشكلة الإدراك نفسها فنحدد العوامل التي تعتبر مسؤولة عنه قبل أن نقرر أننا قد قمنا بتفسير مفيد للسلوك . ويحاول الجشتالتيون أن يعزوا الإدراك إلى ما سموه بالأيزومورفيزم ، أى لرجاع الإدراك كظاهرة سيكولوجية ، إلى عملية فرضية أخرى ذات طبيعة فسيولوجية تتم في المخ . ولكن مثل هذه التكوينات الفرضية كما سبق أن بينا ليست حلاً للمشكلة ، ذلك أنها لا تمدها بمتغيرات قابلة للملاحظة . وبالتالي فإنها لا تحقق الأهداف العلمية المطلوبة . وقد سبق أن قمنا بتقدّم لمل هذه التفسيرات (١) .

Bergmann, G., *Psychoanalysis and experimental psychology: A review from the standpoint of a scientific empiricism*. Mind, 1943. 52, 122-140.

(١)

(١) انظر ص ١٢٧ .

وبصرف النظر عن التفسيرات الفسيولوجية الوهمية لعملية الإدراك ، فقد اعتبر الجشتالتيون أو المجاليون بوجه عام أن الإدراك عملية أولية تتحدد « بالطبيعة الإنسانية » ولا علاقة لها بالظروف أو التاريخ الماضى للكائن الحى . وقد كانت النتيجة اللازمة لذلك ألا يهتموا فى تفسيرهم للسلوك بما مر به الكائن الحى من حوادث أو أحداث فى الماضى القريب أو البعيد ، واهتموا فقط بما يحدث فى مجاله الإدراكى الحالى . ولكن مثل هذا الموقف كما سبق أن قلنا يضمننا أمام صعوبة أساسية وهى : ما الذى علينا أن نعمله إذا أردنا أن نحدث تغييراً فى المجال السيكلوجى للكائن الحى ؟ هل كتب على الفرد أن يكون مجاله الإدراكى على هذا النحو أو ذاك ؟ ما الذى يحدد أهداف الفرد ، وجاذبية هذه الأهداف ، سلبية كانت أم إيجابية .. وغير ذلك من محددات السلوك التى يتضمنها المجال الإدراكى للفرد فى رأى ليفين ، على فرض أنه قد أمكننا تحويل كل هذه المفاهيم إلى متغيرات سلوكية قابلة للملاحظة والتجريب ؟ إن النظريات المجالية لا تمدنا بالقوانين التى تمكننا من التحكم فى مثل هذه المتغيرات أو ضبطها . ولكن أليس هدف التربية والتنشئة الاجتماعية والعلاج النفسى ، الوصول إلى تعديل فى السلوك نحو الأهداف التى تتفق مع فلسفة المجتمع أو فلسفة التربية فى مجتمع ما ؟ إن إحداث هذا التعديل ليتطلب منا أن نكون على علم بالمتغيرات المستقلة التى تؤثر فى المجال الإدراكى ؛ تلك المتغيرات التى تتعلق بظروف البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها الكائن الحى . وإن القوانين التى تنظم العلاقة بين هذه المتغيرات وبين المجال الإدراكى إنما تتعلق بماضى الكائن الحى وبما مر به من ظروف موضوعية فى كل من بيئته الطبيعية والاجتماعية . ولكن النظريات المجالية قد أغلقت الطريق تماماً أمام الوصول إلى مثل هذه القوانين . ذلك أنها قد اعتبرت الإدراك عملية أولية ليس لها ارتباط بالتاريخ الماضى للكائن الحى ، وفسرت الإدراك تفسيراً « فسيولوجياً » غيبياً لا يغنى فى معرفة الظروف الموضوعية المؤثرة فى العملية الإدراكية .

ولقد عبر ليفين صراحة عن هذه القطعية بين التاريخ الماضى للكائن الحى وبين سلوكه الحالى ، بأن سمى نظريته نظرية لا تاريخية . كما أن الجشتالتيون قد تحدثوا عن تعليم القردة فى تجاربهم على أنه يتم عن طريق البصيرة ، أى الإدراك المفاجئ للعلاقات الموجودة بالموقف ، دون أن يكون للتاريخ الماضى للقردة أى أثر فى إحداث هذا السلوك . على أن هذا المنهج فى تفسير السلوك عن طريق الإدراك ليس قاصراً فقط من الناحية المنهجية (أى من ناحية تحقيق أهداف العلم من حيث القدرة على التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه) بل هو إلى جانب ذلك عجاف أيضاً للحقائق العلمية التجريبية التى أدت إليها مناهج أخرى كانت أكثر إثارة فى فهم السلوك . ذلك أنه قد اتضح من تجارب عدة وكذلك من ملاحظات علمية موضوعية ، أن العملية الإدراكية ليست عملية أولية كما كان يظن ، بل إنها استجابة متعلمة تخضع لظروف

موضوعية وأحداث ماضية في تاريخ الكائن الحى .

فلقد دلت الأبحاث^(١) والملاحظات على أولئك الذين أبصروا عقب عمليات أجريت لهم في سن متأخرة ، وكانوا قد ولدوا مكفوفين منذ ولادتهم بسبب مرض الكاتاراكت ، دلت الأبحاث التى أجريت على هؤلاء أنهم لا يستطيعون لمدة طويلة - عقب الإبصار - أن يميزوا بصرياً بين المربع والدائرة والمثلث أو بين الكرة والمكعب . ولقد كان على معظم الأفراد أن يمشوا بأصابعهم ببطء شديد حول حواف الشكل حتى يتحسسوا الزوايا التى تميزه ، وذلك حتى فى حالة التمييز بين المثلث والدائرة . كذلك أثبتت البحوث^(٢) أن أفراد الشمبانزى التى ربيت فى الظلام منذ الولادة لا تتعلم التمييز بين الأشكال الهندسية بالسرعة التى تتعلم بها مجموعة مكافئة لها ربيت فى النور منذ ولادتها ، ولقد كانت الفروق بين المجموعتين ذات دلالة إحصائية واضحة . هنا وقد أثبتت البحوث أيضاً أن ظاهرة تخضع الإدراك لعملية التعلم كما تخضع أى استجابة أخرى ، وأن إدراكاتنا إنما هى عادات سلوكية تنشأ وتتمو بناء على ما تؤديه من وظائف حيوية الكائن الحى .

والخلاصة أن النظريات المجالية قد أرادت أن تفسر السلوك بالإدراك ، وأن هذه المحاولة التفسيرية كانت قاصرة عن تحقيق أهداف العلم لسببين : السبب الأول ، هو أن هذه النظريات لم تتحد لنا الإدراك بطريقة قائمة على أساس من الملاحظة الموضوعية . بل جاء تحديدها له بعبارة ذاتية مجازية أحياناً ، وغامضة غيبية أحياناً أخرى . فتحدثت هذه النظريات عن مفهومات مثل البصيرة والمجال السيكلوجى وحيز الحياة والأيزومورفيه ، وغير ذلك من المفهومات التى هى فى نفسها فى حاجة إلى تفسير . أما السبب الثانى فإن هذه النظريات قد عزلت الإدراك عن الخبرة السابقة ، واعتبرته عملية أولية ، وفصلت حاضر الكائن الحى عن ماضيه ، فقطعت بذلك الطريق على الوصول إلى المتغيرات الحقيقية المسعولة عن السلوك بما فيه الإدراك نفسه ، وعطلت بالتالى قدرتنا على التنبؤ والضبط .

اعتبار الأهداف أسباباً للسلوك :

قد يعتبر البعض أحياناً أن السلوك الإنسانى ظاهرة مختلفة عن بقية الظواهر الطبيعية الأخرى من حيث محدثاته السببية ، فيميزه عن تلك الظواهر على أساس أن الذى يحدده هو الغرض أو الهدف ، فى حين أن الظواهر الطبيعية الأخرى تتحدد بأسباب سابقة على

Hebb, D. O., The Organization of Behavior, New York, Wiley & Sons, 1949.

(١)

ص ٣٢ .

(٢) نفس المرجع

حدوثها . فإذا أخذنا على سبيل المثال شخصاً يقوم الآن بفعل ما لتحقيق هدف أو غرض معين مستقبلاً ، قيل إن هذا الفعل الذى يقوم به الشخص حالياً هو نتيجة لسبب يقع في المستقبل هو الغرض أو الهدف الذى يرمى إليه هذا الفعل ، وهو نوع من الأسباب لا يوجد بالنسبة للظواهر الطبيعية . وقد يستدل القائلون بهذه النظرية ، بأن الملاحظ أن الفعل مستمر حتى يتم تحقيق الغرض . فهم يقولون إننا إذا تصورنا رجلاً يصطاد مثلاً ، أو سيلاً يخبز أو مثلاً يصنع تمثالاً ، أو حتى كلباً يبحث عن طعام ، فإن كلا من هذه الكائنات يقف سلوكه عندما يتحقق الغرض الذى من أجله بدأ .

ولقد سبق أن فرق أرسطو بين العلل السببية والعلل الغائية فقال إن الأولى تحرك بالدفع أما الثانية فإنها تحرك بالجذب . ويتضمن هذا القول معنى التفرقة بين الأسباب باعتبارها أحداثاً تقع في الماضي ، وبين الأسباب باعتبارها غايات تجذب الفعل . ولعل هذه الفلسفة قد أثرت على ماكدوجال فقال بالنوعين من الأسباب فيما يتعلق بالسلوك الإنساني . ذلك أنه ميز السلوك الإنساني عن الحركة في الطبيعة من حيث أن الأول يرمى إلى تحقيق غرض معين ، وأنه إذا كان علينا أن نفسر السلوك فإنه يلزم أن نبحث عن هذه الأغراض ، وعن الدوافع التي تقابلها ، والتي تحرك السلوك وتدفعه إليها . والأخيرة هي ما سماه بالفرائز .

وعلى أى حال فإن الذى يهمنا هنا هو الوجه الأول ، وهو الأغراض ، عندما تتخذ هذه الأغراض كأسباب مسئولة عن حدوث السلوك . وقبل أن نفقد هذا الاتجاه في تفسير السلوك يصح أولاً أن نوضح معنى الغرض أو الهدف .

إن ملاحظة عابرة للسلوك يتضح منها أن السلوك عبارة عن سلسلة من الأفعال التي تصدر عن الكائن الحي في أثناء تفاعله مع البيئة التي يعيش فيها . ونستطيع أن نميز في هذه السلسلة بدايتها ونهايتها ووسطها . فعندما تستثار حاجة معينة يبدأ الكائن الحي سلسلة من الأفعال ، ثم يستمر في هذه السلسلة حتى تنتهي بإشباع هذه الحاجة . ولناخذ الحاجة إلى الطعام على سبيل المثال . نلاحظ أنه إذا حرم الكائن الحي من الطعام فترة من الزمن فإنه يبدأ سلسلة من الأفعال تكون نهايتها الحصول على الطعام بالفعل . فالحصول على الطعام هنا أى أخذ الطعام أو أكله هو نهاية السلسلة من الأفعال أو نهاية السلوك الكلى الذى نسميه بهذا الاسم أى سلوك « الحصول على الطعام » والهدف أو الغرض ليس سوى هذه الحلقة النهائية من السلسلة .

فالهدف إذن عبارات سلوكية لا يعنى أكثر من الجزء الأخير من السلوك الكلى ، أو الحلقة التي تتوقف عندما سلسلة الأفعال التي تكون السلوك . وبالرغم من أن هذه السلسلة تتضمن أفعالا أخرى مختلفة عن ذلك الفعل الأخير إلا أننا نسمى السلوك الكلى و

العادة باسم الحلقة الأخيرة منه . فنقول مثلاً : « يكتب المؤلف كتاباً » تعبيراً عن الفعل الكلى الذى يتضمن سلسلة من الأفعال ، كالتفكير وتبيقة الجو ومسك القلم وغير ذلك من الأفعال التى لا تشكل الكتابة ذاتها إلا خاتمها أو الحلقة الأخيرة منها أو غايتها أو نتيجةها النهائية . وهكذا نتحدث أيضاً عن فعل البيع أو الشراء أو الذهاب إلى المدرسة أو الأكل أو غير ذلك .

فإذا كان الغرض أو الهدف ما هو إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة الأفعال فى سلوك ما أو النتيجة النهائية من سلسلة التفاعلات بين الكائن الحى وبيئته ، فبأى حق نعتبره مسئولاً عن الحلقات التى تسبقه فى السلسلة ؟ . أو بمعنى آخر كيف نعتبر جزءاً من السلوك هو نهايته ، مسئولاً عن الأجزاء السابقة له فى نفس السلوك ؟ أليس العكس هو الصحيح ؟ أى أليس الأولى بنا أن نقول إن هذه الحلقة الأخيرة من السلوك هى ذاتها نتيجة لسلسلة الأفعال التى تسبقها ؟ إن نظرة فاحصة سريعة يتضح معها ما يمكن أن يوقننا فيه مثل هذا التفسير من تناقض وتفكير دائرى . ذلك أننا إذا تصورنا موقفاً سلوكياً نجمله كلية ، وأردنا أن نفسر ذلك السلوك ، فمعنى ذلك أنه ، بناء على هذه النظرية ، سوف نضطر أن نلاحظ أولاً كل حلقات هذا السلوك حتى ينتهى ، ثم نستنتج بعد ذلك « الهدف » الذى يرمى إليه هذا السلوك . وبما أننا بدأنا بفرض أن السلوك يفسر بما يهدف إليه ، فكأننا إذن سوف ندور فى حلقة مفرغة لا نهاية لها ، أى نستنتج الهدف من السلوك ثم نستنتج السلوك من الهدف وهكذا . ومعنى ذلك أيضاً أننا لا نستطيع أن نستنتج السلوك أو نتنبأ به إلا بعد أن يكون قد تم بالفعل . ونحن نعرف أن مهمة العلم أو التفسير العلمى هو أن يمكننا من أن نتنبأ بالظاهرة مقدماً أى قبل وقوعها .

وعلى ذلك فالأهداف أو الغايات ليست هى التى تحدد السلوك لأنها ليست مقدمات للسلوك وإنما هى نهايات له . وبالتالي فإن القول بأن السلوك يتحدد بغاياته أو أهدافه لا يمكن أن يعتبر تفسيراً علمياً لأنه لا يتيح لنا الفرصة للتنبؤ بالسلوك مقدماً . فإذا رأينا إنساناً يخرج من منزله ويسير فى اتجاه معين فإننا لا نستطيع أن نقرر ما سيفعله ذلك الشخص ، بناء على مثل هذا التفسير إلا عندما ينتهى سلوكه ويقفل راجعاً إلى منزله مرة أخرى . فإذا رأيناه فى النهاية يخرج خطاباً من جيبه مثلاً ثم يضعه فى صندوق البريد ، عندئذ نستطيع أن نقول إنه خرج من منزله ليضع الخطاب فى صندوق البريد ، أى بعد أن يكون السلوك قد تم بالفعل . أما إذا أردنا أن نتنبأ بسلوكه مقدماً فإن علينا أن نعرف ظروفاً أو مقدمات سابقة على السلوك وليست لاحقة له . علينا أن نعرف مثلاً أنه قد تغيب عن منزله فترة معينة وأنه فى حاجة إلى أن يتصل بأهله لسبب أو لآخر ، وأنه قد جلس فعلاً ليكتب الخطاب وهكذا . كذلك إذا

رأينا شخصا يقوم من مكانه بعد أن فرغ من الاستذكار وخرج من حجرة المكتب مثلا واتجه نحو المطبخ ، ثم أردنا أن نتنبأ بما سيفعله عندئذ ، فإننا تبعا للنظرية الغرضية في السلوك علينا أن نتنظر حتى ينتهى سلوكه تماما ثم نقول أنه قام ليعد طعامه أو ليأكل . أما إذا كان علينا أن نتنبأ بسلوكه مقدما فإن علينا أن نعرف ظروفاً ومقدمات سابقة على هذا السلوك . كان نعرف عدد الساعات التي مكثها بدون طعام وأن نعرف شيئاً عن عاداته السابقة وغير ذلك .

إننا لا ننكر أن لسلوك الكائنات الحية غايات وأهداف . وأن تحقيقها لهذه الأهداف ووصولها إلى هذه الغايات ضرورى لبقائها واستمرارها في الحياة . ولكن هذا القول لا يعنى أننا قد وصلنا إلى تفسير السلوك . فمن ناحية ، ليس الهدف المستقبل هو الذى يحدد السلوك ، بل التوقع الحالى للحصول عليه أو التنبؤ مقدما بالوصول إليه ، والحاجة إلى تحقيقه ، هى الظروف السببية الضرورية لحدوث السلوك . ومن ناحية أخرى فإن الهدف شيء وتوقع تحقيقه شيء آخر . أننا عندما نتحدث عن مثل هذه الظروف ، أى عن التوقع أو الحاجة أو الرغبة أو ما إلى ذلك ، إنما نتحدث عن ظروف أو مقدمات سببية أشبه بالظروف أو المقدمات السببية التى تحدد حدوث الظواهر الطبيعية . وإننا بتحديد مثل هذه الظروف وبتحديد العلاقات الوظيفية بينها وبين الظاهرة السلوكية نستطيع ، ونستطيع عندئذ فقط ، أن نحقق أهداف العلم من تنبؤ وتحكم ؛ تماما كما نفعل بالنسبة للظواهر الطبيعية الأخرى .

الفصل العاشر

المههج العلمى فى تفسير السلوك

لعلنا بعد هذه الرحلة الطويلة التى استعرضنا فيها مختلف المناهج والاتجاهات فى تفسير الظاهرة السلوكية ، نكون قد تلمسنا أهم معالم الطريق إلى التفسير السليم . أو على الأقل نكون قد تعرفنا على أهم مناطق الزلل ، فتتجشأها فى سبيل الوصول إلى تحديد المعالم الرئيسية لهذنا المنشود ، ألا وهو المههج العلمى فى تفسير السلوك . وسوف نهتم فى هذا الفصل بتحديد تلك المعالم وبوضع تلك الأسس التى يجب أن يبنى عليها أى تفسير علمى للظاهرة السلوكية فإذا كنا فى الفصول السابقة من هذا الباب قد تناولنا بالتقد المحاولات المختلفة فى تفسير السلوك فإننا فى هذا الفصل سوف نحدد بشكل إيجابى الأسس التى يجب أن نتبعها إذا أردنا أن نلتزم بتحقيق أهداف العلم فى تفسيرنا للسلوك . ويتطلب منا هذا أن نعرف أولاً :

ما هو السلوك :

وقد يبدو السؤال عن السلوك فى هذه المرحلة من الكتاب غريباً بعض الشيء . ولكننا مع ذلك سوف نبدأ به كأول حجر فى البناء الذى نريد أن نقيمه . ذلك أننا وإن كنا قد تحدثنا فى طول الكتاب وعرضه عن الظاهرة السلوكية ، إلا أننا مع ذلك لم نضع تحديداً إجرائياً واضحاً لما نقصده من هذه الكلمة ، وما دمنا بصدد منهج علمى فلا بد من تحديد مصطلحاتنا أولاً .

ونحن لا نستطيع أن ندرك معنى السلوك على وجه التحديد إلا فى ضوء العلاقة الديناميكية بين الكائن الحى وبيئته . فمنذ اللحظة الأولى التى يبدأ فيها الكائن الحى حياة مستقلة ، تبدأ مع هذه الحياة علاقة ديناميكية بين الكائن الحى من ناحية وبين البيئة المحيطة به من ناحية أخرى . أو بمعنى آخر تبدأ عملية تفاعل مستمرة بين الكائن الحى والكائنات الحى يصدر منه نشاط يؤثر فى البيئة . ونحن نسمى أى نشاط يصدر من الكائن الحى فى أثناء عملية التفاعل هذه ، بالسلوك . فالسلوك إذن باختصار هو أى نشاط يصدر من الكائن الحى .

فمن تقلص في المعدة ، إلى أفراد غدة إلى انقباض يحدث في عضلات الذراع ، إلى فعل كامل كالذهاب إلى السينما مثلاً ، إلى إنصات لمحاضرة أو محاولة لفهم مسألة حسابية أو تأمل عمل فني ، أو غير ذلك من ألوان النشاط المتعددة التي يمكن أن تصدر من الكائن الحي طالما هو في حالة حياة وليس في حالة موت . فالسلوك خاصية أولية من خصائص الكائن الحي ، خاصية يمكن التوحيد بينها وبين الحياة نفسها تقريباً . ويبدو هذا التوحيد بين السلوك والحياة ، في نظرتنا العادية للأشياء والكائنات من حولنا . فأى شيء يتحرك حركة « إيجابية » يقال إنه حي ، وخاصة إذا كانت حركته هذه موجهة ، أو كانت تحدث تأثيراً أو تغييراً في البيئة المحيطة .

ولسنا هنا بصدد تحليل السلوك أو تصنيفه أو تفسيره أو حتى تحديد خصائصه ، ولكننا نريد فقط أن نوضح المفهوم توضيحاً إجرائياً ، حتى لا يختلط علينا أمر الظاهرة التي نعتبرها موضوعاً لعلم السلوك . فالكائنات الحية يمكن أن ينظر إليها من حيث أنها تتصف بصفات تشترك فيها مع غيرها من الكائنات غير الحية . صفات هي موضوع علم الطبيعة وعلم الكيمياء (أى من حيث أنها كتلة خاضعة لقانون الجاذبية ومن حيث أنها مركبة من عناصر كيميائية قابلة للاحتراق والتفاعل والتحول) ، كما يمكن أن ينظر إليها أيضاً من حيث أنها تتصف بخصائص تتميز بها عن غيرها من الكائنات غير الحية . وهذه الخصائص الأخيرة نوعان: النوع الأول هو عبارة عن خصائص الكائن الحي من حيث هو مؤلف من خلايا وأنسجة وأعضاء وأجهزة ، ومن حيث وظائف هذه جميعاً (أى الولادة والنمو والتكاثر والموت ... الخ) ، وهو ما يكون جميعه موضوع علم البيولوجيا . أما النوع الثاني من خصائص الكائنات الحية ، وهو موضوعنا هنا ، فهو خصائصه من حيث هو كل يتفاعل أو يتصرف أو « يسلك » في البيئة المحيطة وذلك في سبيل تأديته لوظائفه الحيوية (البيولوجية) . ففي حالة الإنسان مثلاً نجده يدرك ويتفعل ويتذكر ويتعلم ويتخيل ويفكر ويعبر ويريد ويفعل ... الخ .

والواقع أننا لا نستطيع أن نفصل فصلاً تاماً بين النشاط البيولوجي والنشاط السيكلوجي للكائن الحي . فمنذ أن خرج علينا دارون بنظريته في التطور ونحن لا نستطيع أن نفكر في الكائن الحي سواء من حيث تركيبه أو من حيث وظائفه إلا في إطار من فكرة « البقاء » (Survival) ، بقاء الفرد أو بقاء النوع . فلكي تستمر حياة الكائن الحي ويبقى نوعه ، لابد له من أن يقوم بنشاط معين يكون في مجموعه ما نسميه بالسلوك . ذلك أن الدراسات الفسيولوجية قد دلت على أن بقاء الكائن حياً يتطلب أن تكون ظروف علاقته بالبيئة على نحو معين من حيث الهواء والغذاء والحرارة وحالة الأنسجة وما إلى ذلك . ولذا

فإن الكائن الحي يسلك ليحقق المستوى المطلوب للحياة من حيث علاقته بهذه الظروف وبالنسبة للكائنات العليا في سلم التطور ، يضاف إلى ذلك تحقيق المستوى المطلوب للتوافق بالنسبة لظروف المجتمع .

فالسلوك إذن هو عبارة عن ذلك النشاط الذى يصدر من الكائن الحي كنتيجة لعلاقته بظروف بيئية معينة والذى يتمثل بالتالى فى محاولاته المتكررة للتعديل والتغيير فى هذه الظروف ، حتى يتناسب مع مقتضيات حياته ، وحتى يتحقق له البقاء ولجنسه الاستمرار . والسلوك بحكم هذا التعريف لا يخرج عن كونه ظاهرة طبيعية كأى ظاهرة طبيعية أخرى . ومن حيث كونه « ظاهرة » فهو لا يحتمل أى غموض أو إيهام أو غيبية . وعلى ذلك فلا مجال للكلام بصدد الظواهر السيكلوجية عن « الشعور الباطنى » أو عن « أغوار النفس » أو عن « أعماق اللاشعور » ، ما لم تترجم هذه الألفاظ جميعاً بما يجعلها ظاهرة قابلة للملاحظة ، أى سلوكاً . وباعتبار أن السلوك ظاهرة « طبيعية » فهو لا يحتمل الوصف بأنه « تلقائى » بل كأى ظاهرة طبيعية أخرى لابد أن نسلم بأن هناك ظروفاً ضرورية لازمة لحدوثه وأن نبحث عن هذه الظروف .

وسوف نتحدث عن هذه المفاهيم جميعاً فيما بعد . على أننا قبل أن ننتقل الآن إلى الحديث عن هذه المفاهيم ، نود أولاً أن نذكر كلمة فيما يتعلق بمستويات السلوك من حيث كليته أو جزئيته .

لقد سبق أن قلنا إن السلوك هو أى نشاط يصدر عن الكائن الحي ابتداء من انقباض عضلة أو إفراز غدة حتى الفعل الكامل كالذهاب إلى السينا أو اندماج طفل فى اللعب أو تقدم شخص للزواج بفتاة . والواقع أننا فى المرحلة الحالية من دراسة السلوك إنما نهتم بالأفعال فى كليتها وليس فى تفاصيلها الجزئية . فسلوك كالبحث عن الطعام مثلاً ، يتضمن أفعالاً جزئية مثل تقلصات العضلات وإفراز الغدد وما إلى ذلك من العمليات الفسيولوجية الجزئية الأخرى . وأى فعل كلى آخر يمكن تحليله إلى وحدات جزئية من هذا النوع . ولكننا لا نهتم بمثل هذه العمليات الجزئية فى المرحلة الحالية من دراسة السلوك ، بالرغم من أن الشائع فى بعض الأوساط التى تعنى بدراسة السلوك هو أن علم السلوك لا يتوقع لنفسه نمواً مفيداً إلا على أساس من دراسة هذه العمليات . ذلك أن من المسلم به ، كما سبق أن بينا فى مكان

آخر^(١) ، أننا حتى الآن لم نصل بعد إلى المرحلة التي يحسب منها : فهو . ان قد اجتزنا الفجوة بين ما نعرفه الآن عن هذه العمليات الفسيولوجية ، وبين ما تلزمنا معرفته من المعلومات للوصول إلى تفسير مفيد للسلوك الكلى .

على أن العلاقة بين السلوك الكلى والسلوك الجزئى علاقة نسبية محضة فما يعتبر جزئياً اليوم قد يعتبر كلياً فى الغد القريب وذلك بناء على زيادة معرفتنا ومعلوماتنا عن الوحدة الكلية للسلوك . كذلك فإن العمليات الجزئية قد تكون دراستها مفيدة وضرورية فى بعض المجالات كما هو الحال مثلاً فى تحليل الحركة فى بعض المهن من أجل الوصول إلى تقليل عامل التعب بقدر الإمكان ، وهكذا .

والخلاصة أن ما نهتم بدراسته الآن فيما يتعلق بالسلوك هو النشاط أو الفعل الكلى ، وذلك بقصد الوصول إلى تحديد المتغيرات المسؤولة عنه باعتباره ظاهرة طبيعية .

ونحن ندرس هذه الظاهرة الكلية « السلوك » دراسة تجريبية تقوم على أساس من الملاحظة والقياس من نواح أو من أوجه ثلاثة هى :

١ - اتجاه السلوك .

٢ - كمية السلوك أو مقداره .

٣ - تكافؤ السلوك أو دقته - ولا ينفصل أى مظهر من هذه المظاهر عن المظهرين الآخرين . إلا أن أى تجربة تهتم فى الغالب بناحية أو أخرى من هذه النواحي وتركز عليها باعتبارها المظهر الذى يمكن قياسه . ومعنى المظهر الأول هو أن السلوك يمكن أن يبدو مثلاً فى عمل شىء بدلاً من عمل شىء آخر ، أو اتخاذ اتجاه معين بدلاً من اتخاذ اتجاه آخر . مثلاً قول كلمات معينة بدلاً من كلمات أخرى أو الجلوس بدلاً من الوقوف أو المشى فى طريق معين بدلاً من المشى فى طريق آخر ، وهكذا . أما المظهر الثانى فمعناه اتخاذ اتجاه معين بدرجة معينة من الشدة أو بدرجة معينة من الاستمرار والإصرار . ويتمثل هذا المظهر فى عدد الأفراد الذين يظهرون اتجاهاً معيناً فى السلوك مثلاً ، أو عدد الاستجابات التى لابد أن تصدر قبل أن يكف الفرد تلقائياً عن اتجاه معين فى السلوك ويتحول إلى اتجاه آخر ، أو أى طريقة أخرى لقياس الكم أو الشدة على هذا النحو . ويعبر عن المظهر الثالث الزمن الذى يأخذه الفرد حتى يصدر استجابة معينة مطلوبة منه ، أو عدد الأخطاء التى تصدر من الفرد قبل أن يصدر هذه الاستجابة .

(١) انظر ص ١٢٤

المتغيرات التي يعتبر السلوك محصلة لها :

قلنا إن السلوك هو ذلك النشاط الذي يصدر من الكائن الحي كنتيجة لعلاقته بظروف بيئية معينة ، ذلك أن الكائن الحي لا يمكنه أن يبقى (سواء كفرد أو كنوع) إلا إذا توفرت له ظروف بيئية معينة من حيث الهواء والغذاء الخ ... فإذا حادت هذه الظروف البيئية أو انحرفت عن الحالة المثلى اللازمة لحفظ بقاء الكائن الحي ، فإن الكائن الحي ينشط لإعادة هذه الظروف إلى وضعها المناسب . ولنضرب مثلاً لذلك من سلوك بسيط هو سلوك البحث عن الطعام عند كلب معين . فإذا بقي الكلب مدة من الزمن دون حصول على الطعام فإنه يتحرك أو ينشط في الاتجاه الذي يجد فيه طعاماً ، ثم تقف حركته هذه عند الحصول على هذه القطعة أو تلك من العظم ، أو من غيره مما يتكون منه طعامه .

ومن خلال هذا المعنى للسلوك تتحدد العوامل المسؤولة عنه . فمن الطبيعي أن الوجه النهائي لشكل التفاعل بين الكائن الحي وبيئته إنما يتحدد بناءً على ظروف كل منهما . ولا يمكن أن نتنبأ بالسلوك إذا عرفنا الخصائص المميزة لأحدهما دون الآخر . إن كلا الكائن الحي وبيئته يكونان جزءاً من الطبيعة . وأى أجزاء في الطبيعة يقوم بينها نوع من التفاعل ، يتحدد الشكل النهائي لذلك التفاعل بناءً على خصائص كل جزء من هذه الأجزاء وعلى طبيعة العلاقة بينها جميعاً . وعلى ذلك فإن العوامل المحددة للسلوك لابد أن يبحث عنها في البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي ، في المجال الكلي الذي يتفاعل فيه ، باعتباره هو نفسه جزءاً من هذه البيئة أو من هذا المجال .

ويتضمن هذا الكلام معنيين هامين . فباعتبار أن الكائن الحي يكون جزءاً من البيئة التي يعيش فيها ، جزءاً غير منفصل عنها ، وغير مستقل عن الأجزاء الأخرى المحيطة به ، لذلك كان لابد أن نتصور أولاً : أن سلوك الكائن الحي عملية ديناميكية ، أى أن الكائن الحي لا يتأثر بالبيئة المحيطة به بشكل آلي سلبى ، بل يؤثر فيها كما يتأثر بها . ونتيجة لهذا التأثير والتأثير المتبادل يتحدد الشكل النهائي للسلوك .

فالسلوك في هذا يختلف عن حركة الآلة ، بمعنى أن الآثار التي تترتب على سلوك ما ، تؤثر في شكل ذلك السلوك مستقبلاً ، فيتخذ السلوك شكلاً معيناً متكيفاً مع الظروف الجديدة ، ونحصل على آثار جديدة تؤثر في شكله بعد ذلك ، وهكذا . فإذا فرضنا مثلاً أن طفلاً ما قد وقع عليه تأثير من البيئة الخارجية بحيث حال بينه وبين تحقيق أو إشباع رغبة من

رغباته ، فإن هذا الطفل قد يندفع غاضباً للاعتداء على مصدر هذا الإحباط . ولكن لنفرض أن نتيجة هذا العدوان كان العقاب من ناحية المجتمع الخارجى ، وأن مثل هذا السلوك قد تكرر من ناحية الطفل وأن مثل هذا العدوان قد تكرر كنتيجة مترتبة على سلوك هذا الطفل ، فإننا نتوقع عندئذ أن « يكف » الطفل ولو مؤقتاً عن سلوكه العدوانى « خوفاً » من العقاب وبذلك يتعدل سلوك الطفل بالنسبة للبيئة الخارجية ، نتيجة الآثار المترتبة على سلوكه ، وتشكل علاقة الطفل ببيئته فى شكل جديد يؤثر فى النتائج التى يحصل عليها فيتعدل سلوكه مرة أخرى ، وهكذا .

ومعنى ذلك أننا إذا كنا فى صدد البحث عن محددات للسلوك أو عن متغيرات يعتبر السلوك محصلة لها ، فإننا لا نعنى بذلك البحث عن قوى تدفع أو متغيرات تؤثر بشكل ميكانيكى على كائن سلبى ، بل يجب أن يكون موقفنا هو موقف الباحث عن قوى متفاعلة يكون الكائن الحى نفسه طرفاً من أطرافها .

أما المعنى الثانى فما هو إلا الوجه الآخر من هذه الحقيقة السابقة الذكر . أى أنه إذا كنا سننظر إلى الكائن الحى كجزء من البيئة غير مستقل عنها فإن معنى ذلك أننا فى بحثنا عن العوامل المسئولة عن سلوكه لا يجب أن نتجه إلى « داخل » الكائن الحى . ذلك أن البحث عن العوامل المحددة للسلوك فى داخل الكائن الحى يتضمن قطعاً النظر إلى الكائن الحى باعتباره وحدة مستقلة مكتفية بذاتها ، تحوى بين طياتها « القوى » أو « المتغيرات » التى تحركها . ولقد رأينا فى الفصول السابقة كم كانت طريقة البحث عن أسباب السلوك فى داخل الكائن الحى ، طريقة مضللة ، لا تساعدنا على توضيح المتغيرات التى يمكن أن تفسدنا فى التحليل العلمى .

فنحن نغلق باب البحث العلمى - كما سبق أن أوضحنا - إذا بحثنا عن أسباب السلوك فى قوى غيبية نفترض وجودها فى داخل الكائن الحى ، سواء تمثلت هذه القوى فى « نفسه » وما « تحويه » أم فى « عقله » وما « يتركب منه » أو حتى فى جسمه بأبعاده الظاهرية وخصائص تكوينه البيولوجى ووظائفه الفسيولوجية . وعلى ذلك فإن الطريق الوحيد لإقامة علم السلوك هو البحث عن أسبابه فى البيئة بمعناها الواسع ، أى باعتبارها أحداثاً طبيعية تنمو فى وسطها ليس فقط الظواهر السلوكية باعتبارها ظواهر طبيعية ، بل أيضاً الظواهر البيولوجية ، سواء كانت هذه الظواهر عبارة عن عمليات فسيولوجية « داخلية » أم تكوينات عضوية .

مثل هذه الأحداث تقع فى خارج الكائن الحى وليس فى داخله . وسواء كانت هذه الأحداث مما ينتمى إلى البيئة المادية أم البيئة الاجتماعية ، فإننا نفترض أن لها أبعادها الطبيعية ،

حتى يمكن أن نخضع لأساليب البحث العلمى العادية، أو بمعنى آخر، حتى يمكن أن نخضع للملاحظة والقياس . ولاشك أن هذه المتغيرات كثيرة ومتنوعة ، وأن علاقتها بالسلوك علاقات معقدة ، وغالباً ما تكون خفية . على أننا لا يمكن على أى حال أن نفسر السلوك إلا بالحصول على تحديد واضح لها .

ومثل هذه الأحداث أيضاً لا يمكن أن تكون إلا مقدمات للسلوك ، أى سابقة له وليست لاحقة عليه . فالأحداث التى تقع فى نهايات السلوك مما نسميه أهدافاً أو أغراضاً أو غايات ، ليست هى ما نقصده هنا بالمتغيرات التى يعتبر السلوك محصلة لها . وقد سبق أن أوضحنا ذلك فى فصل سابق .

وسواء كانت المتغيرات المستولة عن السلوك عبارة عن أحداث تقع فى الماضى القريب أم فى الماضى البعيد للكائن الحى فإنه لا بد أن ننظر إليها باعتبارها متغيرات مستقلة عن الكائن الحى نفسه وليست صورة أخرى من صور سلوكه أى من صور الظاهرة ذاتها المراد تفسيرها . وهذا أيضاً سبق أن أوضحناه فى فصل سابق . على أننا إذا كنا نريد أن نوضح مفهومنا عن المتغيرات التى يعتبر السلوك محصلة لها بشكل أدق فلا بد أن نأتى بمثال .

والمثال الذى نستخدمه لهذا الغرض هو نفس المثال الذى سبق أن ضربناه فى مكان آخر ، وهو شرب كوب من الماء . إن هذا الفعل على بساطته وعدم تمثيله لأهم ما يمكن أن يصدر فى حياة الفرد من سلوكه ، إلا أنه يمدنا بموقف مناسب للغرض التحليلى الذى ننشده حالياً .

إذا فرضنا وأن أحضرنا شخصاً ما إلى حجرة ، ووضعنا أمامه وعلى مرأى منه كوباً من الماء ، فهل يشربه ؟ وهل يمكننا دون قسر أن نجعله يشربه ؟ إننا نواجه هنا موقفاً يتحدى قدرتنا على التنبؤ بالسلوك كما يتحدى قدرتنا على التحكم فيه ، وهما الهدفان الأساسيان للعلم . ثم إن تحقيقنا لهذين الهدفين ليتوقف على طريقة تفسيرنا للسلوك أى على مفهومنا عن المتغيرات التى يعتبر السلوك محصلة لها .

ولنعد الآن إلى المشكلة مرة أخرى . إن هناك احتمالان لا ثالث لهما فى ذلك الموقف . فإما أن يشرب صاحبنا الماء أو لا يشربه . وبعبارة أدق فإن احتمال الشرب يتراوح بين درجة التأكد العام من أنه سيحدث ، ودرجة التأكد العام من أنه سوف لا يحدث ، والذى يهيئنا الآن هو أنه إذا أردنا أن نحدد درجة احتمال صدور سلوك الشرب ، فما نوع المعلومات التى يجب علينا أن نعرفها ؟ ثم إذا أردنا أن نزيد من درجة الاحتمال هذه أو نقلل منها فما الذى علينا أن نفعله؟ ولنؤجل الإجابة على السؤال الأول حتى نجيب عن السؤال الثانى .

إن الخبرة العادية في الحياة اليومية تقدم لنا بعض الحلول والإجابات بالنسبة لهذا السؤال . وتضيف الدراسات المعملية والإكلينيكية بالطبع الشيء الكثير إلى هذه الحلول . فمن الممكن أن نرتب الظروف بالنسبة لذلك الشخص الذي ضربنا به المثل بحيث نخرمه من الشرب مدة طويلة قبل التجربة . وعندئذ يمكننا أن نقرر بشيء من التأكيد أنه سوف يشرب كوب الماء بمجرد رؤيته . وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة - وإن كان ذلك متعزلاً لإجراؤه بشكل تجريبي معمل في حالة الإنسان ، ولكن يحدث في الظروف العادية ما يماثل تقريباً - فإنه يمكننا أن نحدث تأثيراً مماثلاً لتأثير الحرمان بأن نجعل إفراز العرق يتم بالدرجة المطلوبة أو بالكمية اللازمة . فيمكننا مثلاً أن نحدث إفراز العرق عن طريق رفع درجة حرارة الحجرة أو عن طريق دفع الشخص إلى أداء مجهود شاق . ومن الممكن كذلك أن نزيد إفراز البول عن طريق خلط الطعام الذي يتناوله قبل التجربة مباشرة بكمية كبيرة من الملح . كذلك من المعروف أن نزف الدم - كما يحدث في المعارك الحربية - يزيد من احتمال طلب الشرب . ومن ناحية أخرى يمكننا أن نقلل من احتمال طلب الشرب ببساطة عن طريق قسر هذا الشخص على شرب كمية كبيرة من الماء قبل دخول الحجرة .

كل هذه إجراءات تقرر الملاحظة العرضية وكذلك الملاحظات العلمية المنظمة ، أنها مرتبطة بسلوك الشرب ، ارتباطاً وظيفياً معيناً ، بحيث أننا إذا أردنا التحكم في ذلك السلوك فما علينا إلا أن نقوم بهذه الإجراءات بعضها أو كلها على النحو الذي سبق أن بيناه . كما أنه إذا كان لنا أن نتنبأ بحدوث ذلك السلوك وجب علينا أن نعرف أكبر عدد ممكن من تلك المتغيرات . على أنه إذا أردنا الدقة في كلتا الحالتين سواء في حالة التنبؤ أم في حالة الضبط ، فإن علينا أولاً أن نبحث العلاقات القائمة بين هذه المتغيرات من ناحية وبين سلوك الشرب من ناحية أخرى بحثاً تجريبياً كميّاً دقيقاً بالطرق والوسائل الفنية للبحث المعمل أو التجريبي عموماً .

المتغيرات التي تساعدنا معرفتها على تحقيق أهداف العلم من تنبؤ وتحكم في الظاهرة السلوكية إذن ، لا يمكن إلا أن تكون أحداثاً تقع في خارج الكائن الحي ، أي تعرض لها في تاريخه القريب أو البعيد . حقاً قد تكون هناك متغيرات أخرى في المثال السابق الذكر لها علاقة بسلوك الشرب ، ويمكن لذلك أن تحدث تأثيراً في النتيجة . فقد « يخاف » صاحبنا أن نكون قد أضفنا شيئاً إلى الماء بقصد المزاح أو بقصد إجراء تجربة معينة عليه . وقد « يشك » في نيتنا نحوه « فيخشى » أن يكون الماء قد سمم . وقد يكون من تقاليد المجتمع أو الثقافة التي نشأ فيها ألا يشرب الشخص أمام الناس . وقد يرفض أن يشرب حتى يثبت لنا أننا لا نستطيع أن نتنبأ بسلوكه أو نتحكم فيه .

على أن وجود مثل هذه الاحتمالات لا يدحض العلاقة بين سلوك الشرب وبين المتغيرات التي سبق أن ذكرت في الفقرات السابقة . إنها تذكرنا فقط أن هناك متغيرات أخرى يجب أن توضع في عين الاعتبار ، وبصرف النظر عن معاني هذه المتغيرات الجديدة وكيف يمكن أن نعرفها تعريفاً يفيدنا في التحكم والتنبؤ (فسوف يأتي ذلك ذلك في فقرة تالية) ، إلا أنها تشير على أى حال إلى أننا لا بد أن نعرف تاريخ الفرد الذى تجرى عليه التجربة إذا كان لنا أن نتنبأ بسلوكه . فلا بد أن نعرف تاريخه فيما يتعلق بسلوك شرب الماء ، وخاصة تاريخ علاقاته الاجتماعية ومنها علاقاته بالناس الذين يشبهون المجرى وعلاقاته الإنسانية الأخرى في الثقافة التي تعيش فيها . فالتنبؤ الدقيق ، وكذلك التحكم المضبوط ، يتطلب منا فى أى علم من العلوم أن نحصل على معلومات كثيرة عن المتغيرات المناسبة . والتنبؤ الدقيق والتحكم المضبوط فى علم النفس يتطلب منا أن نعرف معلومات كثيرة على وجه الخصوص عن تاريخ التفاعل بين الفرد وبين أفراد مجتمعه الآخرين .

إن التفسيرات التي سبق أن عرضنا لها في الفصول السابقة لا تعطينا بديلاً يمكننا أن نستغنى به عن هذه المتغيرات ، وأن نحفظ في نفس الوقت بقلوبنا على تحقيق ما يهدف إليه العلم من تحكم وتنبؤ . فليس من المفيد في شيء في سبيل تحقيق هذه الأهداف أن نقول في المثال السابق إن صاحبنا سوف يشرب إذا كان مولوداً في برج زحل مثلاً ، أو أنه سوف يشرب لأنه قد خلق من النوع « الواهن العطشان » أو أنه باختصار قد خلق هكذا . ثم ماذا يفيدنا أيضاً قولنا إنه يشرب لأن عنده غريزة العطش ، إذا كان العطش (أو غريزة العطش) لا يعنى شيئاً أكثر من وجود ميل عند الإنسان لأن يشرب ، وإذا كان هذا التفسير الأخير ليس سوى لغة أخرى للتعبير عن احتمال حدوث فعل الشرب . أليس كلامنا في هذه الحالة معناه تكرار نفس الشيء مرة أخرى ؟ لكأننا في هذه الحالة نقول إنه يشرب لأنه يحتمل أن يشرب .

وإذا كان للعطش معنى آخر بخلاف أنه درجة احتمال للشرب أو ميل نحو الشرب ، أى إذا كان العطش يعنى « حالة » أو « استعداداً » أو غير ذلك فإن كلامنا في هذه الحالة يشير إلى وجود « سبب داخلي ، نفسى أو فسيولوجى » ، وإذا كانت مثل هذه الأسباب الداخلية لا تعبر إلا عن مفهومات مستنتجة من السلوك نفسه ، وإذا كانت تعوزها الأبعاد التي تساعد على ملاحظتها ملاحظة مباشرة ، فما قيمة مثل هذه الحالات وما الدور الذى يمكن أن تلعبه في إقامة علم للسلوك ؟ علم يعتمد على اكتشاف متغيرات يمكن تناولها على النحو السابق بغرض التحكم والتنبؤ .

وقد يقول لنا الفسيولوجي مثلاً ، أن هناك عدة طرق لزيادة احتمال الشرب . وأن هذه

الطرق المتعددة تحدث تأثيراً عاماً ، وهو زيادة تركيز المحاليل في الجسم . ويصاحب هذه الزيادة في تركيز المحاليل تغيرات في الجهاز العصبي ، وذلك عن طريق عمليات غير معروفة على وجه التحديد . وهذه التغيرات تزيد بدورها احتمال حدوث سلوك الشرب . وبنفس الطريقة قد يقال إن كل هذه العمليات تجعل الكائن الحي « يشعر بالعطش » أو « يريد أن يشرب » ، وأن مثل هذه الحالة النفسية تؤثر أيضاً على الجهاز العصبي بطريقة غير معروفة بحيث يستثار سلوك الشرب .

إذا نظرنا إلى مثل هذه التفسيرات نجد عندنا سلسلة من الأسباب ذات ثلاث حلقات :

١ - الحلقة الأولى : هي عبارة عن عملية أو عمليات يتعرض لها الكائن الحي أو تجرى عليه ، ومثال ذلك « الحرمان من تناول الماء مدة معينة » .

٢ - أما الحلقة الثانية فهي عبارة عن « حالة داخلية » ومثال ، هذه كما رأينا « العطش الفسيولوجي » أو « العطش النفسي » .

٣ - أما الحلقة الثالثة فهي السلوك نفسه وهو هنا عبارة عن الشرب .

ولاشك في أننا إذا استطعنا أن نحصل على معلومات عن الحلقة الثانية بشكل مباشر فإننا نكون عندئذ في موقف يسمح لنا بالتنبؤ عن الحلقة الثالثة دون ما حاجة إلى الرجوع للحلقة الأولى . بل أكثر من ذلك فإننا في هذه الحالة سوف نفضل الرجوع إلى مثل هذه المتغيرات (متغيرات الحلقة الثانية) لأنها ستوفر علينا عبء البحث في تاريخ الكائن الحي والرجوع إلى الأحداث الماضية في حياته . فالحلقة الأولى دون شك تمثل أحداثاً أو إجراءات يتعرض لها الكائن الحي في ماضيه القريب أو البعيد ، أما الحلقة الثانية فهي عبارة عن حالته في الوقت الحاضر والرجوع إلى الحاضر بالطبع أسهل من الرجوع إلى الماضي .

على أن الحصول على بيانات أو معلومات عن الحلقة الثانية مباشرة هو - كما سبق أن رأينا - أمر نادر ، إن لم يكن مستحيلاً . فنحن أحياناً نستنتج الحلقة الثانية من الثالثة . فنحكم على حيوان مثلاً بأنه عطشان عندما نراه يشرب ، أو نحكم على طفل بأنه جائع عندما نراه يلتهم اللبن . وفي أحيان أخرى نستنتج الحلقة الثانية من الحلقة الأولى فنحكم على حيوان مثلاً بأنه عطشان عندما يكون قد مكث مدة طويلة بدون ماء . فإذا كنا نعتمد في تفسيرنا على الحلقة الثانية التي سبق أن استنتجناها من الحلقة الثالثة فإن معنى ذلك أن تفسيرنا يكون دائرياً غير مفيد . فالسبب المزعوم في هذه الحالة يكون معتمداً على النتيجة ، ثم ترتب بعد ذلك النتيجة على السبب المستنتج منها وهكذا . أما في الحالة الثانية التي نستنتج فيها الحلقة الثانية من الأولى ، فمن الواضح أننا لا نستغنى عندئذ عن المعلومات التاريخية وإذن فلنكتفي نتباً

لا بد لنا من الحصول على معلومات تتعلق بالحلقة الأولى .

حقاً إننا قد نستطيع أحياناً أن نحصل على معلومات عن الحلقة الثانية بشكل مباشر . فقد نستطيع أن نأخذ عينة من دم الشخص مثلاً ونجرى عليه في المعمل كشفاً دقيقاً وذلك لكي نعرف إلى أى حد يحتاج هذا الشخص إلى كميات أخرى من الماء . أو قد نجرى على الشخص اختبارات سيكولوجية لنعرف منها « حالته النفسية الراهنة » ولكن مثل هذه المعلومات تكون عديمة الفائدة من حيث التحكم في الظاهرة السلوكية ، إلا إذا أمكننا أن نتناول متغيرات الحلقة الثانية تناولاً مباشراً وهو أمر مستحيل^(١) .

ففي حدود معرفة البشرية ، لا توجد وسيلة حتى الآن يمكننا بها أن نغير مباشرة من العمليات العصبية بحيث نستطيع أن نتحكم في سلوك الكائن الحي في الوقت المناسب . كذلك فإنه لا توجد وسيلة يمكننا من أن نغير مباشرة في « الحالات النفسية » . ذلك أن مثل هذه الحالات ليست سوى أموراً فرضية . بل إن واقع الأمر هو أننا نخلق متغيرات الحلقة الثانية عندما نوفر متغيرات الحلقة الأولى . فنحن نجعل الحيوان « عطشاناً » سواء بالمفهوم الفسيولوجي أم بالمفهوم النفسي ، بأن « نمنع » عنه الماء ، أو « نضع » له الملح في الطعام ، وهكذا . وواضح في هذه الحالة أن وجود الحلقة الثانية يعتمد اعتماداً كلياً على وجود الحلقة الأولى . وبالتالي فإن التحكم في السلوك يعتمد اعتماد كلياً على تناول متغيرات من نوع متغيرات الحلقة الأولى . وبعبارة أخرى فإن التفسير المفيد للسلوك هو ذلك الذي يحاول أن يرجعه إلى متغيرات محددة في صورة أحداث أو إجراءات يتعرض لها الكائن الحي سواء في تاريخه القريب أم البعيد .

إننا عندما نقف في تتبعنا لأسباب السلوك عند الحلقة الثانية ، وهي حلقة فرضية ، إنما نعمل في الواقع على تعطيل قيام علم سليم للظواهر السلوكية ، علم يمكن عن طريقه أن نتنبأ بالسلوك وأن نتحكم فيه . فليس من المفيد ، إطلاقاً ، أن نقول « إننا لكي نجعل الكائن الحي يشرب ما علينا إلا أن نجعله « عطشاناً » ليس من المفيد أن نقول هذا إلا إذا أقرناه ببيان للطريقة التي يمكن بها أن « نسب » أو « نحدث » هذا « العطش » . كذلك ليس من المفيد في شيء أن نقول : « إن الطريقة المثلى لضمان التقدم في التعلم هو أن يكون الطالب متوقد الذهن » . فإذا لم نعرف كيف يحدث هذا التوقد ، كان كلامنا مجرد لغو لا قيمة له من حيث التحكم في السلوك أو التنبؤ به . وبالمثل عندما نقرر سوء التوافق عند فرد ما بأنه نتيجة لما

(١) جميع التفسيرات التي استعرضناها في الفصول السابقة تعتمد على فرض وجود أسباب من نوع الحلقة الثانية ، وقد سبق أن ناقشناها بالتفصيل

يعانيه من « قلق » ، فإننا لابد أن نعرف أولاً ما هي العوامل أو الأسباب التي تؤدي إلى « القلق » قبل أن يكون لتفسيرنا هذا أى فائدة من الناحية العملية ، سواء في العلاج أم في التربية . ومرة أخرى عندما نقول إن السبب في سلوك السرقة عند الأحداث هو « ميلهم إلى العدوان على المجتمع » أو « شخصية جناحية » أو غير ذلك ، فإن علينا أن نعرف إلى جانب ذلك ما هي الظروف الخارجية التي تؤدي إلى « إحداث هذه الحالات » . وبدون معرفة هذه الظروف الخارجية في كل حالة من هذه الحالات فإننا لا نكون قد فسرنا بالمعنى الذى سبق تحديده للكلمة تفسير .

إن الاعتراض على « الحالات » أو « الأسباب الداخلية » ، ليس معناه أننا نناقش الآن وجودها أو عدم وجودها ، بل معناه أنها غير مفيدة من حيث التفسير أو من حيث تأدية الوظائف التي نتوقع أن يؤديها أى علم بالنسبة للظواهر التي يقوم على دراستها . إننا لا نستطيع أن نفسر السلوك الإنساني أو سلوك أى نظام آخر من النظم الموجودة في هذا الكون ، إذا أغلقنا على أنفسنا في داخل هذا النظام وأخذنا نبحت عن أسباب سلوكه في باطنه . إننا لكي نفسر يجب أن نتجه إلى خارج الكائن الحي .

يجب أن نبحت عن قوى تؤثر على الكائن الحي من الخارج . أو بمعنى أصح يجب أن نبحت عن قوى تتفاعل مع الكائن الحي باعتباره قوة أخرى ، ويكون نتيجة هذا التفاعل المظاهر السلوكية التي نشاهدها . إن المعلومات التي قد نحصل عليها بالنسبة لمتغيرات الحلقة الثانية يمكن أن تلقى ضوءاً كبيراً على السلوك ولكن بشرط أن تصاغ متغيرات هذه الحلقة بطريقة أخرى كما سنوضح فيما بعد . ولكن الشيء الذى لابد منه في أى حالة هو أن نبحت عن المتغيرات التي يعتبر السلوك محصلة لها ، في خارج الكائن الحي وليس في داخله . أن نبحت عنها في صورة أحداث أو ظروف تعرض لها الكائن الحي في ماضيه ويتعرض لها في حاضره ويستمر « أثرها » في مستقبله . مثل هذه المتغيرات فقط هي التي نستطيع عن طريقها أن نتحكم في السلوك وأن نتنبأ به .

إن هدفنا من إقامة علم للسلوك هو في النهاية زيادة قدرتنا على التحكم و الظاهرة السلوكية . ولكي نصل إلى هذا الهدف علينا أن نبحت عن الأسباب التي يعتبر السلوك محصلة لها . وقد رأينا أن تحديد هذه الأسباب في صورة تكوينات « داخلية » كالإرادة أو الذكاء أو الغريزة أو الوراثة أو غير ذلك ، لم يكن مفيداً بالمرة في سبيل الوصول إلى هدفنا من إقامة علم للسلوك ، إن لم يكن معوقاً له . فمثل هذه التكوينات إن دلت على شيء ، إنما تدل ، كما سبق أن رأينا ، على تسمية جديدة للظاهرة نفسها المراد تفسيرها ، أو على مصاحبات سلوكية أو فسيولوجية للظاهرة السلوكية موضوع البحث .

وإذن فلا بد أن نبحث عن الأسباب في صورة أخرى . والصورة الوحيدة التي تمكنتنا من تحقيق هدفنا هي تلك التي تساعدنا على أن نضع أيدينا على متغيرات قابلة للملاحظة وللتناول . حتى إذا ما أردنا أن نتحكم في السلوك فإننا نستطيع عندئذ أن نتناول الأسباب المسؤولة عنه بالتغيير والتعديل في الاتجاه المطلوب . مثل هذه الأسباب هي - مرة أخرى - عبارة عن متغيرات مستقلة في صورة حوادث أو أحداث طبيعية يتعرض لها الكائن الحي ويعتبر السلوك محصلة لها أو متغيراً تابعاً بالنسبة لها .

ولكن العلم لا يقتصر على البحث عن مثل هذه الأسباب بل يحاول أيضاً أن يقيم بينها وبين الظاهرة السلوكية علاقات وظيفية محددة . مثل هذه العلاقات توضع في صورة قوانين ترتبط هي الأخرى بعضها ببعض في صورة أعم فأعم لتكون نظرية شاملة .

والواقع أن الظروف البيئية التي يعتبر السلوك محصلة عليها ظروف عديدة ومتشعبة ومعقدة . ولهذا كان من الواجب علينا ، إذا أردنا أن نقيم منهجاً علمياً سليماً لتفسير السلوك ، أن نتناول بالبحث النقاط الآتية : أولاً - كيف نحدد مفهوماتنا السببية وكذلك متغيراتها المستقلة والتابعة تحديداً يساعد على تحقيق الأهداف التي يقوم من أجلها علم السلوك ، وهي أهداف التحكم والتنبؤ ؟ ثانياً - كيف نصنف هذا العديد من المتغيرات السببية بحيث يسهل علينا حصر هذه المتغيرات وبحيث تسهل علينا بعد ذلك عملية البحث العلمي التي نتبع فيها بدقة العلاقة بين هذه المتغيرات من ناحية وبين الظاهرة السلوكية من ناحية أخرى ؟ ثالثاً - كيف نتغلب على التعقيد البادئ على « أسباب السلوك » بحيث تسهل علينا بعد ذلك عملية « الربط » بين تلك الأسباب المعقدة من ناحية وبين السلوك من ناحية أخرى وبحيث تسهل علينا أيضاً عملية التفسير وعملية التنبؤ ووضع فروض جديدة للبحث العلمي ؟

تلك هي الأسئلة التي سنحاول أن نجيب عليها فيما يلي من الفقرات .

مشكلة التحديد - الاتجاه الإجرائي :

قلنا إن علم السلوك ، شأنه شأن أى علم آخر ، يجب أن يبحث عن الأسباب في صورة متغيرات يمكن أن تخضع للملاحظة ، وإن هذه المتغيرات هي في الواقع ظروف أو أحداث طبيعية يتعرض لها الكائن الحي ويفسر في ضوءها سلوكه الذي يعتبر هو نفسه حدثاً طبيعياً . وقد يبدو هذا المفهوم ، لما يجب أن يقوم عليه علم السلوك ، واضحاً وبسيطاً . ولكن الأمر في الواقع ليس كذلك . ذلك أن علم النفس ظل مختلطاً إلى وقت قريب جداً بالميتافيزيقا . ولذلك اختلطت مفهوماته بالمفاهيم الفلسفية الميتافيزيقية وقد ساعد

على التفكير الميتافيزيقي في علم النفس عوامل عديدة سوف نتناولها فيما بعد . وإلى جانب ذلك فإن الظاهرة السلوكية ليست بالبساطة بحيث يمكن تحديدها أو تحديد العوامل التي تؤثر فيها . لهذا كله كان من السهل جداً على علماء النفس أن يجدوا أنفسهم وقد انزلقوا في غياهب من الخلط والغموض وعدم التحديد ، سواء فيما يتعلق بموضوع بحثهم أم فيما يتعلق بالمفاهيم التفسيرية التي يستعينون بها على فهم ذلك الموضوع . ويكفي أن نستعرض أى كتاب في علم النفس الآن - فيما عدا القليل النادر - سواء منه ما كان مكتوباً باللغة العربية أم باللغات الأجنبية ، لئلا نرى ما نقصده بهذا الكلام . فمادة علم النفس مليئة بالمصطلحات والمفاهيم الغامضة أحياناً ، والتي تحتل أكثر من معنى أحياناً أخرى ، والتي لا تعنى إلا لغواً أحياناً ثالثة ، والتي لا تتم إلا على غيبات لا وجود لها في الواقع أحياناً رابعة ، وهكذا . فاصطلاحات مثل الدافع والحاجة والقدرة والاستعداد والميل والإدراك وغيرها وغيرها من المفاهيم السيكلوجية ، كل هذه لا تزال في حاجة شديدة إلى تحديد واضح ، وإلى أن تتخذ معان موضوعية ، لا معان ذاتية تعتمد على واضع النظرية وما يدين به من اتجاه في التفسير .

وقد لا تعجب لما هو حادث في علم النفس الآن إذا علمنا أن علم الطبيعة نفسه قد أصابه شيء من الخلط بين المفاهيم العلمية والمفاهيم الميتافيزيقية ، حتى أن برديمان في عام ١٩٢٨^(١) قد اضطر أن يحذر علماء الطبيعة من الوقوع في هذا قائلا :
« إننا عموماً لا نعنى بأى مفهوم شيئاً أكثر من مجموعة من الإجراءات ؛ فالمفهوم ما هو إلا مرادف لمجموعة الإجراءات التي يصدق عليها » .

والواقع أن كلام برديمان ليس فيه شيء جديد من حيث منطق العلوم . فمن المعروف في المنطق أن لكل مفهوم ما يصدق ، هو الأفراد أو الجزئيات التي يصدق عليها المفهوم . وحيث أن العلم لا يقبل موضوعاً له إلا ما يقع تحت الحواس ، لهذا كان من الواجب أن يصدق أى مفهوم يستخدم في العلم - سواء كان هذا المفهوم يعبر عن متغير تابع أم متغير مستقل - على إجراءات تجريبية معينة . ولكن الجديد في كلام برديمان هو أنه قد استهوى في ذلك الوقت عدداً من علماء النفس ذوى الاتجاهات العلمية الأصيلة ، الذين رأوا أنه إذا كان هناك مجال للتخدير من الخطأ في ميدان العلوم الطبيعية ، فإن المجال فسيح جداً في ميدان علم النفس . ففى ذلك الميدان الأخير يصعب كثيراً - للأسباب السابقة الذكر - أن نجد مفهوماً واضحاً أو مفيداً من الناحية العلمية . وعلى هذا فإنه يلزم المشتغلين في هذا الميدان أن يهتموا أشد الاهتمام بمراجعة مفاهيمهم واتخاذ اللازم نحو تطبيق ذلك المبدأ الإجراءي الذي نادى به

Bridgman, P. W.. The Logic of Modern Physics, New York, McMillan, 1928.

(١)

بردجمان وذلك لتحليص علم النفس مما علق به طوال هذه السنوات من بقايا الدانيه والتفكير الميتافيزيقي ، وكذلك لكي يضع أول حجر في البناء العلمى لهذا الفرع من المعرفة

ومن ثم بدأت الدعوة للاتجاه الإجرائى فى علم النفس على يد طولمان^(١) فى عام ١٩٣٢ عندما أصدر كتابه : « السلوك الغرضى عند الإنسان والحيوان » . ويعتبر الكتاب بحق أثراً باقياً من الآثار المنهجية الأولى فى علم النفس ، وخاصة فى التعريف . فلقد كان طولمان أول من حدد مصطلحاته - التى ابتدع الكثير منها فى هذا الكتاب - بالرجوع إلى الإجراءات التجريبية بصراحة وبوضوح .

ثم حمل نفس اللواء أيضاً علماء آخرون مثل ماك جوا McGeoch وبيورنج Boring وسيرز Sears وكانتور Kantor وسكنر Skinner . وأصبح هذا هو الاتجاه السائد الآن فى علم النفس الحديث .

على أن انتشار المبدأ الإجرائى فى تحديد المفاهيم لا يعنى أنه قد أثر فى التفكير السيكلوجى بالشكل المطلوب ، أو على الأقل بالمعنى الذى كان يقصده بردجمان فى الطبيعة أو طولمان مثلاً فى علم النفس . فلقد كان لحداثة المبدأ ومكانته واحترامه العلميين ، من الجاذبية ما دعا الكثيرين إلى « استغلاله » لا عن معرفة وتمييز ، بل لمجرد التقليد واستيفاء لمسوغات شكلية بحتة . فلقد أصبحنا نرى عبارات مثل « التحديد الإجرائى » أو « التعريف الإجرائى » تسند إلى تعريفات لا تمت إلى الإجرائية بأية صلة . وكأنى بالمولف أو الباحث الذى يريد أن يحدد مصطلحاته بطريقة علمية يظن أنه سوف يستطيع أن يحقق شرط المبدأ الإجرائى بمجرد إعلان حسن نية . ولعل هذا كله يرجع إلى صعوبة تكوين الاتجاه الإجرائى نفسه فى تحديد المفاهيم أو فكرة المبدأ الإجرائى فى التحديد وسنحاول فيما يلى توضيح هذه الفكرة

إن العلم هو مجموعة من القوانين يتفق أفراد المجتمع على أنها صادقة . ومحك الصدقة ، كما سبق أن قلنا ، هو التجربة وليس هو رأى الفرد . وإذن فالعلم ومادته ليست نشاطاً فردياً ولكنه نشاط اجتماعى لغوى . والخبرات المتضمنة فى العلم لذلك لا بد أن تكون خبرات موضوعية وليست خبرات ذاتية . فإذا كانت هذه المقدمات صحيحة كان معنى ذلك أن القضايا التى يمكن أن نقلبها فى العلم هى القضايا التى تقرر حقائق متعلقة بإجراءات يمكن أن نشاهدها مشاهدة علنية كما يمكن أن نعيدها وأن نكررها كلما أردنا ذلك .

Tolman, E. C. Purposive Behavior in Animal and Men, New York, Appleton Century, 1932.

(١)

ويصدق هذا الكلام على علم النفس ، فعلم النفس لا يقبل مادة له إلا ما كان يقع تحت الملاحظة ، وما كانت ملاحظته قابلة لأن يشترك فيها أكثر من فرد ، بما في ذلك تلك الملاحظات التي قد يقوم بها العالم النفسى على نفسه .

فإذا كانت القضايا التي نقبلها في العلم هي القضايا التي يمكن تحقيقها عن طريق إجراءات معينة يمكن القيام بها عند الطلب ، فإن الحدود التي تتكون منها هذه القضايا يجب أيضاً أن تصدق على ملاحظات عينية أو مشاهدات موضوعية ، وإلا لما أمكننا التحقق من صحة قضاياها .

ولكى يتحقق هذا كله فإن الطريقة المثلى هي أن نعرف حدودنا أو مصطلحاتنا أو متغيراتها أو مفهوماتنا « تعريفاً إجرائياً » فالمتغيرات التي يقوم عليها بحثنا سواء كانت متغيرات تابعة أم متغيرات مستقلة ، لابد أن تأخذ معنى واضحاً في ذهن كل من الباحث والقارئ والباحثين الآخرين الذين يريدون أن يتحققوا من نتائج البحث ، حتى لا يكون هناك أى خلاف على المقصود من مصطلح أو متغير مستخدم في البحث . ولكى يمكن إعادة خلق الظاهرة التي يعبر عنها ذلك المتغير ، ليس أمامنا سوى أن نعرف ذلك المتغير بالإجراءات التي تبناها في أحداث الظاهرة ، أو القياسات التي نحصل عليها بالنسبة لها . وهذا هو مفهوم التعريف الإجرائى .

فالتعريف الإجرائى إذن هو ذلك التعريف الذى يعتمد على ذكر الملاحظات التي يصدق عليها المفهوم (أو المصطلح أو المتغير) والإجراءات التي اتبعت للحصول على هذه الملاحظات وعلى اقيمتها . وبمعنى آخر فإن المصطلح (أو المفهوم أو المتغير) لا يصبح ذا قيمة من الناحية التجريبية إلا إذا حلل إلى العمليات السلوكية التي يتضمنها ، سواء كانت هذه العمليات تدل على إجراءات لإحداث الظاهرة نفسها التي يعينها المفهوم أو تدل على وسائل معينة يمكن أن نلاحظ بها الظاهرة أو نقيسها ، أو خطوات منطقية أو رياضية تقع بين هذه وتلك

ويمكن أن نضرب أمثلة مختلفة لتحديد الإجرائى للمفاهيم السلوكية حتى يتضح معنى هذا وأهميته . المثال الأول هو مثال « الدافع » . فقد نعرف الدافع إلى الطعام عند الحيوان في بحث ما مثلاً ، « بعدد الساعات التي يحرم فيها الحيوان من الطعام » . في هذا التعريف اعتمدنا على الإجراءات التي اتخذناها لكى نحصل على ظاهرة الدافع ، ولكى نحصل على قياس لها في نفس الوقت ، بما لا يترك مجالاً للاختلاف . ولكن قارن بين هذا التعريف مثلاً وبين تعريف نصف به الدافع إلى الطعام في نفس التجربة بأن نقول إنه « الشعور بالجوع » أو « القوة الدافعة التي تدفع الحيوان للبحث عن الطعام » . مثل هذه التعريفات

الأخيرة بالطبع لا تساعد بالمرّة على البحث أو التحقيق أو القياس ، مما سبق أن شُرحا إليه سابقاً ، على عكس التعريف الإجرائي

مثال آخر للتعريف الإجرائي هو تعريفنا للخوف مثلاً بأنه « استجابة متعلّمة مشتقة من الألم ، كما تظهر في تأثير جهاز الجلفانومتر (أو أى مظهر آخر نختاره نحن ونحدد طريقة قياسه أو تسجيله) » بهذا الشكل نستطيع أن نخلق استجابة الخوف وندرس علاقاتها بالظروف المختلفة باعتبارها ظاهرة محدّدة واضحة لا تختلف عليها . ويمكننا أن نفعل ذلك سواء أخذنا الخوف كمتغير تابع لندرس علاقاته بالمتغيرات المستقلة أو أخذناه كمتغير مستقل ثم درسنا أثره في متغيرات تابعة أخرى .

مثال ثالث هو تعريفنا للإدراك بأنه « المعنى أو التفسير الذى يعطيه الكائن الحى للظواهر الطبيعية المحيطة به ، كما يبدو ذلك فى استجاباته التمييزية لهذه الظواهر ، سواء عن طريق اللفظ أم عن طريق الاستجابة الظاهرية » . بهذا المعنى يمكن أن نقيس الإدراك وأن نلاحظه ملاحظة موضوعية عن طريق الاستجابات التمييزية ، سواء فى ذلك الاستجابات اللفظية ، كأن يقول الشخص « هنا دكان مثلاً » ، أو الاستجابات الظاهرية الأخرى كأن يسلك الشخص بشكل مختلف أو بشكل متماثل نحو موقفين مثيرين . ففى الحالة الأولى أى فى حالة الاستجابة بشكل متماثل نحو موقفين مثيرين ، يمكن أن نقول أن الشخص يدرك هذين الموقفين إدراكاً متماثلاً ، وإذا استجاب نحوهما استجابتين مختلفتين ، فإننا نقول عندئذ إنه يدركهما إدراكاً مختلفاً ، وبهذا الشكل أيضاً يمكننا أن نخلق ظاهرة الإدراك وأن نحصل على قياسات مختلفة لها وأن نتحقق من التجارب التى أجريت عليها .. الخ .

أما إذا قلنا مثلاً « إن الإدراك هو الوعى بالأشياء الخارجية ... » أو « الوعى بالآثار المباشرة التى تقع على الحواس » أو « و عملية تكامل عقلية معقدة أساسها الخبرات الحسية المباشرة » ، فإن مثل هذه التعريفات لا تفيدنا فى شئ من حيث الدراسة العلمية وأهدافها ، أو من حيث موضوعية هذه الدراسة ، كما سبق أن أشرنا .

بهذا الشكل يمكننا أن ندرس الظواهر السلوكية ، وكذلك العوامل المسئولة عنها ، دراسة علمية موضوعية . بل إن دراسة السلوك وإقامة علم بحق فى هذا الميدان لا يتأتى إلا عن هذا الطريق . فإذا قلنا مثلاً إن شخصية الفرد هى محصلة لتفاعله مع القوى الاجتماعية والثقافية المحيطة به ، فإننا لا يمكن أن نحقق مثل هذه العبارة ، أو أن نعرف على وجه التحديد كيف يحدث ذلك ، ما لم نعرف أولاً الشخصية بطريقة إجرائية ، وما لم نعرف ثانياً وبنفس الطريقة ما هى « القوى الاجتماعية » و « الثقافية » الخ ولا يتأتى لنا الحصول على قياسات لهذه

المتغيرات إلا إذا وصفناها بعبارات سلوكية كما سبق أن رأينا ، أى إلا إذا حددنا أولاً كيف يمكننا ملاحظتها ملاحظة موضوعية .

حيث نستطيع أن نستفيد نظرياً وعملياً . فإذا كانت « القوى الاجتماعية » مؤثرة فعلاً في شخصية الفرد ، فإننا لا نستطيع من هذه الحقيقة في سبيل توجيه هذا التأثير أو التحكم فيه في الاتجاه الذى نريده ، إلا إذا استطعنا أولاً أن نتناول هذه القوى بالتغيير والتعديل . ونحن لا نستطيع أن نتناول شيئاً ما لم يكن يقبل الملاحظة وما لم تكن له أبعاد طبيعية . لهذا كان لابد لنا من تحديد الأحداث الطبيعية التى يصدق عليها مفهوم ما ، قبل أن نقول إن مثل هذا المفهوم مفيد في إقامة أى علم أو معرفة علمية . وتحديد الأحداث الطبيعية التى يصدق عليها المفهوم ، هو ما نقصده بالتعريف الإجرائى .

وقد يعترض البعض على التعريف الإجرائى بأنه يقتصر على ذكر الأقيسة المباشرة للظاهرة النفسية دون أن يهتم بصدق هذه الأقيسة من عدم صدقها ، أى بما إذا كانت هذه الأقيسة تعبر فعلاً عن العمليات المقصودة بالظاهرة أو المتضمنة فيها^(١) . وليس هذا قصوراً في المفهوم الإجرائى نفسه بل هو قصور في الشخص الذى يستخدمه . فالتعريف الإجرائى معناه تحديد المفهوم أو المتغير عن طريق ذكر العمليات أو الإجراءات أو الملاحظات التجريبية التى يصدق عليها . وقد يكون المفهوم المراد تحديده مركباً بحيث يحتاج تحديده إلى تحليل لإجرائى أولاً للعمليات الأكثر بساطة ، التى يتضمنها ذلك المركب . وقد نختلف فيما بيننا على ذلك التحليل ، أى قد نختلف على العمليات الأبسط التى تتربط منها العملية المركبة ، والتى نريد في النهاية أن نردها إليها . وعندئذ لابد ، للوصول إلى اتفاق ، من أن نشير إلى مقاييس أو جزئيات عينية : فنقول مثلاً « هذا هو ما نقصده بكنا ... » أو كما يظهر ذلك في كنا ... أو كما تقيسه مقاييس كنا ... » وهكذا . والواقع أن الإشارة إلى أمثلة عينية هى أكثر الإجراءات أولية . ونحن لا نلجأ إليها إلا عندما يتعذر علينا الاتفاق على الخطوات السابقة لذلك . ولكننا غالباً ما نصل إلى اتفاق قبل أن نلجأ إلى هذه العملية الأولية . ولذلك فإن اللجوء إلى ذكر القياسات أو الأمثلة العينية مباشرة ، ودون أن يسبق ذلك ذكر الإجراءات أو الملاحظات العامة التى ينطبق عليها المفهوم ، هو كما سبق أن قلنا قصور من القائم بالتعريف الإجرائى وليس قصوراً في المفهوم ذاته .

فتعريف الذكاء مثلاً بأنه « ما تقيسه اختبارات الذكاء » ، مثل من أمثلة التعريفات

(١) انظر كتاب نؤاد البهى السيد الذكاء ، دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٥٩ ،
(ص ١٤٣ - ١٤٥)

الإجرائية التي تقتصر على ذكر قياس الظاهره مباشره . دون تحديد للعمليات التي يصدق عليها ذلك القياس . ومعنى ذلك أن أى فرد يمكنه أن يجمع بعض الأسئلة وينشئ منها اختباراً ثم يقرر أن هذا الاختبار يقيس الذكاء . وأن الذكاء هو ما يقيسه هذا الاختبار . وبذلك فإن التعريف لا يعيدنا في تحديد الظاهرة التي سمينا بالذكاء أو في دراستها

والقصور البادى هنا ليس في الواقع نتيجة مترسقه على المفهوم الإجرائى نفسه ، بل هو كما سبق أن قلنا نتيجة لسوء استخدام هذا المفهوم . فمن المعروف أن اختبارات الذكاء تقوم على مفهومات معينة للعمليات الأبسط التي يمكن أن نرد إليها المفهوم المركب التي نطلق عليها كلمة ذكاء . ويعبر عن ذلك التحليل الإجرائى ما يتخذ في سبيل وضع اختبارات الذكاء نفسها . فاختبارات الذكاء تعبر عن مواقف تتضمن مشكلات . وهذه المشكلات يتطلب حلها إدراك علاقات معينة بين جزئيات الموقف المشكل ، أو القيلم بنشاط معرفى معين . وهذه المشكلات منها اللغوى ومنها العدى ومنها المنطقى ... الخ . وقد يتطلب وضع اختبار الذكاء إجراء آخر ، هو ألا تكون المواقف مما سبق أن تعلمه الفرد أو تلقى فيه تدريباً خاصاً ... وهكذا . كل هذه الإجراءات لابد أن تذكر في تعريف الذكاء تعريفاً إجرائياً ، ولو اقتضى الأمر أن نتناول الواحدة بعد الأخرى في سلسلة من التعريفات الإجرائية ، حتى ينتهى الأمر بالإشارة إلى المقياس . فيقال مثلاً « أعنى بالذكاء محصلة الاختبارات التي تقيس قدرة الفرد (أى مكانة أو مركزه بالنسبة لغيره) من حيث إدراك العلاقات والمتعلقات في مواقف جديدة نسبياً وفي المجالات المختلفة التي يمكن أن تظهر فيها هذه العلاقات الخ » .

وهناك اعتراض آخر مترتب على هذا الاعتراض السابق ومؤداه أن اعتماد التعريفات الإجرائية على خطوات القياس قد يجعل تعريف المفهوم الواحد يتعدد بتعدد أنواع المقاييس التي قد تؤخذ له . والآن وقد رأينا أن التعريف الإجرائى ليس معناه اختبار أى مقياس دون ما قيد أو شرط ، فقد أصبح هذا الاعتراض غير ذى موضوع . ذلك أن طريقة القياس تعتمد بالطبع على تحليل المفهوم إلى العمليات أو الإجراءات البسيطة التي يمكن ردها إليها . وعلى ذلك فإن المظاهر المقيسة من السلوك الذى يعبر عنه المفهوم ، يكون متفقاً عليها سابقاً . ولا يعنى تعدد القياسات عندئذ أننا قد أصبحنا أمام أكثر من ظاهرة . فليس معنى قياس الطول مرة بالبوصات ومرة بالسنتيمترات أننا قد أصبحنا أمام أكثر من مفهوم للطول ، إذا كنا قد اصطللنا على الطول بأنه أحد أبعاد الامتداد في المكان ، وإذا كان القياس بعد ذلك يمكن تحويله من وحدة إلى أخرى . كذلك الأمر فيما يتعلق بالذكاء . فإذا كانت العمليات التي تتدخل في تكوين مفهوم الذكاء محددة عن طريق ملاحظات أخرى غير قياسية كانت المقاييس عندئذ عملية خاضعة لهذه الملاحظات وليس العكس . وكان تعدد المقاييس بالتالى لا يعنى تعدد المفاهيم

وقد تنشأ الاعتراضات على الاتجاه الإجرائى كنتيجة لسوء فهم هذا الاتجاه ، أو الميل البعض إلى العموض وعدم التحديد . أو للخلط بين العلم من ناحية وبين أنواع المعرفة الأخرى من ناحية ثانية ، كالأدب أو الفن أو غير ذلك . فهناك اتجاه علم فى العلوم الاجتماعية كالتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها ، نحو إثارة أسئلة أو مشكلات عامة على درجة كبيرة من الأهمية من الناحية العلمية. ولكن قبل أن نحلل إجرائياً ما تنطوى عليه مثل هذه المشكلات من مفهومات ، فإننا نسارع بإقامة النظريات ، وبناء وجهات النظر ، التى لا تتضمن أخيراً سوى ألفاظ لا مدلول لها ولا قيمة من الناحية العملية . فقد يكون من أهدافنا الاجتماعية مثلاً « بناء جيل صالح من الشباب » أو « أن نغير تنظيم قيمنا بما يتناسب مع التغير الثقافى » ... وقد يكون من أهدافنا التربوية مثلاً « أن نحقق المدرسة وظيفتها باعتبارها حلقة لربط الماضى بالمستقبل » أو « أن نجعل من المدرسة مركز إشعاع فى البيئة » . وقد يكون من أهدافنا السيكولوجية « أن نحقق تكامل الفرد » ، أو « أن نغير بناء الشخصية » أو « أن نساعد على إحداث الاتزان أو التوافق » كل هذه مشكلات تنشأ بالطبع من مواقف الحياة اليومية . ولكننا لا يمكن أن نتناولها بطريقة مجدية ، ما لم نحلل المفهومات التى تتضمنها تحليلاً يوضح لنا ما تنطوى عليه من عمليات ، وما نقصده منها ، بعبارة تجريبية . وبدون ذلك فإننا لن نصل فى علاجنا مثل هذه المشكلات إلا إلى ألفاظ وعبارات لغوية قد تحفظ وتودد دون أن « تصرف » أو « تفك » إلى إجراءات عملية مفيدة . ولاشك أن هذا الاتجاه فى صياغة مشكلاتنا السلوكية بطريقة « فلسفية نظرية » ، له أصوله فى التراث القديم للتفكير الميتافيزيقى ولكنه لا يزال سائداً فى المدارس الفكرية التقليدية حتى الآن .

ولعل هذا هو السبب فى صعوبة التغير ، حتى ولو كان التغير فى الاتجاه الأكثر جدوى والأكثر نفعاً . على أننا يجب أن نقرر بصراحة ، فى نفس الوقت ، أنه لا يرجى لعلم النفس بوجه خاص ، وللعلوم الاجتماعية بوجه عام ، أى تقدم ما لم تعاد صياغة مثل هذه المشكلات ، أو على الأقل تستكمل أسئلة أكثر تحديداً وعبارة أكثر تخصصاً ، وبأهداف أكثر عملية . عندئذ فقط يمكن أن نلاحظ وأن نجرب وأن نحقق وأن نصل إلى نتائج عملية . وعندئذ فقط يصبح لتعميماتنا أساس من المعرفة الواقعية ، وتصبح نظرياتنا مقامة على أساس متين من الحقائق التجريبية .

ثمّة عامل آخر من العوامل التى تساعد على قيام الاعتراض على الاتجاه الإجرائى ، هو الرغبة فى الوصول إلى حلول سريعة للمشكلات العلمية الملحة ، مع تمييز بعض علماء النفس إلى الاتجاه الأدنى أو الفنى فى معالجة الأمور ، وليس إلى الاتجاه العلمى . ويبدو أن الكثير من غي ذوى الاتجاه العلمى فى علم النفس قد جذبتهم إلى هذا الفرع من المعرفة فكرة

خاططة ، هى أن علم النفس أحد فروع الأدب ، وليس أحد فروع العلم . ونود أن نؤكد هنا أنه ليس فى هذا الكلام أى تقليل من شأن الآداب أو الفنون . ولكن للأدب والفن أهداف وأسلوب ومنهج ، وللعلم أهداف وأسلوب ومنهج مغاير . ففى حين أن العلم يعتمد على الواقع وعلى الملاحظات التجريبية الموضوعية نجد أن الأدب يتجاوز عن الواقع الموضوعى ويتخذ من الذوق والانطباعات الذاتية أساساً له فى التعبير . والتصوير الأدبى فى ذاته له قيمة عليا فى المجتمع . ولكن أن نخلط العلم بالأدب فهذا هو الذى لا يحقق لنا أهداف أى منهما .

وقد يعترض البعض على الاتجاه الإجرائى لأنه يتطلب جهداً وعناء كبيرين ، ففى كل صغيرة وكبيرة نسأل ماذا نقصد بكذا وماذا نقصد بكيت ، وهكذا بشكل لا تبدو له نهاية . ولعل الإجابة على مثل هذا الاعتراض تصبح فى ضوء المناقشة السابقة سهلة وبسيطة . ذلك أن العيب هنا ليس عيب الاتجاه الإجرائى ، ولكنه عيب الشخص الذى يصوغ المشكلة . فمعظم المشكلات يصاغ من البداية بطريقة غير إجرائية . وهنا بلاشك مما يصعب الأمور . ولكن إذا كان لنا أن نصل إلى أى تقدم علمى فيما يتعلق بمثل هذه المشكلات ، فلا بد أن نعيد صياغتها أولاً بطريقة إجرائية مهما كلفنا هذا من جهد ومهما بذلنا فيه من عناء . والواقع أننا إذا أدركنا الهدف من مثل هذه الصياغة بوضوح ، لما شعرنا بأى جهد أو أى عناء . ولكن يبدو أن بعض الباحثين لا يدركون تماماً مدى الحاجة إلى التحديد الإجرائى فى سبيل تحقيق أهداف العلم . وإذا لم يكن هناك دافع إلى النشاط ، أى كان نوعه ، فإنه يبدو شاقاً ومجهداً بطبيعة الأمر .

وقد « يقلوم » البعض الاتجاه الإجرائى متنبهاً إياه بأنه « سلوك قهرى » ، أى أن الاتجاه بأكمله اتجاه مرضى . ولعل هذا الاعتراض أقرب إلى المزاح منه إلى الجد . فمن المعروف أن السلوك المرضى سلوك هدام وليس سلوكاً بناءً . والاتجاه الإجرائى يحقق أهداف العلم . وأهداف العلم أهداف بناءة وليست هدامة . فالاتجاه الإجرائى هو الذى يسمح للعلم بتحقيق الفروض وهو الذى يجعل للعلم صفته الموضوعية . فهو الذى يمكننا من الاشتراك فى الملاحظة والاتفاق على النتائج . وبدون ذلك فإن الحقيقة التى نصل إليها تصبح حقيقة ذاتية ويصبح اتجاهنا فى المعرفة اتجاهات تسلطياً وليس اتجاهات ديمقراطياً . فطالما أن الحقيقة ذاتية لا تصبح هناك وسيلة إلى تحقيقها أو نقلها إلى الآخرين ، وإما أن نقبلها أو نرفضها . ويتوقف الأمر بالطبع عندئذ على معايير وأوضاع غير ديمقراطية وغير موضوعية فى المعرفة .

ويظهر أن أصحاب هذا الاعتراض هم أنفسهم لا يتقبلون التحديد ، لما قد يكون فى موقف التحديد الموضوعى من التزامات لا قبل لهم بها ، لا من الناحية العقلية ولا من الناحية المزاجية . والواقع أن الاتجاه الإجرائى لا يقصد إلا إلى جعل الأساس التجريبى أو العينى لأى

مفهوم واضحاً بقدر الإمكان . فإذا ما سلطت الأضواء التي ترمى إلى الكشف عن مدى تحقيق هذا الشرط في أى مفهوم من المفاهيم الغيبية الغامضة ، فإن الموقف سيتكشف بالطبع عن عوز كبير في عدم الوضوح . وسوف يبدو هذا العوز من الضخامة بدرجة تثير الإحراج . وفي مثل هذه الحالات غالباً ما تستثار عند صاحب مثل هذه المفاهيم الغامضة انفعالات قوية ضد الوسيلة التي تكشف عن عجزه ونقصه . وهذا هو أساس المقاومة .

وأخيراً فإننا نستطيع أن نلخص المناقشة السابقة بأن تؤكد أن أى مفهوم مفيد في علم النفس يجب أن يكون مشتقاً من وقائع ملاحظة . وأنا إذا فشلنا في إخضاع جميع المفاهيم لعملية نقدية إجرائية نستطيع أن نتحقق بها من مدى صدق أو صحة المفهوم ، فإننا بالتالي لن نصل إلى تحقيق أى هدف علمي أو إلى السير أى خطوة أخرى من خطوات بناء نظرية مفيدة صالحة . وقد يكون هذا هو ما ترمى إليه الاتجاهات غير العلمية .

مشكلة التفسير - المتغيرات الوسيطة :

والآن ، بعد أن قمنا بتحديد طبيعة متغيراتنا الرئيسية : متغيرنا التابع وهو السلوك ، ومتغيراتنا المستقلة وهي الظروف أو الأحداث التي يعتبر السلوك محصلة لها ، وبعد أو وضعنا الأساس المنطقي لطريقة تحديد هذه المتغيرات ، وهو الاتجاه ، الإجرائي ، يبقى علينا أن نعرف كيف نقيم العلاقة بين متغيرنا التابع ، من ناحية وبين المتغيرات المستقلة المسؤولة عنه ، من ناحية أخرى . ذلك أن العلم هو مجموعة من القوانين يتطلب وضعها تصور علاقة معينة من مجموعتين من المتغيرات . فكيف نتصور هذه العلاقة ؟ وما هي الأساليب المنطقية التي تساعدنا على تصور سليم ؟

الواقع أن مشكلة إقامة علاقات معينة بين مجموعتين من المتغيرات هي مشكلة التفسير . ولقد رأينا كيف سار علم النفس في طرق ومناهج مختلفة كانت ، فيما تناولناه حتى الآن ، أقصر من أن تحقق أهداف العلم أو تستوفي شروطه . والواقع أن ما تناولناه حتى الآن من نظريات في تفسير السلوك ، لم يكن يعتمد على إيجاد علاقة بين متغيرات مستقلة ، بالمعنى الذي سبق أن حددناه ، وبين السلوك . بل كان يخلط بين الغيبيات وبين المتغيرات المستقلة من ناحية ، أو بين المتغيرات التابعة والمتغيرات المستقلة من ناحية أخرى . أو بمعنى آخر كانت المفاهيم التفسيرية التي تعتمد عليها تلك النظريات لا ترتكز أساساً على مادة من الملاحظات التجريبية ، مستقلة عن الظاهرة المراد تفسيرها . حقاً إننا لا نستطيع أن نقتصر في إقامة العلم على مجرد الملاحظات التجريبية المباشرة ، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نتغاضى عن هذه الملاحظات ، أو نلقها جانباً ، ثم نصوغ من عندنا مفاهيم لا يمكن

أن تترجم إلى أحداث ذات أبعاد طبيعية

إن القياس التجريبي أو الملاحظة التجريبية المباشرة ، هي الأساس الذى يعتمد عليه العلم الطبيعى ، إلا أننا لا نستطيع أن نصل دائماً إلى حلول للقضايا العلمية ببساطة عن طريق الملاحظة والقياس المباشر . فكثيراً ما يبدو ارتباط الظواهر بالمتغيرات التى تقع تحت ملاحظتنا المباشرة بعيداً وواهماً ، إلى الحد الذى لا يسمح لنا بالاعتماد على الملاحظة المباشرة فحسب . وإلى جانب ذلك فإن هناك مشكلات تتعلق بالربط بين ظواهر لا يبدو بينها ارتباط ما . مثل هذه المشكلات أيضاً لا يمكن حلها عن طريق الملاحظة المباشرة ، أو اعتماداً على الناحية الوضعية في العلم فحسب .

من أجل هذا قامت النظريات التفسيرية في العلوم الطبيعية الحديثة . ومن أجل هذا كان لابد في وضع النظريات من استخدام عناصر تصورية يمكننا عن طريقها أن نستكمل النقص البادى ، سواء في طبيعة العلاقات بين الظواهر أو في المتغيرات التى تقع تحت الملاحظة المباشرة ، والتي لا تكفى وحدها للتفسير . إلا أننا في نفس الوقت الذى نستخدم فيه هذه العناصر التصورية نضع نصب أعيننا أهدافاً معينة . نضع نصب أعيننا أن يساعد التفسير النظرى الذى نضعه على التنبؤ بالظاهرة التى ندرسها ، وعلى التحكم فيها . ونضع نصب أعيننا كذلك المحافظة على موضوعية العلم ، وإمكانية تحقيق ما نضع من فروض أو نظريات . ونضعه نصب أعيننا أيضاً فتح باب البحث العلمى وليس إغلاقه . كل هذه أهداف يجب أن نضعها نصب أعيننا ونحن نستخدم المفاهيم النظرية التى تعاوننا على التفسير . كيف إذن يكون شكل المفاهيم التفسيرية أو العناصر التصورية التى نقيم عليها نظريتنا ، وما هي الشروط التى يجب أن نتوخاها في وضعها ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال نأخذ مثلاً لنموذج معين من نماذج السلوك لنستعين به في توضيح ما نقول .

لتفرض أننا لاحظنا أن سلوك الناس يختلف عند مواجهتهم للسلطة ، فبعضهم « يخاف » وبعضهم « يخنع ويستضعف » وبعضهم يبدى مظاهر « الإخلاص والوفاء » وبعضهم يسلك سلوكاً « عدوانياً » وبعضهم يسلك سلوكاً « متزناً » الخ ... ، ثم أردنا أن نفسر هذا الاختلاف . فماذا نجد ؟ إن نظرية الأنماط قد تستعين بمفهوم الأنماط الموروثة في التفسير ، فتقرر أن « السبب » هو « النمط » الذى تنتمى إليه كل مجموعة من هؤلاء الناس^(١) . وقد تقرر نظرية القرائن مثلاً أن السبب هو الاختلاف في قوة القرائن التى تكمن

(١) انظر الفصل السادس .

وراء كل نموذج من هذه النماذج السلوكية^(١) . فمن كانت عنده غريزة الخوف أكبر من غيرها يخاف وهكذا ... وقد تعزو نظريات أخرى هذا الاختلاف إلى درجة « النضج » أو « الاستعداد الموروث »^(٢) . وقد تعزو النظرية المجالية^(٣) هذا الاختلاف إلى اختلاف في الإدراك . فالذى يخاف يدرك السلطة كشئ مهدد ، والذى يعتدى يدركها كمنافس ، والذى يسلك سلوكاً متزاناً يدرك فيها المسألة أو الصداقة وهكذا .

مثل هذه التفسيرات تناولناها جميعاً بالنقد من حيث استخدامها مفهومات لا تؤدي بنا إلى تحقيق أهداف العلم أو الالتزام بمسلماته ، ومن حيث أنها لا تضع أيدينا على متغيرات قابلة للملاحظة ، وبالتالي للتناول بالتغيير والتعديل ، إذا ما أردنا أن نحقق ضبطاً في الظاهرة السلوكية التابعة لها . وقلنا إن التفسير الذى يحقق لنا هذه الأهداف جميعاً هو ذلك الذى يحدد المتغيرات المستقلة في صورة أحداث أو حوادث طبيعية تعرض لها الكائن الحى في تاريخه القريب أو البعيد ، وضرربنا لذلك مثلاً بشرب كوب من الماء .

على أنه غالباً ما تكون الأحداث أو الظروف التى تعرض لها الفرد في ماضيه القريب أو البعيد ، والتى كانت « سبباً » في سلوكه على هذا النحو أو ذاك (شرب كوب من الماء أو التصرف بشكل معين في وجود السلطة الخ ...) ، غالباً ما تكون على درجة كبيرة جداً من التعقيد ، فهى تشمل معلومات كثيرة جداً عن تاريخ التفاعل بين الفرد وبين أفراد مجتمعه الآخرين . فتشمل ظروفه إبتداءً من الميلاد حتى اللحظة التى نريد فيها أن نفسر سلوكه ، وما يحيط به في هذه اللحظة من ظروف . تشمل علاقاته الاجتماعية وخاصة بالناس الذين يشبهون السلطة مثلاً ، وتشمل علاقاته الإنسانية الأخرى في الثقافة التى يعيش فيها . وتشمل نظم الثواب والعقاب التى تعرض لها وتشمل الفروق بينه وبين أفراد المجتمع الآخرين ... وهكذا . وليس هذا على سبيل الحصر ، بل نريد أن نشير هنا فقط إلى أن هذه المتغيرات على درجة كبيرة جداً من التعقيد والتعدد والتداخل .

ليس هذا فقط ، بل أن طبيعة العلاقة بين هذه المتغيرات وبين الظاهرة السلوكية تزيد في هذه الدرجة من التعقيد إلى أبعد الحدود . ذلك أن السلوك ، كما سبق أن قلنا ظاهرة ديناميكية ، أى تتشكل وتتعدل بناء على تفاعل ديناميكى بين الكائن الحى وبيئته . ومعنى ذلك أن تفسير الظاهرة السلوكية لا يتأتى بناء على مجرد معرفة الظروف والمتغيرات المستقلة

(١) انظر الفصل السابع .

(٢) انظر الفصل الثامن .

(٣) انظر الفصل التاسع .

وحصرها ، ثم استنتاج الظاهرة السلوكية بعد ذلك كما نستنتج كمية رياضية من مجرد إضافات حسابية بسيطة . بل إن مهمة العالم النفساني هي أن يكتشف بدقة طبيعية العلاقات التي تربط بين مجموعة من المتغيرات المستقلة ، وهي ما أشرنا إليه من ظروف وأحداث ، وبين المتغيرات التابعة وهي مظاهر السلوك المختلفة فلا يكفي أن نعرف فقط أن الاستجابة (س) هي محصلة للمتغيرات المستقلة م ١ ٢ ٣ ٤ ؛ الخ . بل يجب أن نعرف أيضا كيف أن هذه

الاستجابة هي محصلة لهذه المتغيرات ، أى ما هو نوع العلاقة الوظيفية بين هذين النوعين من المتغيرات على وجه التحديد . ولكن في موقف ، كهذا يبلغ فيه عدد المتغيرات المستقلة هذا الحد من الكثرة ومن التداخل ، فإن العلاقة الوظيفية بين المتغيرات المستقلة والمتغير التابع تبلغ حداً من التعقيد يصعب معه تصورها مباشرة ، أى عن طريق عملية إدراكية واحدة . وبمعنى آخر فإننا قد لا نستطيع أن نشمل بتصورنا جميع المتغيرات المستقلة المسؤولة عن حدث سلوكي ما ، في ارتباطها بهذا الحدث ، في علاقة واحدة مباشرة . فما هو الحل إذن؟

يجب كل من طولمان^(١) وهل^(٢) بأن حل هذه المشكلة لا يتأتى إلا عن طريق تجزئة هذه العلاقة المعقدة إلى مجموعات متتابعة مترابطة من العلاقات الوظيفية الأكثر بساطة ، والتي يتكون منها ومن العلاقات بينها في النهاية تصورها الشامل للعلاقة الوظيفية الكلية المعقدة . وبمعنى آخر فلنكنيسهل علينا تصور هذه العلاقة المعقدة بين السلوك من ناحية ، وبين المتغيرات المستقلة المسؤولة عنه من ناحية أخرى ، فإننا نوسط في عملية التصور هذه مفهومات يعبر كل منها عن علاقة بين مجموعة من هذه المتغيرات المستقلة وبين السلوك ، ونظّل ننتزج في إقامة علاقات بين هذه المفهومات نفسها بعضها وبعض ، حتى نصل في النهاية إلى تصور العلاقة الكلية التي تربط بين السلوك وبين المتغيرات المسؤولة عنه ، عن طريق هذا البناء التصوري المتدرج . ولقد أطلق طولمان إسم « المتغير الوسيط » (و) على ذلك المفهوم الذي يعبر لنا عن علاقة بين مجموعة من الظروف المستقلة من ناحية ، وبين السلوك من ناحية أخرى . أو بعبارة أخرى ، يعبر المتغير الوسيط عن تصورها لأثر أو نتيجة مجموعة من الأحداث التي يتعرض لها الكائن الحي ، في سلوكه ، إذا ما توصلنا تثبيت جميع المتغيرات الأخرى أو استبعاد أثرها مؤقتاً على هذا السلوك . وتكون المتغيرات الوسيطة على هذا النحو مجموعة العلاقات التي تهبط بين المتغيرات المستقلة من ناحية والسلوك من ناحية أخرى ، والتي ترتبط هي الأخرى فيما بينها بمجموعة من العلاقات

Tolman, E.C.. The Intervening variable (In Marx Psychological Theory), The
McMillan Co., New York 1951.

(١)

Hull, C . Principles of Behavior. New York, Appleton Century, New York, 1943.

(٢)

الأكثر تجهداً ، بحيث يتكون من جميع هذه العلاقات المتداخلة في النهاية ، البناء النظري الذي يفسر لنا العلاقة المعقدة بين موقف ما مثير من ناحية وبين السلوك نحو هذا الموقف من ناحية أخرى فبدلاً من أن نقول أن الإستجابة س هي محصلة للمتغيرات المستقلة ١٢ ، ٢٢ ، ٣٢ .. الى آخره ، فإننا ندخل أو نوسط مجموعة من المتغيرات الوسيطة ١ ، ٢ ، ٣ .. الخ ونتصور مجموعة من العلاقات التي تربط هذه المتغيرات الواحدة بعد الأخرى بالمتغيرات المستقلة من ناحية ، ثم مجموعة أخرى من العلاقات التي تربطها هي نفسها بعضها ببعض ، ثم في النهاية مجموعة أخرى من العلاقات التي تربطها بالمتغير التابع وهو السلوك . كل هذا في نظام متسق منطقي محكم يتناسب مع طبيعة الظاهرة السلوكية .

المتغيرات الوسيطة إذن هي الوسيلة المنطقية التي نستعين بها على بناء نظرية سليمة في تفسير السلوك ، نظرية يمكننا عن طريقها أن نتنبأ بالسلوك وأن نتحكم فيه . والواقع أنه بالرغم من الفائدة العظمى التي يمكن أن نحققها من مفهومات من هذا النوع في بناء النظرية ، إلا أن هناك صعوبة كبيرة في صياغتها . كما أنه قد ينشأ عن ذلك أخطاء عديدة في استخدامها . ولكن الذي يقينا فعلاً من الوقوع في هذه الأخطاء هو أن نفهم بالضبط ما هي طبيعة هذه المتغيرات . فباعتبار هذه المتغيرات مفهومات تعبر عن علاقات بين المتغيرات بين المتغيرات المستقلة من ناحية وبين السلوك من ناحية أخرى ، لنا يجب أن تكون هذه المفهومات مرتبطة ارتباطاً منطقياً سليماً بكلتا هذين الطرفين . فيجب أن تكون من ناحية مرتكزة إلى مجموعة من الإجراءات أو العمليات التجريبية القابلة للملاحظة والتي تمثل مقدمات سببية ضرورية للسلوك ، ومن ناحية أخرى يجب أن تكون مرتبطة بظاهرة سلوكية تمثل النتيجة اللازمة لهذه المقدمات . ذلك أن هذه المتغيرات ليست سوى مفهومات تلخص لنا نتائج تفاعلات سابقة بين الكائن الحي وبيئته .

والمتغيرات الوسيطة ليست عمليات تنوسط زماناً بين الموقف المثير من ناحية وبين الاستجابة من ناحية أخرى ، كما قد يظن في بعض الأحيان . كذلك فإن المتغيرات الوسيطة ليست عبارة عن عمليات فسيولوجية داخلية تنوسط مكاناً بين ظاهرتين خارجيتين (المثير والاستجابة) . فبالرغم من المضمون الفسيولوجي لبعض المصطلحات التي يعبر بها « هل » عن متغيرات الوسيطة ، إلا أنه لا يجوز أن نخطئ فنتفسر هذه المفهومات على أنها متغيرات سببية فسيولوجية . ذلك أن المتغيرات الوسيطة التي استخدمها هل لا تستمد معناها العلمي من تصور ما قد يكون لها من طبيعة فسيولوجية ، بل تستمد هذا المعنى فقط من المعادلات الرياضية التي يقدمها لنا « هل » لتعبر عن علاقة تجعل من هذه التكوينات شيئاً أشبه بالتكوينات الرياضية التي يستخدمها العالم الطبيعي في نظرياته . وإذا كان « هل » قد أضاف إلى ذلك بعض عبارات تشير إلى ما قد يكون هناك من احتمال لوجود مقابل لهذه التكوينات

في الجهاز العصبي . فإنه قد فعل ذلك فقط لإثارة نقط للبحث أمام أولئك الذين يهتمون بالربط بين السلوك من ناحية وبين العمليات الفسيولوجية المقابلة له من ناحية أخرى . ولكن المضمون الأساسي للمتغيرات الوسيطة هو أنها تعبر عن مفهومات تلخص لنا أثر أحداث ومتغيرات معينة تعرض لها الكائن الحي ، في سلوكه الظاهري الكلي . فهي بمعنى آخر تعرض بطريقة مناسبة أو ترمز بطريقة مناسبة إلى متغيرات تجريبية معقدة . فبدلاً من أن نقول مثلاً إن فرداً معيناً قد تعرض لسلوكه لعدد كذا أو كذا من مرات التدعيم ، تحت ظروف كان فيها المدعم على هذا النحو أو ذاك من الجاذبية ، وأن الوقت الذي كان ينقضي بين استجابته وحصوله على المدعم هو كذا أو كذا ... الخ ، من الظروف التي يرمز إليها مفهوم قوة العادة (وسوف نوضحه فيما بعد) ، فإننا تستبدل هذه القصة كلها بكلمة واحدة وهي أن « قوة العادة » عنده بلغت كذا أو كذا من الدرجات .

وباختصار فإن المتغيرات الوسيطة تمثّلنا بلغة مختصرة أو اختزالية تعبر عن أثر المتغيرات المستقلة في السلوك بطريقة كمية أو (كيفية) دقيقة ، بحيث نستطيع أخيراً أن نربط بين جميع المتغيرات الوسيطة في معادلة واحدة تشمل جميع الظروف المؤثرة .

ولعلنا نجد فيما وضعه « هل »^(١) من متغيرات وسيطة في نظريته أمثلة لتوضيح كل هذه المعاني . ولنتناول أحد هذه المتغيرات وهو مفهوم « قوة العادة » . إن مفهوم قوة العادة عند « هل » يعني بالضبط (إذا ما أردنا ترجمته إلى إجراءات تجريبية) : الآثار التي تترتب في السلوك على ما نحدثه من تغيرات في العوامل الأربعة الآتية : ١ - عدد مرات التدعيم ، ٢ - كمية المدعم (مقدار) ، ٣ - الوقت المنقضي بين المثير والاستجابة ، ٤ - الوقت المنقضي بين الاستجابة والتدعيم^(٢) . فإذا قمنا بتحديد المظهر السلوكي الذي يعبر عن قوة العادة ، أو بمعنى آخر ، الذي نلاحظ عن طريقة قوة العادة (ويحدد هذا المظهر بمدى احتمال صدور الاستجابة بالنسبة لموقف ما ، وبمقدار مقاومته للانطفاء أي استمرارها في الظهور دون تدعيم) ، إذا ما قمنا بهذا التحديد ، يصبح مفهوم قوة العادة مطابقاً تماماً للعوامل الأربعة السابقة الذكر . أو بمعنى آخر تصبح « قوة العادة » متوقفة تماماً على هذه المتغيرات المستقلة الأربعة .

(١) نفس المرجع .

(٢) لاستيضاح مفاهيم الانطفاء وغيرها مما يرد في هذا المثال ارجع إلى : محمد عماد الدين إسماعيل : « الشخصية والعلاج النفسي » مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ الفصل السادس . وكذلك إلى : أحمد زكي صالح : العلم أسسه ونظرياته ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ (الفصل العاشر) .

وهذا التحديد لمفهوم قوة العادة، الذى ستتخله هنا نموذجاً للمتغيرات الوسيطة، نصبح فى موقف يساعدنا على تحقيق جميع الأهداف والشروط التى يتطلبها منا أى تفسير علمى إذا ما استعنا بهذا المفهوم فى تفسير بعض مظاهر السلوك . فمن ناحية يساعدنا مثل هذا التحديد على أن نفهم بالضبط ماذا يعنيه المجرب أو واضع النظرية من مفهومات تفسيرية ، وهذا هو شرط الموضوعية فى العلم . ومن ناحية أخرى ، إذا ثبت أن مفهوماً من هذا النوع غير مطابق للإجراءات التجريبية التى تحدده ، أو بمعنى آخر غير صحيح من الناحية التجريبية ، أو غير مفيد من ناحية التطبيق العملى ، فإنه يمكن عندئذ القيام بالتعديلات اللازمة فيه لتطابق شرط الصحة الوضعية ، أى ليصبح وصفاً صحيحاً لما هو موجود فى الواقع الموضوعى . فإذا ثبت مثلاً أن قوة العادة - كما تقاس بمدى احتمال ظهور الاستجابة بالنسبة لموقف معين - لا ترتبط بالزمن الذى ينقضى بين الاستجابة وبين عملية التدعيم ، أمكن تغيير هذا العامل فى علاقته بقوة العادة أو تعديله تبعاً لما نلاحظه بالفعل فى الموقف التجريبى . مثل هذه المرونة فى المفهومات النظرية من حيث قابليتها للتعديل أو التغيير ، هى فى الواقع ميزة كبرى فى النظرية العملية ، إذ أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإمكانية الاستمرار فى البحث العلمى والوصول به إلى درجة كبيرة من الدقة . فارتكاز المفهوم التفسرى على أساس واقعى من الإجراءات التجريبية ، أو من المتغيرات المستقلة القابلة للملاحظة وللتناول ، يجعل من الممكن ليس فقط تحقيقه تجريبياً ، بل أيضاً التعبير الكمى الدقيق عن مدى صحته ، والتعبير الكمى هو آخر مراحل الدقة فى العلم .

وبالإضافة إلى ذلك فإن استخدام المتغيرات الوسيطة كمفهومات تفسيرية ، يساعدنا على التنبؤ واستخلاص الفروض العلمية ، كما يساعدنا على التحكم فى السلوك . فاستخدام مفهوم العادة بالمعنى الذى سبق تحديده مثلاً ، يساعدنا على تحديد الظروف التى تؤدي إلى تكوين العادات ، والتى تؤدي إلى انحلالها أو إحلال أخرى محلها . وبذلك نستطيع أن نتنبأ بأسباب تكوين العادات المختلفة كما نستطيع أن نتحكم فى هذا التكوين . هنا على حين أن المفهومات التفسيرية الأخرى ، من الأنواع التى سبق أن استعرضناها فى الفصول السابقة ، لا تحقق مثل هذه الأهداف .

ولنأخذ مثلاً عادة مص الأصابع عند الأطفال لنرى إلى أى حد ينطبق هذا الكلام . إن نظرية فرويد مثلاً تحاول تفسير هذه العادة باستخدام مفهوم الليبدو (الطاقة الغريزية الجنسية الموروثة) ؛ فتقرر أن هناك « دافعاً موروثاً » للقيام بعملية الامتصاص هذه ، وأن هذا « الدافع » يجعل الطفل يستشعر لذة وإشباعاً من القيام بهذه العملية بشكل فطرى . ولاشك أن النظرية على هذا النحو لا تسمح بأى تحقيق . كما أنها لا تستطيع أن تتنبأ لنا من الأطفال هو الذى تقوى عنده عادة مص الأصابع ، ومن الذى تضعف عنده هذه

العادة أو لا تنمو مطلقاً . وبالتالي لا تستطيع أن تقرر لنا كيف يمكن أن نتحكم في نمو هذه العادة عند الأطفال . ذلك أن تحقيقها لكل هذه الأهداف يعتمد على ما إذا كان مفهوم الليبدو نفسه يستند إلى متغيرات مستقلة قابلة للملاحظة ، حتى يمكن أن نشاهده فيها . والواقع أن علم الفسيولوجيا لم ينبعث حتى الآن عن وجود وجود قنوات أو أنابيب في الجهاز العصبي . مثلاً يسيل فيها سائل أو مادة إسمها الليبدو ، بحيث تتركز حول الفم ثم حول الشرج .. الخ ، كما توحي بذلك نظرية فرويد . وبدون مثل هذه المتغيرات أو الأحداث الداخلية التي يمكن ملاحظتها ورد مفهوم الليبدو إليها ، يظل الكلام على المستوى المجازي الذي لا يساعد على تحقيق أى هدف من أهداف العلم .

هنا في حين أننا ، بناء على مفهوم العادة عند « هل » يمكننا أن نقول مثلاً إنه بما أن الرضاعة في فترة الحضانة يترتب عليها دائماً الحصول على مدعم أولى (هو الطعام) ، لذا فإننا نتوقع أن تقوى استجابة المص (أى تصبح عادة قوية) ، كلما زاد تكرارها (زاد عدد مرات التدعيم) ، أى كلما طال عمر الطفل في فترة الرضاعة . ويؤدي هنا بالتالي إلى أن مص الأصابع يزداد عند الأطفال الذين يطمون فطاماً مفاجئاً في سن متأخرة نسبياً ، كبديل لاستجابة الرضاعة التي أصبحت عادة قوية نسبياً (أقوى منها عند غيرهم من الأطفال) ، وأصبحت لذلك مقاومتها للانطفاء شديدة . ويمكن أن نقوم بأبحاث لتحقيق ذلك الفرض « التنبؤ » الذي استخلصناه بمساعدة مفهوم العادة . ولقد قام كل من « سيرز » و « ويز » يبحث في هذا الاتجاه وأثبتا النتيجة المتوقعة ، وهى أنه كلما زاد سن فطام الطفل زاد اضطرابه الانفعالي ، وبذلك يلجأ إلى عملية مص الأصابع كبديل لعملية الرضاعة^(١) . وبناء على مثل هذه الأبحاث يمكن أن نتحكم في سلوك مص الأصابع فنقوم بعملية الفطام في الوقت المناسب وبالصورة المناسبة ، وهكذا ...

ولاشك أن هدف النظرية السيكلوجية هو بناء تنظيم كامل من هذه المتغيرات ، تنظيم يعيننا على استخلاص الفروض العلمية للتنبؤ بالظواهر السلوكية والتحكم فيها . ولقد وضع طولمان الإطار الخارجى لمثل هذا التنظيم ووقف عند هذا الحد . ثم جاء هل فحاول أن يصوغ

Sears & Wise (1950), Relation of Cup Feeding in Infancy and the Oral Drive,
American J. Orthopsych., 20.1,23.

(١)

انظر أيضاً : نجيب اسكندر وعماد الدين إسماعيل : الاتجاهات الوالدية في تنشئة الطفل ، دار المعرفة : القاهرة . ١٩٥٩ . الفصل السابع (وفيه أنه ليس معنى ذلك أنه لا يمكن فطام الطفل بالمرّة دون إحباط ، إذ أن هناك سناً يكون قد كون الطفل عندها عادة أخرى للحصول على الطعام ، وهى عادة المضغ ، التي تصبح من القوة بحيث يسهل على الطفل بعد ذلك التخلص من عملية المص ، أى يسهل عليه انطفائها .

فروضاً لتفسير طبيعة العلاقات الوظيفية التي تعبر عنها هذه المتغيرات . وبذلك وضع القوانين الأساسية التي تفسر السلوك البسيط عن طريق إدخال مجموعة من المتغيرات الوسيطة مثل « قوة العادة » و « الدافع » و « الكف » وغيرها . ولسنا هنا بصدد استعراض نظرية هل أو غيرها في تفسير السلوك ، ولكننا نود أن نقول فقط أنه ، إلى أن نستطيع أن نستخدم تكويناتنا الفرضية أو مفهوماتنا التفسيرية بمثل هذه الدقة التجريبية التي استخدمها هل ، فإننا لا نستطيع أن نحصل على نظرية علمية في تفسير السلوك . ذلك أن هذه الطريقة فقط هي التي تجعلنا نستطيع أن نحقق الفروض التي سوف تكون أساساً لقوانيننا ونظرياتنا ، فنقبلها أو نرفضها على أساس تجريبي . ولقد كان أكثر المجهود الذي انصرف في عمل النظريات السيكلوجية ، للأسف الشديد ، عديم الفائدة من هذه الناحية ، مما أدى إلى التعارض الشديد بين النظريات السيكلوجية الذي لا تزال نشاهده حتى الآن ، وكذلك إلى احتقار الجانِب النظري في علم النفس من بعض الأوساط العلمية الأخرى .

تصنيف المتغيرات - إطار للدراسة السلوك :

والآن وقد رأينا أن تفسيرنا للسلوك يستلزم أن نتصوره في علاقات مع مجموعة من المتغيرات الوسيطة التي تربط بينه من ناحية ، وبين مجموعة من المتغيرات المستقلة من ناحية أخرى ، فقد نريد أن نعرف ما هي الفئات التي يمكن أن نصف فيها كلا من هذين النوعين من المتغيرات ، المستقلة والوسيطة . أو بمعنى آخر ، ما هي طبيعة تلك المتغيرات ، وكيف نحددنا ؟ إن مثل هذا التصنيف لابد منه إذا أردنا أن نبدأ دراسة منهجية للسلوك ، دراسة نتبين منها القوانين التي يخضع لها السلوك ، والنظرية العامة التي تفسره .

أما فيما يتعلق بالمتغيرات المستقلة فإننا نستطيع أن نصفها فيما يلي :

١ - الموقف المثير الحالي كالكوب مثلاً في مثال شرب الماء الذي سبق أن ذكرناه ومثل السلطة في المثال الآخر ، أو غير ذلك من المواقف العديدة التي نسلِك أزاها في الحياة اليومية . والموقف المثير هو أى جزء أو تغير في جزء من البيئة المحيطة .

٢ - أنواع التدييمات السابقة التي حصل عليها الكائن الحي مقترنة باستجاباته المختلفة للمواقف المختلفة (أنواع الثواب والعقاب التي تعرض لها الكائن الحي في أثناء تفاعله مع مواقف البيئة المختلفة) . ويتضمن ذلك جدول التديم ونوع المدعّمات وما إلى ذلك من العلاقات المختلفة المتضمنة في عملية التديم .

٣ - أنواع الحرمان (الحاجات) التي يعانها الكائن الحي حالياً وما يتصل بها

من حوافز (مدعمات) حاضرة في مجاله الإدراكي (إما بشكل عيني أو بشكل رمزي) .
ومن أمثلة هذا النوع من المتغيرات المستقلة ، عدد ساعات الحرمان من الطعام ، عدد ساعات الحرمان من الجنس ، متغيرات الظروف الطبيعية من أصوات وأضواء وحرارة وغيرها مما يقع الكائن الحي تحت تأثيره حالياً أو كان يقع تحت تأثيره من فترة وجيزة . المتغيرات الفسيولوجية التي تجري في جسمه حالياً مثل نقص السكر أو نقص الوزن الخ ، الصدمات الكهربائية التي وقعت على الكائن الحي منذ لحظة وشدتها ، عدد الساعات التي قضاها الفرد في عزلة ، وغير ذلك من الإجراءات المختلفة .

أما موضوعات الحوافز (المدعمات) فتتمثل في ألوان الطعام المختلفة وموضوعات الجنس ، والحواجز والموانع التي على الكائن أن يجتازها سواء في الزمان أو المكان ، والأصدقاء والأعداء والثروات المؤلة وموضوعات الجمال ... الخ . مما يدركه الكائن الحي أو يتصوره .

٤ - الفروق الفردية سواء أكانت هذه الفروق تكوينية (أى ترجع إلى فترة التكوين الجنينية مما قد يسمى بالفروق الوراثية)^(١) أم كانت ترجع إلى التدريب المبكر جداً في حياة الفرد ، مما قد يؤثر جميعه في النتائج التي تترتب على المتغيرات الثلاثة الأولى .

أما المتغيرات الوسيطة فيمكن تصنيفها فيما يلي :

أولاً : التنظيم الإدراكي ، ويعبر عما اكتسبه الفرد من « معان » و « مفهومات » عن الظواهر المحيطة به وكذلك ما اكتسبه من قدرة على إدراك العلاقات بين هذه الظواهر . ويتضمن تكوين المعاني والمفاهيم إدراك علاقات بالطبع . إلا أنه يستحسن لأغراض التحليل أن نفرق بين هذين النوعين من التنظيمات الإدراكية حالياً . فنحن نلاحظ أن معظم أفراد الإنسان يكتسبون القدرة على تصنيف الظواهر الطبيعية في أنواع مثل الألوان والطعوم والروائح والكراسي والموائد والأشجار وأفراد الإنسان الآخرين وغير ذلك ، وهنا هو ما تعبر عنه المفهومات أو المعاني . وبالإضافة إلى ذلك نلاحظ أيضاً أن معظم أفراد الإنسان يستطيعون أن يدركوا العلاقات بين الظواهر المختلفة من تشابه وتضاد وغير ذلك ، وذلك ابتداء من إدراك الفروق بين الأطوال أو الطعوم أو الألوان أو الأصوات حتى إدراك العلاقات التي تتضمنها النظرية النسبية مثلاً .

ويمكن « الكشف » عن التنظيم الإدراكي سواء من ناحية المفهومات والمعاني أم من

(١) انظر مناقشة مفهوم الوراثة في الفصل الثامن .

ناحية العلاقات ، عن طريق ما يقوم به الفرد من تمييز للمواقف المثيرة المختلفة التى يتعرض لها ، سواء كان هذا التمييز عن طريق الاستجابة الظاهرية أم عن طريق الاستجابة اللفظية . فالفرد يميز بين موقفين مختلفين إذا استجاب لهما بشكل مختلف ويميزها كموقفين متشابهين إذا استجاب لهما بطريقة متشابهة . كذلك إذا طلب منه تقريراً لفظياً عن الموقف المثير فإنه سيعطى نفس التقرير بالنسبة للمواقف المتشابهة إذا كان إدراكه لها متشابهاً ويعطى تقريراً مختلفاً إذا كان إدراكه لها مختلفاً . فيقول مثلاً « هذا أحمر » بالنسبة للون الأحمر ويقول « هذا أخضر » بالنسبة للون الأخضر وهكذا ويقول أيضاً « هذا يرتقال » و « هذا موز » و « هذا كبير » و « هذا صغير » ؛ هذا من ناحية التمييز عن طريق التقرير اللفظي . أما من ناحية الاستجابة الظاهرية فإن التمييز يتضح عن طريق تناول الأشياء واستخدامها واختيارها بناء على تعليمات معينة ... الخ .

وباختصار فإن التنظيم الإدراكى يمكن ملاحظته عن طريق الاستجابات التمييزية سواء منها اللفظي أم الظاهري ، وبهذا المعنى يتحدد مفهوم التنظيم الإدراكى إجرائياً من حيث علاقته بمتغير السلوك .

أما من حيث العوامل المؤثرة فى هذا التنظيم فيمكن ادخال جميع المتغيرات المستقلة السابقة الذكر وأيضاً جميع المتغيرات الوسيطة التى ستأتى ذكرها فيما بعد . فيمكن البحث مثلاً فى علاقة الموقف نفسه بعملية الإدراك . ويشمل هذا مدى تعقد الموقف ، ونوع العلاقات المتضمنة فيه وهكذا . ويمكن أيضاً بحث الفروق الفردية وعلاقتها بعملية الإدراك . ويمكن كذلك بحث درجة الحرمان وشدة ونوع الحوافز وعملية التدعيم وجدول التدعيم ... الخ كل ذلك فى علاقته بالتنظيم الإدراكى بطريقة تجريبية مضبوطة^(١) .

فالتنظيم الإدراكى كمتغير وسيط إذن يمكن ربطه بدقة بالمتغيرات المستقلة من ناحية وبالمتغير التابع ، وهو السلوك ، من ناحية أخرى . فإذا ما تحدد التنظيم الإدراكى على هذا النحو فإننا نستطيع من ناحية أخرى أن نقيم العلاقات بينه وبين متغيراتنا الوسيطة الأخرى من دوافع وعادات . وأخيراً فإننا نستطيع إذا ما فهمنا التنظيم الإدراكى سوف يستثار فى موقف ما ، إذا ما عرفنا المتغيرات الأخرى المرتبطة بالموقف . وكذلك فإننا نستطيع عن طريق معرفة التنظيم الإدراكى لشخص ما ، أن نتنبأ بما يمكن أن يكون عليه تنظيم دوافعه

(١) انظر : Mohamed E. Ismail: A Reinterpretation of Perception in Terms of Learning and Personality Dynamics.

رسالة دكتوراه محفظة فى مكتبة كلية التربية جامعة عين شمس .

مثلاً ، أو بما يمكن أن يكون عليه سلوكه في موقف ما ، إذا ما أعطينا المتغيرات الأخرى اللازمة . وباختصار فإن معرفة التنظيم الإدراكي كمتغير وسيط يساعدنا على التنبؤ بالسلوك وبالتالي على التحكم فيه .

وليس في معنى التنظيم الإدراكي على هذا النحو أى إضافة غيبية . فهو ليس عملية « شعورية » ، ولا عملية « ايزومورفية » بالمعنى الجشتالتى ، ولا غير ذلك مما لا نستطيع أن نحدده إجرائياً ، ولكنه مفهوم يعبر لنا عن « النتائج » التى ترتبت على اتصال الفرد بالمتغيرات المختلفة في بيئته من حيث تأثيرها على عمليات التمييز عنده فيما بعد .

ثانياً : تنظيم العادات والتوقعات ، ويشمل هذا التنظيم مجموع العادات والتوقعات التى اكتسبها الفرد . فنحن نلاحظ مثلاً أن الفرد « يتوقع » أن هناك طعاماً سيقدم بعد سماعه صوتاً معيناً ، أو يتوقع أن هناك غارة جوية بعد سماعه صفارة الإنذار ، أو يتوقع مدحاً من الرئيس عند أدائه سلوكاً معيناً أو يتوقع العقاب إذا فشل في أداء معين وهكذا . كذلك نلاحظ أن معظم سلوكنا اليومي عبارة عن عادات كعادات الطعام وعادات النوم وعادات المشي والكلام وغير ذلك ، بمعنى أنه كلما ثارت عندنا حاجات معينة فإننا نقوم بسلوك معين بالنسبة لمواقف معينة . فنحن نلاحظ مثلاً أننا نقوم بسلوك التدخين كلما « ثارت الحاجة » عندنا إلى ذلك أو نذهب إلى مطعم معين كلما أردنا الحصول على الطعام خارج المنزل أو نذهب إلى مكان معين للنوم أو لقضاء حاجة كلما ثارت الحاجة عندنا لذلك وهكذا .

وتعبر العادة بهذا المعنى ، كما يعبر التوقع ، عن نمط ثابت نسبياً من السلوك بإزاء مجموعة معينة من المواقف . وبمعنى آخر فإننا نستطيع أن نقيس قوة العادة - أو قوة التوقع - عن طريق مدى احتمال صدور سلوك معين في نوع معين من المواقف . أو عن طريق مقاومة هذا السلوك للانطفاء فمن الناحية السلوكية إذن يرتبط مفهوم العادة بتكرار سلوك معين في مواقف معينة ويرتبط هذا التكرار طبعاً من الناحية الأخرى بظروف أو بمتغيرات مستقلة معينة هي التى أدت إليه .

وإذا اخترنا ملاحظاتنا في التجارب المعملية أو في الحياة اليومية ، نجد أن ما نلاحظه بشكل مباشر هو مواقف معينة واستجابات معينة تصدر بإزائها . ونلاحظ أيضاً أنه كلما تكررت ظروف معينة في هذه المواقف تكرر صدور هذه الاستجابات . وبناء على ذلك نحن نقوم باستنتاج أو بتصور علاقة ثابتة نسبياً بين هذه الظروف السببية وبين هذا التكرار في صدور الاستجابة . وبمعنى آخر فإننا نتصور أنه قد حدث تغيير في سلوك الكائن الحي . ويعبر مفهوم العادة عن هذا التغير الذى لا ندركه بشكل مباشر وإنما نستنتجه استنتاجاً

من مجموعه ملاحظات مباشرة . فنقول إن الفرد قد أصبح يتوقع نتيجة معينة أو قد أصبح معتاداً لأداء سلوك معين .

وإذا ما حددنا المظهر السلوكي للعادة ، أى إذا ما اتفقنا على طريقة ملاحظتها وقياسها ، فالتخذنا قياساً لها مثلاً مدى مقاومة السلوك للانطفاء . أو مدى تكرار السلوك دون الحصول على المدعم ، يبقى بعد ذلك أن نربط بين تنظيم العادات كمتغى وسيط من ناحية ، وبين غيره من المتغيرات المستقلة والوسيلة ، من ناحية أخرى . فنربط مثلاً بين تنظيم العادات وعملية التدعيم ، بما فى ذلك جدول التدعيم ونوع المدعم وغير ذلك . ونربط كذلك بين تنظيم العادات والموقف المثير بما يتضمنه من تركيب بسيط أو معقد . ونربط أيضاً بين العادة والحاجة عند عملية التدعيم . وكذلك بين تنظيم العادات وتنظيم النوافع . وبين تنظيم العادات والتنظيم الإدراكى . وبين تنظيم العادات والفروق الفردية وهكذا .

وبتوسيط مفهوم العادة كمتغير فى تحديد السلوك على هذا النحو ، يسهل علينا عندئذ أن نتنبأ بسلوك معين عند فرد معين فى موقف معين إذا ما عرفنا تنظيم عاداته وإذا ما عرفنا العلاقة بين هذا التنظيم والتنظيمات الأخرى لديه . ويصبح من السهل علينا أيضاً أن نتحكم فى هذا التنظيم بتناول المتغيرات المستقلة التى يستند إليها ، والتى كانت سبباً فى « بنائه » .

ثالثاً : تنظيم النوافع ، ويتضمن هذا التنظيم ما يظهر لدى الكائن الحي من « ميل » للإقدام على موضوعات أو مدعمات معينة ، أو للحصول عليها . وكذلك من ميل للهروب من موضوعات أو مدعمات أخرى أو لتجنبها . وتسمى الحالة الأولى بالنوافع الإيجابية والثانية النوافع السلبية . وتعتمد النوافع أساساً من ناحية المتغيرات المستقلة على نوع ومقدار الحرمان ، وكذلك على نوع ومقدار الخوافز الموجودة فى المجال الإدراكى للكائن الحي ، سواء بشكل عنى أم رمزى . أما من الناحية السلوكية فيعبر عن النافع ، سلوك الكائن الحي من حيث مقاومة هذا السلوك لعوامل التشتيت ومدى استمراره وشدة فى سبيل الحصول على مدعم معين ، أو فى سبيل تجنبه والهروب منه . كذلك يعبر عنه تقريره اللفظى بكلمات كالحب أو الكراهية أو التفضيل ... الخ .

وكيفية المتغيرات الوسيطة الأخرى . نستطيع بعد أن نحدد المظهر السلوكى الذى نلاحظ النافع ونقيسه من زاويته ، أن نقيم العلاقات بين تنظيم النوافع من ناحية وبين المتغيرات الأخرى ، مستقلة كانت أم وسيطة ، من ناحية أخرى . فتقيم العلاقة بين تنظيم النوافع وبين عملية التدعيم ، والحاجة ، والفروق الفردية والتنظيم الإدراكى ، وتنظيم العادات .

ويتضمن تنظيم الدوافع عند الإنسان ما يتصل بمحاجاته البيولوجية ، وكذلك ما اكتسبه من ميل للأقدام أو الإحجام نحو الموضوعات المختلفة في يئته ، كنتيجة لاقتران هذه الموضوعات بعمليات تدعيم سلبية أو إيجابية في أثناء حصوله على المدعرات البيولوجية . وبذلك يدخل في هذا التنظيم ما نسميه بالانجهاات والميول ، والدوافع الاجتماعية ، كاللذافع إلى الاجتماع بالآخرين والدافع إلى التحصيل والدافع إلى العدوان وغير ذلك .

ومفهوم الدافع عن هذا النحو لا يعبر عن وجود « شئ داخل يذفع » . بل ينم عن علاقة بين ظروف يئة معينة (سواء داخلية أو خارجية) وبين سلوك الكائن الحى من حيث شدته وتوجيهه . وبهذا المعنى يعيننا مفهوم الدافع على التنبؤ بسلوك الكائن الحى والتحكم فيه .

والآن إذا افترضنا أن هذه الأنواع من المتغيرات المستقلة والوسيلة تتضمن كل ما يمكن أن يوجد من محدعات للسلوك ، فإنه يلزمننا بعد ذلك أن نعرف كيف يمكننا في مناسبة معينة أو في موقف معين أن نتنبأ بسلوك فرد معين ، على فرض أننا قد قمنا بالفعل بمعرفة كل ما يمكن معرفته من تلك المتغيرات .

أو بمعنى آخر كيف يمكن أن ننتقل من هذه المتغيرات ، المستقلة والوسيلة ، إلى تحديد متغيرنا التابع وهو السلوك . الواقع أن هذا يستلزم عمليتين أخريين خلاف ما قمنا به حتى الآن : أما العملية الأولى فهي عملية تحليلية لتحديد العلاقات الوظيفية الفعلية الموجودة بين المتغيرات المختلفة . وأما العملية الثانية فهي عملية تركيبية لبناء تنظيم موحد متكامل من جميع هذه العلاقات وهاتان العمليتان هما الهدف للذى يصبو إلى تحقيقه أى مؤلف علمى في علم النفس العام ، وهو ما نرجو أن نسهم بقسط في سبيل تحقيقه في الأجزاء التالية من هذا الكتاب .

أما الآن فيكفى بعد أن وضعنا هذه الأسس المنهجية التى يمكن أن يقوم عليها تحليلنا القادم لقوانين السلوك وكذلك تركيبنا لها ، أن نبين لماذا تأخر استخدام المنهج العلمى ، كما حاولنا أن نحدد خطوطه الرئيسية هنا ، في دراسة الظاهرة السلوكية . وهذا هو موضوع الفصل التالى .

الفصل الحادى عشر

لماذا تأخر التفسير العلمى للسلوك

ليس من الغريب أن نجد اليوم ، أنه حتى أولئك الذين يؤمنون كل الإيمان بنجاح وبقيمة الطريقة العلمية فى ميدان العلوم الطبيعية ، قد يشكون فى إمكانية تطبيق هذه الطريقة فى ميدان العلوم الاجتماعية . أى فى دراسة وتفسير السلوك الإنسانى . بل إلى البعض ليذهب أحياناً إلى أبعد من ذلك فيقرر أن هناك اختلافاً جوهرياً بين كل من الميدانين ، بحيث تصبح مناهج العلوم الطبيعية غير كافية بالمرّة بتحقيق أى فائدة يمكن أن نرجوها فيما يتعلق بدراسة السلوك الإنسانى ، الفردى والاجتماعى . فلا يمكن أن نتوقع - فى رأى هؤلاء - أن تزيد هذه المناهج من قدرتنا على التنبؤ بالسلوك أو التحكم فيه . ولذلك يرى هؤلاء المعارضون ، أنه سواء فيما يتعلق بعلم النفس بالذات أم بالعلوم الاجتماعية عموماً ، يجب أن تقوم مناهج خاصة تتناسب مع ذلك الاختلاف الجوهرى الذى تختلف هذه العلوم عن العلوم الطبيعية الأخرى . فموضوع هذه العلوم (الاجتماعية) هو السلوك الذى يهدف إلى غرض ويتصف بالذكاء ، وهو ظاهرة تختلف فى منشئها وطبيعتها عن الظواهر الطبيعية الأخرى ، مما يجعل من المحتم علينا - فى رأيهم - أن نبحث عن مناهج لدراستها مختلفة كل الاختلاف عن مناهج العلوم الطبيعية .

ويتضمن هذا الكلام عن طبيعة الظاهرة السلوكية واختلافها عن الظواهر الطبيعية الأخرى ، أن السلوك البشرى لا يخضع لمبدأ السببية . أى أن هؤلاء المعارضين لا يسلّمون بإمكانية وجود « أسباب » للسلوك البشرى كما يسلّمون بذلك بالنسبة لظواهر الطبيعة غير الحية . وبالتالي فإنهم ينكرون إمكانية التنبؤ فى مجال السلوك الإنسانى ، وهى إمكانية التى تترتب حتماً على التسليم بمبدأ السببية ، أى على التسليم بوجود علاقة سبب ومسبب فى الظواهر السلوكية . ولاشك أن هذه النظرة كان لها أثر كبير فى تأخير دراسة السلوك الإنسانى دراسة علمية ، أى فى تطبيق المنهج العلمى ووسائله فى ميدان علم النفس .

وقبل أن نتعرض للأسباب التى أدت إلى قيام وتدعيم هذه النظرة إلى السلوك الإنسانى ، أى إلى اعتباره ظاهرة لا يمكن التنبؤ بها ، يحسن بنا أن نبين بوضوح النتائج التى يمكن أن تترتب على هذا الادعاء ، وكذلك تلك التى تترتب على الادعاء المقابل له ، أى

اعتبار السلوك ظاهرة تخضع لأسباب محددة ويمكن التنبؤ بها .

إذا كان السلوك الإنساني ، سواء الفردي أو الاجتماعي ، لا يخضع لمبدأ السببية ، فإن الطريقة العلمية تصبح عندئذ غير ذات موضوع بالنسبة للدراسة . أى أنه لا يمكننا عندئذ أن نكشف عن أسرار الطبيعة البشرية . ومعنى ذلك أن كلا من علم النفس والعلوم الاجتماعية الأخرى لا يمكن أن ترقى عندئذ إلى مصاف « العلوم » . هذه هي النتيجة اللازمة للإدعاء بأن السلوك البشرى لا يخضع لمبدأ السببية . وهي نتيجة ضرورية ، لأن جوهر التفسير العلمى فى أى مجال كما رأينا ، هو الربط بين الظواهر وبين مقدماتها السببية أو الظروف المحددة لها ، وذلك فى قانون علم يفسر لنا الحوادث الجزئية التى حدثت فى الماضى ، ونتنبأ على أساسه بما يحدث فى المستقبل . فإذا أنكرنا مثل هذه العلية وهذا الاضطراب فى حدوث الظواهر السلوكية الفردية والاجتماعية ، فمعنى ذلك أننا لا نستطيع أن نستفيد من دروس الماضى ، كما أن معناه أيضاً أن مستقبل البشرية رهين بالصدف وخاضع للأهواء . ومع خطورة هذا الإستنتاج ، لا نزال نرى بعض المشتغلين بالتاريخ والعلوم الاجتماعية يقررون أن الذين يميز ميدانهم عن ميادين العلوم الطبيعية ، أن الأخير يحكمه مبدأ السببية ، فى حين أن الأول لا يتحكم فيه هذا المبدأ .

والعجيب أن مثل هؤلاء يقرر فى نفس الوقت أن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تساعدنا فى قيادة الأفراد الجماعات هى أن نكرر من برامج الدراسات الاجتماعية . ولا شك أن موقف هؤلاء واضح التناقض . إذ كيف نتنظر أن يستفيد الأفراد من دروس التاريخ عظام ، إذا لم تكن هذه العظام موجودة فى التاريخ فعلا . أو بمعنى آخر ماذا نتوقع أن يتعلم الناس من التاريخ ، إذا كان هو مجرد أحداث تحدث وفقاً للأهواء أو تبعاً لقانون الصدفة ، وإذا لم يكن هناك أى مبدأ أو قانون يربط بين هذه الأحداث بعضها وبعض بحيث يمكن أن نستخلص نتائج عامة فى سلوك الناس وسلوك الشعوب . إن التفرقة بين السلوك الحكيم فى التاريخ والسلوك غير الحكيم إنما تتضمن فعلا الاعتراف بالعلاقات السببية فى السلوك الإنسانى . فإذا كان لنا أن نستخلص من التاريخ عبرات وعظات ، وإذا كان لنا أن نقرر قواعد ومبادئ للدول وللأفراد كى تتبعها فى مستقبلها ، وكى تكون فى مركز أحسن وفى موقف أسعد مما كان عليه الأجداد فيما مضى ، إذا كان لنا أن نقول إذا حدث كذا وكذا فإن من المحتمل أن يترتب عليه نتائج معينة كذا أو كذا ، فإننا لابد أن نسلم أصلا وبوضوح أن السلوك الإنسانى لا يتبع الهوى ، وإنما تحكمه قواعد وقوانين ومبادئ تقرر علاقات معينة بين الأسباب والمسببات . إن من العبث أن تقوم أية فكرة للإصلاح سواء على المستوى القومى أو على المستوى الإنسانى أو على المستوى الفردى ، ما لم تكن هناك أسس وقواعد نظرية لهذا الإصلاح . هذه الأسس وهذه القواعد النظرية هى المبادئ التى تحكم

في السلوك . فإذا لم نسلم بوجود هذه المبادئ فكأننا إذن نقول أننا لا نملك في أيدينا أى وسيلة نستطيع بها أن نعدل أو نغير من سلوك الإنسان . ومعنى ذلك ، كما هو واضح ، أن تظل الثغرة كبيرة بين سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وسيطرته على نفسه ، وأن يظل خطر فناء الإنسانية جاثماً باستمرار ، أو على الأقل يظل الإنسان يائساً من إصلاح نفسه . تلك هى النتائج التى يمكن أن تترتب على القول بأن السلوك الإنسانى لا يخضع لمبدأ السببية .

وعلى العكس ، إذا قلنا بأن السلوك الإنسانى يمكن أن تكتشف فيه قواعد أو مبادئ أساسية ، كما يكتشف في الظواهر الطبيعية الأخرى ، فإن الإمكانيات عندئذ تصبح لا حد لها . إذ في هذه الحالة نستطيع أن نسأل العالم الاجتماعى : ما هى الوسائل التى يمكن أن نصل بها إلى نتائج معينة ؟ وعندئذ يمكننا أن نحصل على إجابات صحيحة من الناحية الواقعية والعملية ، بدلا من أن نحصل على إجابات خطافية أو عاطفية . بمعنى آخر فإن العالم الاجتماعى وعالم النفس الذى يسلم بخضوع السلوك لمبدأ السببية والذى يقيم دراسته للسلوك على هذا الأساس ، يستطيع أن يحدد الظروف التى تتحكم في هذا السلوك . وبالتالي يستطيع أن يتنبأ ويتحكم ، وينصح بطريقة عملية بالقدر الذى تسمح له به معلوماته .

مثلا ، نستطيع أن نسأل - إذا كنا نسلم بالعلاقة السببية في السلوك الإنسانى - ما هو أحسن تنظيم اقتصادى يساعدنا على زيادة إنتاجنا وعلى تنمية العلاقات الإنسانية السوية بين أفراد مجتمعنا ، وعلى إشاعة السعادة بين الناس ؟ ومهما كانت الإجابة على هذا السؤال فإننا نستطيع عندئذ ، على أية حال ، أن تضع الإجابة في محك الاختبار ، وأن نستقرئ من الأحداث التى تمخض عنها هذا الاختبار صحة الإجابة أو عدم صحتها . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها أن نصل إلى إجابة سليمة . ونستطيع من تاريخ العلوم الطبيعية أن نرى أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى ساعدت على التقدم في هذه المجالات . وعلى هذا الأساس ، وعلى هذا الأساس فقط ، كانت ترفض نظرية أو تقبل أخرى في ميدان العلوم الطبيعية . ولا شك أن الإنسان سوف يسير أشواطاً بعيدة نحو الهدف المثالى فيما يتعلق بدراسة السلوك الفردى أو الاجتماعى لو سار في نفس الاتجاه ، أى لو سلم بمبدأ العلية في السلوك ، وعمل بملاحظاته على استخلاص العوامل والأسباب التى تؤثر فيه .

تلك هى النتائج التى تترتب على كلا الرأيين : رأى الذى يقول إن السلوك لا يخضع للدراسة العلمية ، والرأى الذى يقول على العكس أن السلوك يمكن إخضاعه لهذه الدراسة . ولننظر الآن في الحجج التى يقيم عليها كل فريق رأيه حتى نستطيع أن نلقى بعض الضوء على الأسباب والعوامل التى أخرت الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى .

هناك أربع حجج يقدمها الفريق الذى لا يؤمن بخضوع السلوك لمبدأ السببية

أو بإمكانية الدراسة العلمية للسلوك . وهذه الحجج هي :

أولاً : أن السلوك الإنساني سلوك فردي ، بمعنى أن كل فرد فريد في ذاته وليس شبيهاً بأى فرد آخر ، وعلى ذلك فليس هناك مجال في استخلاص قوانين أو مبادئ عامة للسلوك ، وبالتالي لا يمكن التنبؤ بما سيحصل عن الفرد .

ثانياً : حتى إذا كان هناك نظام سببي تخضع له الظاهرة السلوكية ، فإن هذا النظام هو في الواقع من التعقيد بحيث يستحيل اكتشافه أو وصفه أو تحديده .

ثالثاً : في الظواهر الطبيعية تتحدد الظاهرة بمقدمات سببية سابقة لها ، ولكن في السلوك الإنساني يوجه السلوك أهداف أو أغراض مستقبلية ، وعلى ذلك فإن الذي يحدد السلوك ليس هو المقدمات السببية ، بل الأهداف المستقبلية .

رابعاً : إذا كان السلوك الإنساني يخضع لمبدأ السببية ، وإذا كان بالتالي يمكن التنبؤ به ، فإن يصبح من العبث عندئذ أن يحاول الإنسان الاختيار بين الخير والشر ، وبمعنى آخر تصبح فكرة الاختيار فكرة لا محل لها . فما دام الإنسان محكوماً في سلوكه بأسباب وظروف معينة هي التي تحدد هذا السلوك . كان من العبث عندئذ أن نتحدث عن الاختيار ، كذلك كان من العبث أن نتحدث عن المسؤولية ، أو نعتبر الإنسان مسئولاً عن أفعاله ، وبالتالي يصبح من الظلم أن نوقع عليه العقاب . وباختصار فإن هذه الحجة الأخيرة تتلخص في أن مبدأ السببية في السلوك الإنساني يتعارض مع حرية الإنسان ومسؤوليته الأخلاقية .

وسوف نتناول الآن هذه الحجج الواحدة بعد الأخرى ، فنعرض لموقف الفريق الذي يسوق هذه الحجج مبينين إلى أى حد كانت هذه الحجج مجانبة للصواب ، وإلى أى حد أيضاً كانت هذه العقائد والأوهام الزائفة سبباً قوياً في تعطيل الدراسة العلمية للسلوك الإنساني .

فالحجة الأولى التي تقرر أن السلوك الإنساني سلوك فريد ولا يوجد ما يشترك فيه الأفراد جميعاً ، إنما تقوم على أساس أخطاء أو مغالطات في فهم معنى السببية في العلم . ولكي نزيل هذه الأخطاء لابد أن نوضح أن كل جزئية في هذا العالم هي فريدة في ذاتها ، سواء كانت هذه الجزئيات عبارة عن أشياء طبيعية كالأشجار أو أحداث طبيعية كالأضواء مثلاً ، أو كانت أفراداً آدميين ، فإن مجرد أن يقرر أن الشيء فرد أو جزئي فإن ذلك يعني أنه فريد ، بمعنى أن يختلف عن الأشياء الأخرى التي هي من نوعه ، أو التي هي خارج دائرة نوعه . فكل دقة من دقات ساعة اليد مثلاً هي عبارة عن حادث فريد . إذ أن كل دقة من هذه الدقات إنما تحدث في ظروف لا يمكن أن تتشابه مع ظروف الدقة الأخرى . ولكن

مع ذلك فإن من الواضح أن هذه الفردية التي تميز الأحداث الطبيعية لا تمنعها من أن ترتبط بقوانين سببية عامة ، أو بمعنى آخر لا تمنعها من أن تندرج تحت مبدأ سببي عام . ذلك أن القوانين أو المبادئ السببية إنما تعنى بأوجه الشبه التي تشترك فيها مجموعة من الأحداث فتربط بين هذه النواحي المشتركة في مجموعة من الأحداث ، وبين نواحي مشتركة في مجموعة أخرى من الأحداث . فمثلا عمليات الاحتكاك تكون مصحوبة دائماً بظهور الحرارة ، فبالرغم من أن كل عملية من هذه العمليات قد تختلف عن الأخرى ، إلا أنها تشترك جميعاً في أنها عمليات « احتكاك » ترتبط في نفس الوقت ، من هذه الناحية العامة بظاهرة عامة أخرى وهي ظاهرة الحرارة . كذلك فإننا إذا قلنا أى قذيفة معينة تحت ظروف خاصة ، فإنها سوف تسير في فلك محدد نستطيع أن نتنبأ به ، بصرف النظر عن لون هذه القذيفة أو مكان صنعها ، أو غير ذلك من الظروف التي تحدد فرديتها .

فإذا كانت العلاقة السببية إذن هي علاقة بين أنواع من الأحداث ، أو بمعنى آخر بين نواح عامة مشتركة في الأحداث ، لذلك لم يكن من الضروري أن تتكرر جميع الأوجه أو النواحي التي يتميز بها سبب معين ، حتى يمكن أن يحدث أو ينتج نفس النوع من النتائج . وباختصار فإن القوانين السببية إنما تربط صفات عامة في الأحداث بعضها ببعض ، ولا يعطلها في ذلك أن كل حدث إنما هو فريد في ذاته . أى أن القوانين السببية تعنى بمجموعات الحوادث في علاقاتها بعضها ببعض وليس بجزئياتها الفردية . هذا هو معنى القانون . ويلزم عن ذلك أنه عندما يسلم علماء النفس الذين يؤمنون بالاتجاه العلمي بوجود العلاقة السببية في السلوك الإنساني ، فإن موقفهم عندئذ لا يتعارض مع وجود فروق فردية كبيرة بين الناس كما أنه لا يقلل من قيمة فردية كل شخص بالذات .

إن كل شخص فريد في ذاته بحكم أنه متميز عن الآخرين بخصائص أو سمات معينة لا توجد بالضبط أو لا توجد هي ذاتها في فرد آخر . ولكن مع ذلك يمكننا أن نتصور إمكان قيام قانون سيكولوجي كالقانون الآتي : « إذا عوقب الطفل تحت ظروف معينة لسبب عدوانه على أخيه ، وتكرر ذلك العقاب من قبل القائمين على أمره ، فإنه قد ينشأ وهو يكره الجنس الآخر » فإذا كان هذا القانون صحيحاً ، فإن الأطفال الذين يتعرضون لمثل هذه الظروف سوف يبدون كراهية للجنس الآخر بالرغم من أنهم قد يخطفون في نواحي أخرى في حياتهم الطفلية ، وبالرغم من اختلاف مدى وحدة وشكل هذه الكراهية .

وهناك وجه آخر لهذه الحجة ، وهي أن عالم النفس لا يمكن أن يشعر أو يدرك نفس مشاعر أو حاجات الأفراد الذين يدرسه . وعلى ذلك لا يمكن أن يقرر تقريراً صادقاً ، أو لا يمكن أن يتنبأ بتقرير صادق عن سلوك هؤلاء . وقد سبق أن تعرضنا للأحداث اللاتية

ومكانها في أى علم^(١) . فعالم النفس لا يجب أن تكون عنده نفس المشاعر التي عند الآخرين حتى يستطيع أن يفسر سلوكهم تفسيراً علمياً . ذلك أن فهم أى ظاهرة فهمياً علمياً هو أن ترجع هذه الظاهرة إلى الظروف أو العوامل الضرورية اللازمة لحدوثها . فالطبيب الذى يهتم بتفسير مرض كالسرطان مثلاً ، لا يجب أن يصبح هو نفسه مريضاً بالسرطان حتى يمكنه أن يفسر هذه الظاهرة ، بل يكفي أن يلاحظ الأعراض التي تميز ذلك المرض ، ويلاحظ الظروف المصاحبة لظهورها ولعدم ظهورها ، ثم يقيم العلاقة بين هذين النوعين من الأحداث . أما أن يفهم من الأحداث السيكولوجية أنها الخبرات الخاصة بالفرد والتي لا يمكن أن ننقلها إلى أفراد آخرين فهذا سوء فهم لموضوع علم النفس سبق أن تحدثنا عنه .

أما الحجة التي تقرر أن السلوك الإنساني أعقد من أن تكتشف العلاقات السببية القائمة فيه ، فإنها حجة واهية بشكل واضح . إذ أن نظرة واحدة لتاريخ العلم تظهر لنا كيف أن مثل هذا الاتجاه كان هو دائماً اتجاه بعض الأفراد عند بداية ظهور علم ما ، أو في أى مرحلة من مراحل تطوره . فقد كان الناس إلى عهد قريب مثلاً ينظرون إلى فكرة الصعود إلى القمر على أنها خرافة . بل كان بعض العلماء يحاكمون أحياناً مجرد ظهورهم على الناس بفكرة تخالف رأى العام فيما يتعلق بقوانين الطبيعة . مثل هؤلاء الأفراد الذين يقفون هذا الموقف من علم النفس لابد أنهم كانوا يقفون نفس الموقف من قوانين الحركة قبل ظهور جاليليو ، أى لابد أنه كانت تبدو لهم مسألة ارجاع تلك التشكيلة المعقدة من حركة الكواكب إلى بضعة قوانين بسيطة مسألة شبه مستحيلة . كذلك قبل أن يظهر علم الكيمياء فإن الاحتمال الأكبر أن مثل هؤلاء الأفراد كانوا ينكرون إمكان ارجاع هذه الأنواع المتعددة من المواد الطبيعية إلى ٩٦ عنصراً فقط . مثل هذا الاتجاه إذن يتوقف على مقدار ما لا يزال مجهولاً من العلم ، ولكن كما هو واضح فإن بعض الأفراد يكون موقفهم ضعيفاً دائماً أمام المجهول .

أما الحجة التي تقوم على أساس أن السلوك الإنساني يتحدد بالسعى إلى أهداف لاحقة فقد سبق تعرضنا لها عند كلامنا عن الأهداف باعتبارها أسباباً للسلوك^(١) .

ولنتناول الآن الحجة الأخيرة التي تعتمد أساساً على التعارض بين علم السلوك وبين حرية الإنسان ومسئوليته الخلقية . تقرر هذه الحجة أن حتمية السلوك تتعارض مع المسؤولية الخلقية . ذلك أن الإنسان إذا كان مسؤولاً عن أفعاله فإن ذلك يتضمن أنه حر يختار بين هذه

(١) انظر ص ٤٩ وما بعدها (مسلم الحسية)

(١) انظر الفصل التاسع .

الأفعال ولا يجبر على أحدها بعوامل خارجة عن طاقته . فالجبرية التى تتفق مع منطق العلم معناها أن جميع الظواهر بما فى ذلك السلوك الإنسانى تحكمها أسباب محددة . ولا يكون هناك أى معنى للأخلاق إلا على أساس إنكار مثل هذه الجبرية . وبعبارة أخرى يقرر صاحب هذه الحجة أنه « إذا كانت الجبرية أو الحتمية أمر حقيقى ، فإن معنى ذلك أن إرادتى أيضاً تحكمها مثل هذه الجبرية ... وعلى هذا الأساس لا اختيار لى ، وبالتالي لا أعد مسئولاً عن أفعالى . ذلك أننى لا أستطيع أن اتخذ أى قرارات ولا أستطيع أن أفعل أى أفعال ؛ بل لأننى محكوم بفعل ما أفعل . بل أبعد من ذلك فإنه إذا كانت الحتمية أمر حقيقى ، فإنه ليس لى حق اختيار حتى دوافعى أو خلقى أو شخصيتى . ذلك أن الدوافع والخلق والشخصية هى ، كما تقرر حتمية العلم ، محصلة لعوامل خارجة عن إرادتى ، أو لظروف موضوعية بعضها خارجى وبعضها داخلى . ومعنى آخر فإن الشخصية بأكملها هى نتاج للحوادث والأحداث التى كنت أتعرض لها طوال حياتى » .

وباختصار فإن الحتمية والمسئولية الخلقية فى نظر صاحب هذه الحجة شيان متعارضان . فالمسئولية الخلقية تفترض وجود الحرية . ووجود الحرية معناه استثناء من مبدأ الحتمية أو السببية وهو أحد مسلمات العلم . والآن ما هو موقفنا من هذه الحجة ؟ لكى نرد على أصحاب هذه الحجة يجب :

أولاً : أن نفرق بين حتمية العلم بالمعنى الذى سبق أن وضعناه^(١) ، وبين مذهب القدرية غير العلمى ، فالقدرى يقول « إننا مهما فعلنا كذا وكذا فإن النتيجة ستكون واحدة » . أما الحتمية العلمية فتقول « إننا إذا فعلنا كذا وكذا فإن النتيجة ستكون كذا وكذا » القدرى يعتقد مثلاً أنه إذا ذهب أحد إلى ميدان القتال وكان « مكتوباً عليه » أنه سيقتل ، فإنه سيقتل حتماً أينما وجد ، ومهما اتخذ من احتياطات . أما الحتمية العلمية فإنها تقرر أن الفرد لا يموت إلا إذا توفرت جميع الظروف التى تؤدى إلى الموت . فعلى العكس من القدرية إذن ، تقرر الحتمية أن هناك عوامل سببية معينة تترتب عليها الأفعال الإنسانية .

ثانياً : يجب أن نوضح نقطة أخرى وهى أن القوانين الطبيعية لا تجبر الأجسام على أن تسلك على نحو معين . ولكنها تصف لنا فقط كيف تسلك هذه الأجسام على سبيل الأمر الواقع . وبالمثل فإن القوانين السيكلوجية لا تضطرننا إلى أن نفعل أو نرغب شيئاً على خلاف إرادتنا ، بل تقرر هذه القوانين فحسب كيف نفعل ... وكيف نتصرف ... وكيف نرغب تحت ظروف معينة . وعلى ذلك فإذا كان هناك قانون سيكلوجى يمكننا من أن نتنبأ بأنه تحت ظروف معينة يعمل إنسان معين ويرغب ويتصرف بشكل معين ...

(٢) انظر الفصل الثالث مسلم الحتمية .

فإن مثل هذا القانون لا يضطر هذا الإنسان إلى العمل أو إلى الفعل بطريقة مخالفة لـرغبته .
ذلك أن رغبة هذا الإنسان في هذه الحالة ليست سوى مظهر آخر من مظاهر سلوكه التي
يمكن أن يصفها مثل هذا القانون .

ومعنى ذلك أنه لا الأسباب التي تحدد رغباتنا ، ولا القوانين السيكولوجية التي تقرر
تحت أى ظروف تنشأ هذه الرغبات ... لا هذه ولا تلك تضطربنا بأى شكل من الأشكال
إلى أن نتصرف بطريقة مخالفة « لإرادتنا » ذلك أن إرادتنا ليست شيئاً مستقلاً منفصلاً عنا .

على أننا لا نتوقع أن مثل هذا الرد سوف يقنع صاحب هذه الحجة، إذ لازالت عنده
الفرصة للرد على هذا الكلام بأن يقول : « كلنا يعلم أنه عندما يسترجع الفرد أفعاله الماضية ،
فإنه يشعر بقوة أنه كان في استطاعته أن يسلك سلوكاً مخالفاً . فإذا كانت الحتمية صادقة في
القول بأن سلوكنا محدد حتماً بأسباب سابقة عليه ، فإن مثل هذا الشعور بالحرية إما أن يكون
وهماً خلدعاً ، أو لا يكون له وجود بالمرّة » .

وردنا على ذلك بتلخيص فيما يأتي : لنختبر شعورنا بأنه في مناسبة ما كان من الممكن
أن نسلك بطريقة مغايرة لما فعلنا، فماذا نجد في محتوى هذا الشعور ؟ هل ينبؤنا هذا الشعور
بأننا حقاً كنا نستطيع أن نسلك بطريقة مخالفة تحت نفس الظروف الخارجية والداخلية بما في
ذلك الدوافع التي كنا نقع تحتها في تلك اللحظة ؟ بالطبع لا . فإن هذا الشعور يعنى ببساطة
أنه حقاً كان في إمكاننا أن نسلك بطريقة مخالفة إذا توفرت لنا ظروف ودوافع نفسية مخالفة
لما كان يسود في تلك اللحظة . وعلى ذلك « فإن الشعور بالحرية » الذي يتحدث عنه
صاحب هذه الحجة إنما يعنى في حقيقته أننا كنا نرغب أن نسلك بطريقة أخرى لولا
أن الظروف لم تسمح لنا بذلك . ويؤكد صحة تحليلنا هذا ، الشعور بالندم أو الذنب الذي
نقع فيه في بعض الأحيان . فكثيراً ما نندم على أفعال كنا قد قمنا بها . والواقع أن شعورنا
بالندم هذا معناه أننا كنا نتمنى ألا نفعل ما فعلناه . وعندما ننظر نظرة موضوعية إلى محتوى
شعورنا في هذه اللحظة التي نندم فيها ، نرى أن ذلك الشعور يتضمن « النية » أو « الرغبة »
في عدم العودة إلى مثل هذا الفعل مرة أخرى . ومعنى النية أو الرغبة هنا أن الدافع قد أصبح
مختلفاً عما كان عليه عندما قمنا بذلك الفعل . فعندما قمنا بهذا الفعل الذي نندم عليه الآن ،
كان الدافع للقيام به متوفراً أما الآن فإن رغبتنا في ألا نعود إليه مرة ثانية أو نندمنا على القيام به
في ذلك الوقت ، معناه أننا كنا نود ألا يكون مثل هذا الدافع موجوداً .

إذن فالظروف النفسية التي كان يمكن أن تؤدي إلى فعل مخالف ليست في الواقع هي
نفس الظروف التي تم الفعل في إطارها . فنحن لا نندم على فعل إلا إذا تغيرت دوافعنا عما
كانت عليه في الماضي . أما إذا بقيت دوافعنا كما هي فإننا لا نندم على أفعالنا . فالندم أو

الأسف أو تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب ما هي إلا تعبير عن انفعالاتنا نحو النتائج التي ترتبت على فعلنا السابق ، بعد أن عدنا ننظر إليه في ضوء دوافع جديدة . مثل هذه الانفعالات التي نمارسها حالياً والتي لم تكن موجودة ضمن مجموعة الظروف التي قمنا بالفعل تحت تأثيرها ، هي التي يمكن أن تؤثر تأثيراً مضاداً يمنع من تكرارنا لذلك الفعل وليس مجرد شعورنا بالحرية .

ومن هنا تبدو بشكل أوضح وبمعنى أصح مفاهيم المسؤولية والحرية والجزاء . فالقول بأن السلوك تحكمه ظروف معينة ، لا يتعارض مع فكرة المسؤولية ولا مع فكرة الجزاء . كما أنه لا يعنى أن الإنسان قد تجرد من القدرة على الاختيار . إلا أن هذه المعاني جميعاً لا تتحدد بالطريقة التي يقررها صاحب هذه الحجة وإلا وقعنا في تناقض لا مفر منه . فالتناقض في الواقع لا يقع إلا عندما نقرر « أن الإنسان ، دون النظر إلى أى ظروف ، ودون اعتبار لأى عوامل خارجة عن طاقته ، فإنه حر يختار بين أفعاله تبعاً لهواه وإرادته المطلقة » . ذلك أن صاحب هذه الحجة يقرر أننا إذا لم نسلم بهذا فإنه لا يكون هناك معنى للجزاء ولا يكون هناك معنى لحساب الفرد على أعماله . ونحن نسأله بدورنا ما الذى تتضمنه فكرة الجزاء في نظره ؟ ألا تتضمن أننا نريد التأثير على الفرد حتى ينصلح أمره ؟ وإذا كان يقصد بالجزاء التأثير على الفرد . أليس معنى ذلك أننا نسلم أن سلوك الفرد يتأثر بظروف معينة كالثواب والعقاب مثلاً . ألا يتناقض هذا مع فكرة الحرية المطلقة أو الإرادة الحرة ؟ أما إذا لم يكن يقصد بالجزاء هذا المعنى ، فأى معنى إذن يمكن أن تتضمنه فكرة العقاب ؟ إن العقاب عندئذ لا يبقى له إلا معنى واحد ، هو فكرة الانتقام .

فاللاحتماى إذن لا يمكن أن يقدم لنا إلا إحدى نظريتين في الجزاء . إما نظرية وحشية بربرية تقيم العقاب على أساس من الانتقام البلى المجرد عن كل صبغة أو وظيفة اجتماعية . ولا نظن أن اللاحتماى يرضى لهذا الموقف لنفسه ، فضلاً عن أنه قد أصبح موقفاً لا يرضى عنه أى مصلح اجتماعى مهما كانت نظريته . أما النظرية الثانية فهى تلك التى تتوقع من الجزاء أن يكون له تأثير على السلوك ، وفي هذا تناقض يسقط جميع الحجج التى يمكن أن تقام ضد موقف الحتمية في السلوك .

مفهوم الجزاء إذن لا يتعارض بالمرّة مع مفهوم الحتمية . ذلك أننا نفهم من الجزاء إعداد الظروف المناسبة بحيث يدعم السلوك الطيب ويثبط السلوك الضار . فإذا كان السلوك يخضع لمبدأ العلّة كأى ظاهرة طبيعية أخرى ، فإن بعض الأسباب التى تؤثر في السلوك هي الثواب والعقاب . ولكن العقاب في هذه الحالة ليس معناه الانتقام الوحشى بل الإصلاح التربوى . ويصبح معنى المسؤولية عندئذ هو القابلية لهذا الإصلاح . فنحن نعتبر الفرد مسئولاً

بمعنى أنه إذا أحسن ، في نظر المجتمع ، أثيب ، حتى يدعم عنده هذا السلوك الطيب ، وإذا أخطأ ، فإننا نعرضه للعقاب التربوي الذي يتلخص في خلق الظروف المضادة لصدور السلوك المعاقب عليه مرة أخرى . أما ما هي الظروف التي تؤدي إلى تدعيم السلوك وما هي الظروف التي يتضمنها العقاب التربوي الذي يؤدي إلى انطفاء السلوك ، فهذا كله يمكننا أن نمجده بناء على دراسة علمية للسلوك وما يؤثر فيه من ظروف مختلفة .

ولعلنا في هذه النظرة لا نختلف مع النظريات الاجتماعية الحديثة في العقاب . فقد أصبح من المتفق عليه أن السجن أو العزل أو غير ذلك من وسائل الضبط الاجتماعي ، لا تعنى أكثر من أن وسيلة إصلاحية تربوية تعمل على تهيئة الجو لهؤلاء المعاقبين حتى يعاد نموهم مرة أخرى ، ويعاد تكوينهم في الاتجاه السوي .

أما الحرية التي ييكها الاحتميون في النظرية الحتمية للسلوك ، فهي في الواقع أول ضحية لنظرتهم هم أنفسهم . ذلك أن الإنسان إذا ما وضع رأسه في الرمال كالنعامة وأعمى نفسه عن الظروف التي تؤثر في سلوكه ، معلناً بكبرياء زائف أنه حر طليق ذو « إرادة » مستقلة عن الأحداث ، إنما يزيد في الواقع من عبوديته لنفس الظروف التي يريد أن يتحرر منها . ذلك أن موقفه هذا إنما يقعه عن البحث في العوامل والأسباب التي تمجد سلوك الإنسان . وقبل أن يضع الإنسان يده على الظروف التي تمجد سلوكه ، فإنه لن يستطيع أن يسيطر عليها وبالتالي فإنه سوف يدعها تسيطر عليها من حيث لا يدرى .

فالقول بأن السلوك الإنساني محتوم بالمعنى العلمي إذن قول لا يتعارض مع الحرية الإنسانية . بل على العكس فإنه يزيد من إمكانية الإنسان في التحرر . ذلك أن في الاتجاه العلمي لدراسة السلوك الفرصة الوحيدة أمام الإنسان لفهم طبيعة سلوكه وتحديد العوامل المؤثرة فيه . إن الإنسان الذي يغضب دون أن يدرى لماذا يغضب ، ويعتدى وهو لا يعرف الظروف التي تدفع إلى العدوان ، لا يمكنه أن يمنع العدوان أو يمنع الغضب . وقد تسيطر عليه هذه الدوافع وهذه النزعات إلى الحد الذي يؤدي به إلى تدمير نفسه . أما الإنسان الذي يفهم طبيعة سلوكه ويحدد بدقة الظروف التي تؤثر فيه ، فهو الإنسان الذي يستطيع بالتالي أن يوجه هذا السلوك في الطريق النافع المفيد ؛ وبذلك يصبح أكثر تحراً من كل ما قد يؤدي إلى هدمه ومن كل ما قد يؤدي إلى هلاكه .

إن الذي يمنع البعض عن تصور حتمية السلوك الإنساني بالمعنى العلمي ، هو في الواقع تقاليد وعقائد وفلسفات قديمة وراسخة . إننا نتعلم جميعاً منذ الصغر ومن أجيال مضت ، بناء على هذه الفلسفات أن الإنسان حر يستطيع أن يتصرف كما يشاء ، وأن سلوكه ليس نتيجة لظروف بيئية معينة ، ولكنه نتيجة لتغيرات داخلية تلقائية في اتجاهاته . نحن نحصل على

هذه التعاليم مع ما تأكله وما نشر به كل يوم في حياتنا العادية . كما أن الفلسفات السائدة في الطبيعة البشرية هي تلك التي تعترف بوجود « إرادة » داخلية لها قوة التدخل في العلاقات السببية مما يجعل التنبؤ بالسلوك أو التحكم فيه أمراً مستحيلاً . ثم إن التخلي عن الرأي القائل بحرية الإرادة يهدد في الواقع عقائد كثيرة عزيزة علينا ويتحدى أمانينا وكبريائنا . كل هذه صراعات طبيعية وضرورية ، ولكنها في الواقع صراعات معوقة للإنسان عن أن يحقق سعادته أو يحسن ظروفه وطبيعته .

مثل هذه الصراعات ليس مجهولاً في تاريخ العلم . فلم يكن الناس على استعداد بالمرّة في عصر كوبرنيكس أن يسلموا بنظريته التي زحزحت الإنسان عن مركزه الممتاز ، يوم أن قال إن الأرض ليست هي مركز الكون . وكان شائعاً حتى ذلك الوقت أن الإنسان هو مركز الأشياء . على أننا اليوم نقبل هذه النظرية بلا انفعال ، باعتبارها حقيقة علمية أثبتت الأيام صحتها . كذلك لم يقبل الناس في البداية نظرية دارون في التطور وعارضوها معارضة شديدة ، لما وجهته ، في نظرهم ، من إساءة إلى الإنسان أيضاً . فقد قرر دارون أن الإنسان ما هو إلا حلقة في سلسلة من التطور تشمل الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها . فكيف يقبل الإنسان أنه واحد من الحيوانات ؟ ولو أن دارون قد أكد تميزه على بقية الحيوانات الأخرى .

ليست هذه سوى أمثلة من الإنكار الذي قد يواجه به الإنسان نظريات تثبت صحتها فيما بعد . ويزداد إنكار الإنسان للنظرية في الواقع ، كلما كانت تتعارض مع عقائد ثابتة راسخة ، وكذلك مع تصوره عن نفسه بناء على هذه العقائد . فليس بمستغرب إذن أن نرى البعض الآن ينكرون حمية السلوك ، خاصة وأن مثل هذا التصور يتعارض مع فكرة الإنسان عن نفسه طوال هذه العصور . الإنسان الذي مجد نفسه ، والذي وصل إلى كل هذه الانتصارات في الكون الذي نعيش فيه ، والذي كان يعتقد في يوم من الأيام أنه مركز هذا الكون ... يعز عليه كثيراً أن يتصور أنه هو نفسه محكوم بظروف خارجة عنه . ولكن كما حدث وانتصر الإنسان في الماضي على ظواهر الكون المختلفة فإنه سوف ينتصر في المستقبل على نفسه ، وكما انتصرت في الماضي النظريات العلمية التي قال بها في الظواهر الطبيعية المختلفة فإن النظرية العلمية للسلوك سوف تنتصر أيضاً . فالمستقبل دائماً للعلم .

تطلب جميع منشوراتنا من :

دار القسام الكويت

شارع السمر - عمارة السمر - بوزارة الخارجية الكويتية
ص.ب. ٤٦ - ق. ٢٠٧ - ٩٥٧٤٠٧ / ٩٥٥٨٤٧٨

دار القسام دبي

طريق الدفوت - نهاية الشيخ راشد القريفة
ص.ب. ١٨١٧ - ق. ٤٣٣٨٨٦